بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهُ.

أَمَّا بَعْدُ ..

فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُذَكِّرُنَا فِي كِتَابِهِ بِعَظِيمِ مِنَّتِهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَيْثُ يَقُولُ: **{لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**[1].

إِنَّ بِعْثَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِيَ أَعْظَمُ نِعْمَةٍ مَنَّ اللهُ بِهَا عَلَى الْبَشَرِيَّةِ وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}**[2].

فَبَعْثَتُهُ رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ لِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ وَلَكِنَّ الَّذِينَ انْتَفَعُوا بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ وَبِهَذِهِ النِّعْمَةِ هُمْ مَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَالْمِنَّةُ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ: **{لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}**.

فَمِنْ حَيْثُ هُوَ رَحْمَةٌ هُوَ رَحْمَةٌ لِكُلِّ النَّاسِ: **{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا}**[3]. فَهُوَ رَحْمَةٌ مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ نَذِيرٌ لِجَمِيعِ الْعَالَمِينَ.

مِنَّةُ اللهِ بِالرِّسَالَةِ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ:

وَلَكِنْ مِنَّةُ اللهِ بِرِسَالَتِهِ خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمِنِينَ، وَلِهَذَا يَقُولُ: **{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ}**[4]. يُشْبِهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: **{يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}**[5].

وَقَدْ مَنَّ اللهُ بِهَذَا الرَّسُولِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مُنْذُ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَكُلُّ مَنْ قَبِلَ هَذَا الرَّسُولَ وَاتَّبَعَهُ فَهُوَ مِمَّنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ فَيَجْتَمِعُ لَهُمُ الْإِيمَانُ وَالْعِلْمُ وَالْعَمَلُ، وَهَذَا هُوَ قَوَامُ السَّعَادَةِ

---

(١) سورة آل عمران: ١٦٤.

(٢) سورة الأنبياء: ١٠٧.

(٣) سورة الفرقان: ١.

(٤) سورة إبراهيم: ١١.

(٥) سورة البقرة: ١٤٢.

وَالْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ}. أَيْ مِنْهُمْ مِنَ الْبَشَرِ.

وَلِهَذَا كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْوَةً لِأُمَّتِهِ، لَهُمْ فِيهِ أُسْوَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِقَوْلِهِ وَبِفِعْلِهِ وَبِتَقْرِيرِهِ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي تَعْرِيفِ السُّنَّةِ.

تَزْكِيَةُ النُّفُوسِ بِعِلْمِ الشَّرِيعَةِ:

{يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ}: أَيْ الْقُرْآنَ، {وَيُزَكِّيهِمْ} بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ تَطْهِيرَهُمْ مِنَ الشِّرْكِ وَالذُّنُوبِ، وَيُصْلِحُ نُفُوسَهُمْ بِالْأَخْلَاقِ الْكَرِيمَةِ، فَأَزْكَى النَّاسِ مَنْ تَلَقَّى هَذَا الْعِلْمَ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ وَعَمِلَ بِهِ، وَمَا الرَّسُولُ إِلَّا سَبَبٌ بِبَيَانِهِ وَتَعْلِيمِهِ وَتِلَاوَتِهِ، وَإِلَّا فَاللهُ هُوَ الَّذِي يُزَكِّي مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ، أَمَّا تَحَقُّقُ الزَّكَاةِ فَبِتَزْكِيَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[1].

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»[2]. وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ يُزَكِّي نَفْسَهُ بِأَنْ يَأْخُذَ بِالْأَسْبَابِ وَيَعْمَلَ.

وَالسَّبَبُ الَّذِي نَقْدِرُ عَلَيْهِ فِي تَزْكِيَةِ نُفُوسِنَا هُوَ أَنْ نَتَعَلَّمَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَنَعْمَلَ بِهِ وَنَجْتَهِدَ فِي ذَلِكَ فَتَزْكُو نُفُوسُنَا: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[3]. {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى وذكر}[4]. {وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ}[5].

فَحَظُّ الْعَبْدِ مِنْ هَذِهِ التَّزْكِيَةِ بِحَسَبِ مَا يُوَفَّقُ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَالتَّزْكِيَةُ تَكُونُ بِصَلَاحِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ مَعًا فَيَحْدُثُ لِلْعَبْدِ الطُّهْرُ وَالنَّقَاءُ مِنْ خَبَثِ الذُّنُوبِ، وَيَحْصُلُ لَهُ مَا يُضَادُّهُ مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ وَمَقَامَاتِ الدِّينِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ مِنْ خَوْفِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ وَالِانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، بِهَذَا يَزْكُو بَاطِنُ الْعَبْدِ وَيَزْكُو ظَاهِرُهُ بِفِعْلِ مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ.

---

(١) سورة النور: ٢١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء- باب التعوذ بالله من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٣) سورة الشمس: ٩، ١٠.

(٤) سورة الأعلى: ١٤، ١٥.

(٥) سورة فاطر: ١٨.

حِفْظُ مَصَادِرِ الشَّرِيعَةِ:

وَمِنْ رَحْمَةِ اللهِ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ -حَيْثُ جَعَلَ نَبِيَّهَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ- أَنْ ضَمِنَ حِفْظَ هَذَا الدِّينِ بِحِفْظِ مَصْدَرِهِ وَأَصْلِهِ الَّذِي هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ لِأَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَنْ فَلَابُدَّ أَنْ يَبْقَى هَذَا النُّورُ وَهَذَا الْعِلْمُ لِتَقُومَ حُجَّةُ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **{إِنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنا لَهُ لَحَافِظُونَ}**[1].

وَقَدْ أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[2]. وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَقَامُوا بِهِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْمَشْهُورِ: «**يَرِثُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَحْرِيفَ الْغَالِينَ**»[3].

وَهَذَا مُشَاهَدٌ، فَالصَّحَابَةُ تَلَقَّتِ الْعِلْمَ عَنْ نَبِيِّهِمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَلَقَّوا الْقُرْآنَ أَلْفَاظَهُ وَمَعَانِيَهُ، وَتَلَقَّوا سُنَّتَهُ وَحَفِظُوا ذَلِكَ وَبَلَّغُوهُ، كُلٌّ بِحَسَبِ مَا أُوتِيَ، فَالصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ عَلَى مَرَاتِبَ، وَوَرَّثُوهُ وَبَلَّغُوهُ مَنْ بَعْدَهُمْ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ بَلَّغُوهُ، وَأَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذِينَ عُنُوا بِهَذَا الْعِلْمِ عُنُوا بِهِ رِوَايَةً وَجَمْعًا وَتَمْيِيزًا.

أَمَّا الْقُرْآنُ فَهُوَ مَحْفُوظٌ حِفْظًا وَكِتَابَةً، وَالسُّنَّةُ قَدْ حُفِظَتْ أَيْضًا وَلَكِنْ قَدْ تَعَرَّضَتْ لِإِدْخَالِ مَا لَيْسَ مِنْهَا مِنْ أَحَادِيثَ مَوْضُوعَةٍ أَوْ أَحَادِيثَ ضَعِيفَةٍ، فَقَيَّضَ اللهُ أَئِمَّةَ الْحَدِيثِ لِلْعِنَايَةِ بِذَلِكَ، وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ رِجَالِ الْأَسَانِيدِ وَمَعْرِفَةِ أَحْوَالِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ وَتَوَارِيخِ حَيَاتِهِمْ -كَمَا تَعْلَمُونَ فِي عِلْمِ عُلُومِ الْحَدِيثِ- وَتَمْيِيزِ الصَّحِيحِ مِنَ السَّقِيمِ. وَهَذَا مِنْ تَحْقِيقِ حِفْظِ اللهِ لِدِينِهِ وَحِفْظِهِ لِكِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَنَحْنُ الْآنَ فِي الْقَرْنِ الْخَامِسَ عَشَرَ -وَللهِ الْحَمْدُ- هَذَا الدِّينُ بِمَصْدَرَيْهِ مَحْفُوظٌ وَمُيَسَّرٌ لِمَنْ طَلَبَهُ.

وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا نَرَى فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنْ إِقَامَةِ مِثْلِ هَذِهِ اللِّقَاءَاتِ وَالدَّوْرَاتِ، وَإِنْ كَانَتْ فِي أَوْقَاتٍ مَحْدُودَةٍ لَكِنَّهَا جُزْءٌ مِمَّا يَحْفَظُ اللهُ بِهِ هَذَا الدِّينَ، فَأَنْتُمْ تَقُومُونَ -بِمَا تَقُومُونَ بِهِ مِنَ التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ- بِقَدْرٍ مِنْ

---

(١) سورة الحجر: ٩.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة- باب قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم» (١٩٢٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٠٩)، من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٨).

حِفْظِ الدِّينِ وَلَا سِيَّمَا فِي هَذَا الْعَصْرِ الَّذِي قَدِ اشْتَدَّتْ فِيهِ غُرْبَةُ الدِّينِ مِنْ حَيْثُ تَعَلُّمِهِ وَمِنْ حَيْثُ الْقِيَامِ بِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ- وَإِنْ كَانَ هُوَ مَحْفُوظٌ وَبَاقٍ- لَكِنْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا كَانَ مِنْ قَبْلُ مِنْ عِنَايَةِ الْمُسْلِمِينَ.

وَنَتَعَرَّضُ فِي هَذَا الْوَقْتِ لِعَوَارِضَ وَفِتَنٍ صَرَفَتْ أَكْثَرَ النَّاسِ عَنِ الْعِنَايَةِ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ عِلْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَمِمَّا يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ الْعِلْمَ الَّذِي أَثْنَى اللهُ عَلَى أَهْلِهِ وَقَرَنَ شَهَادَتَهُمْ بِشَهَادَتِهِ عَلَى تَوْحِيدِهِ وَوَعَدَهُمْ بِالرِّفْعَةِ وَوَصَفَهُمْ بِالْخَشْيَةِ ـ هُوَ الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ.

دَعُونَا مِنَ التَّلْبِيسِ وَحَمْلِ النُّصُوصِ عَلَى خِلَافِ مَا وَرَدَتْ فِيهِ، الْمُرَادُ بِالْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى **{شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**[1]. أُولُو الْعِلْمِ هُمُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمُ الْعَالِمُونَ بِاللهِ وَبِأَمْرِهِ وَشَرْعِهِ، **{إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**[2]. الْعُلَمَاءُ بِاللهِ وَبِدِينِهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}**[3].

وَرَدَتْ بَعْدَ قَوْلِهِ: **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}**. جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بَعْدَ ذِكْرِ صِنْفَيْنِ: **{وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}**[4]. ثُمَّ جَاءَ الصِّنْفُ الثَّانِي: **{أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ}**.

فَالْعَالِمُونَ هُمُ الْعَالِمُونَ بِاللهِ وَبِأَمْرِهِ، الدَّائِمُونَ عَلَى طَاعَتِهِ، قَانِتُونَ يَخَافُونَ اللهَ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ.

{أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}[5]، **{وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ}**[6]

فَاذْكُرُوا أَيُّهَا الْإِخْوَانُ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ بِمَا وَفَّقَكُمْ لَهُ مِنَ الرَّغْبَةِ فِي تَحْصِيلِ هَذَا الْعِلْمِ وَالتَّفَرُّغِ لِذَلِكَ، فَهَذِهِ

(١) سورة آل عمران: ١٨.

(٢) سورة فاطر: ٢٨.

(٣) سورة الزمر: ٩.

(٤) سورة الزمر: ٨.

(٥) سورة الرعد: ١٩.

(٦) سورة غافر: ٥٨.

نِعْمَةٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى، تَوْفِيقٌ لَا بِالْحَوْلِ وَلَا بِالْقُوَّةِ، فَاحْمَدُوا اللهَ أَنْ وَفَّقَكُمْ لِذَلِكَ وَاحْمَدُوا اللهَ أَنْ يَسَّرَ لَكُمْ مَنْ يُهَيِّئُ لَكُمْ مِثْلَ هَذِهِ الْفُرَصِ.

يَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»(١).

وَلَا يَكُونُ مَفْهُومُ هَذَا الْحَدِيثِ مَقْصُورًا عَلَى حِلَقِ التَّحْفِيظِ وَتَلْقِينِ الصِّغَارِ وَنَحْوِهِمْ أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ وَفَقَطْ، بَلْ هَذَا يَشْمَلُ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ؛ فَعِلْمُ نُصُوصِهِ وَعِلْمُ حُرُوفِهِ وَعِلْمُ مَعَانِيهِ، وَتَعْلِيمُ السُّنَّةِ مِنْ تَمَامِ تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ، وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَبَعْدُ أَيُّهَا الْإِخْوَانُ..

نَبْدَأُ إِنْ شَاءَ اللهُ مَعَكُمْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْمُبَارَكَةِ -وَنَسْأَلُ اللهَ الْمَدَدَ وَالتَّوْفِيقَ لِلْجَمِيعِ- فِي قِرَاءَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْبَسِيطِ «رِسَالَةٌ فِي أُصُولِ الْعَقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ» لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَعْدِيٍّ.

وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ صَغِيرَةٌ فِي حَجْمِهَا وَمُخْتَصَرَةٌ فِي لَفْظِهَا وَلَكِنَّهَا عَظِيمَةٌ وَكَبِيرَةٌ فِي مَعْنَاهَا.

تَرْجَمَةُ الشَّيْخِ السَّعْدِيِّ:

وَالشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ عَلَّامَةُ الْقَصِيمِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعَ عَشَرَ فَهُوَ مِنْ أَعْلَامِ الْعُلَمَاءِ الْمُتَمَيِّزِينَ فِي عِلْمِ الشَّرِيعَةِ وَفِي مَنَاهِجِ التَّعْلِيمِ. وُلِدَ رَحِمَهُ اللهُ سَنَةَ ١٣٠٧ وَتُوُفِّيَ سَنَةَ ١٣٧٦ وَقَدْ عَمُرَتْ حَيَاتُهُ بِالتَّعْلِيمِ وَتَخَرَّجَ عَلَى يَدِهِ الْعَشَرَاتُ بَلِ الْمِئَاتُ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ، وَأَلَّفَ الْمُؤَلَّفَاتِ الصَّغِيرَةِ وَالْكَبِيرَةِ، وَأَعْظَمُهَا تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ «تَيْسِيرُ الْكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَّانِ» وَهُوَ تَفْسِيرٌ نَادِرٌ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ إِنَّهُ لَا نَظِيرَ لَهُ فِي طَرِيقَتِهِ وَأُسْلُوبِهِ، وَلِهَذَا أُوصِي كُلَّ مَنْ سَأَلَ عَمَّا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ وَتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ فَلَيْسَ فِيهِمَا مَا يُشَتِّتُ الْقَارِئَ فِي أَنْوَاعِ الْفُنُونِ.

وَتَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ أَكْثَرُ انْحِصَارًا فِي تَبْيِينِ مَعَانِي الْآيَاتِ بِطَرِيقَةٍ وَاضِحَةٍ وَبِأُسْلُوبٍ بَيِّنٍ وَاضِحٍ.

مَنْهَجُ الرِّسَالَةِ:

وَهَذِهِ الرِّسَالَةُ الَّتِي بَيْنَ أَيْدِيكُمْ صَغِيرَةٌ وَمُخْتَصَرَةٌ وَهُوَ كَمَا قَالَ أَنَّهُ قَصَدَ بِذَلِكَ ذِكْرَ هَذِهِ الْأُصُولِ عَلَى وَجْهِ الِاخْتِصَارِ وَأَنَّهَا كَالْفِهْرِسْتِ لِمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَسَائِلِ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن- باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٥٠٢٧)، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وَقَدْ بَنَى هَذِهِ الرِّسَالَةَ عَلَى خَمْسَةِ أُصُولٍ الَّتِي قَالَ عَنْهَا: أُصُولُ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ وَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْأُصُولُ فِي جُمْلَتِهَا أُصُولَ الْإِيمَانِ السِّتَّةِ وَتَضَمَّنَتْ أَكْثَرَ مَا يَذْكُرُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مِنْ مَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ، ثُمَّ يُدْخِلُ فِي كُلِّ أَصْلٍ أُمُورًا هِيَ مِنْ مَسَائِلِ الْعَقِيدَةِ.

وَأُصُولُ الِاعْتِقَادِ الَّتِي هِيَ أُصُولُ الْإِيمَانِ تَرْجِعُ إِلَى هَذِهِ الْأُصُولِ السِّتَّةِ الَّتِي فَسَّرَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِيمَانَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

فَجَمِيعُ مَسَائِلِ الِاعْتِقَادِ لَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأُصُولِ، مِنْهَا مَا يَرْتَبِطُ بِعَدَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ وَمِنْهَا مَا يَرْتَبِطُ بِأَصْلٍ وَاحِدٍ وَهَكَذَا.

فَكُلُّهَا مُرْتَبِطَةٌ بِبَعْضِهَا.

يَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ نَاصِرٍ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَمَّا بَعْدُ..

فَهَذَا مُخْتَصَرٌ جِدًّا فِي أُصُولِ العَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ، وَالأُصُولِ الكَبِيرَةِ المُهِمَّةِ اقْتَصَرْنَا فِيهَا عَلَى مُجَرَّدِ الإِشَارَةِ وَالتَّنْبِيهِ مِنْ غَيْرِ بَسْطٍ لِلكَلَامِ وَلَا ذِكْرِ أَدِلَّتِهَا، أَقْرَبُ مَا يَكُونُ لَهَا أَنَّهَا مِنْ نَوْعِ الفِهْرِسْتِ لِلمَسَائِلِ لِتُعْرَفَ أُصُولُهَا، وَمَقَامُهَا، وَمَحَلُّهَا مِنَ الدِّينِ ثُمَّ مَنْ لَهُ رَغْبَةٌ فِي العِلْمِ يَطْلُبُ بَسْطَهَا وَبَرَاهِينَهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا، وَإِن يَسَّرَ اللهُ وَفَسَّحَ فِي الأَجَلِ بَسَطْتُ هَذِهِ المَطَالِبَ وَوَضَّحْتُهَا بِأَدِلَّتِهَا).

ابْتَدَأَ رَحِمَهُ اللهُ كَلَامَهُ بِحَمْدِ اللهِ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللهِ كَمَا هُوَ الْمُتَّبَعُ، فَقَدْ كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَبْتَدِئُ خُطَبَهُ بِحَمْدِ اللهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، فَهُوَ تَعَالَى الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ لِأَنَّهُ الْمُنْعِمُ بِجَمِيعِ النِّعَمِ وَهُوَ الْمَوْصُوفُ بِجَمِيعِ الْمَحَامِدِ فَهُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْحَمْدِ كُلِّهِ.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ:

يَتَكَلَّمُ أَهْلُ الْعِلْمِ عِنْدَ تَفْسِيرِ الْفَاتِحَةِ وَيَتَكَلَّمُ شُرَّاحُ الْمُتُونِ وَشُرَّاحُ الْكُتُبِ عَنِ الْحَمْدِ وَمَعْنَاهُ وَالْفَرْقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الشُّكْرِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ تَعْظِيمُ الْمُنْعِمِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِآلَائِهِ مَعَ

تَعْظِيمِهِ وَمَحَبَّتِهِ.

وَمِنْهُمْ مَنْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ فَيَجْعَلُ بَيْنَهُمَا عُمُومًا وَخُصُوصًا؛ فَيَخُصُّ الشُّكْرَ –وَهُوَ الثَّنَاءُ عَلَى اللهِ– بِمَا يُقَابِلُ النِّعَمَ.

وَأَمَّا الثَّنَاءُ عَلَيْهِ بِسَائِرِ صِفَاتِ كَمَالِهِ فَهَذَا حَمْدٌ لِأَنَّهُ الْمَحْمُودُ عَلَى كُلِّ حَالٍ عَلَى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ وَهَذَا أَنْسَبُ أَنْ يَكُونَ الْحَمْدُ أَعَمَّ لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي مُقَابِلِ النِّعَمِ وَغَيْرِهَا.

وَيَقُولُ الْبَاحِثُونَ فِي هَذَا: إِنَّ الْحَمْدَ أَخَصُّ مِنْ جِهَةِ الْآلَةِ لِأَنَّ الْحَمْدَ يَقُومُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ فَقَطْ.

وَأَمَّا الشُّكْرُ فَيَكُونُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ.

وَيَذْكُرُونَ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْبَيْتَ الْمَشْهُورَ:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً

يَدِي ولساني والضمير المحجبا

فَالشُّكْرُ يَتَضَمَّنُ تَعْظِيمَ الْمُنْعِمِ بِالِاعْتِرَافِ وَبِالثَّنَاءِ وَبِالطَّاعَةِ وَالْحَمْدُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ سَبَبِهِ وَمُوجِبِهِ، وَالشُّكْرُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ أَدَاتِهِ وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ سَبَبِهِ وَهِيَ النِّعَمُ.

قَوْلُهُ: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

هَذَانِ اسْمَانِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، فَأَجْمَعُ الْأَسْمَاءِ لِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَخَصُّ الْأَسْمَاءِ لَهُ لَفْظُ الْجَلَالَةِ (اللهُ)؛ إِذْ لَا يُسَمَّى بِهِ غَيْرُهُ، أَمَّا بَقِيَّةُ الْأَسْمَاءِ فَقَدْ يُطْلَقُ بَعْضُهَا عَلَى الْمَخْلُوقِ مِثْلُ: عَزِيزٍ وَكَرِيمٍ وَغَنِيٍّ...

وَيَتَضَمَّنُ هَذَا الِاسْمُ مَعْنَى الْأُلُوهِيَّةِ؛ لِأَنَّ أَصْلَ كَلِمَةِ (اللهِ) الْإِلَهُ، فَحُذِفَتِ الْهَمْزَةُ وَأُدْغِمَتِ اللَّامُ فِي اللَّامِ مَعَ التَّفْخِيمِ فَكَانَتْ: (اللهَ).

وَذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ[1] وَغَيْرُهُ أَنَّ الْبَاحِثِينَ اخْتَلَفُوا هَلْ لَفْظُ الْجَلَالَةِ مُشْتَقٌّ أَمْ جَامِدٌ؟

جَامِدٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَا يَدُلُّ عَلَى مَعْنًى، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ مُشْتَقٌّ.

---

(١) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين ابن القيم الجوزي: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده سنة ٦٩١هـ في دمشق، ووفاته سنة ٧٥١هـ في دمشق أيضا. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. (الأعلام للزركلي: ٦/ ٥٦).

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى صِفَةٍ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ[1] فِي تَفْسِيرِ هَذَا الِاسْمِ أَنَّهُ ذُو الْأُلُوهِيَّةِ وَالْمَعْبُودِيَّةِ -فِي بَعْضِ الْكُتُبِ يَقُولُونَ: وَالْعُبُودِيَّةُ وَالصَّوَابُ وَالْمَعْبُودِيَّةِ- عَلَى خَلْقِهِ أَجْمَعِينَ.

قَوْلُهُ: وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ:

أَمَّا الصَّلَاةُ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاللهُ قَدْ أَخْبَرَ أَنَّهُ هُوَ وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ، وَأَمَرَ عِبَادَهُ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ.

وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي مَعْنَى الصَّلَاةِ عَلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا جَاءَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ -وَهُوَ أَثَرٌ مَشْهُورٌ- أَنَّ صَلَاةَ اللهِ عَلَى عَبْدِهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ، وَالصَّلَاةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الرَّحْمَةُ، وَالصَّلَاةُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الدُّعَاءُ.

لَكِنْ يُخَصَّصُ هَذَا بِأَنْ يُقَالَ: صَلَاةُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى النَّبِيِّ هُوَ دُعَاؤُهُمُ اللهَ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَإِذَا قُلْتَ اللَّهُمَّ ارْفَعْ دَرَجَاتِهِ وَإِذَا قُلْتَ اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ. فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ دُعَاءٌ آخَرُ نَدَبَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ.

وَفِي نَفْسِ الْحَدِيثِ يَقُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا لِيَ الْوَسِيلَةَ**»[2]. فَفَرَّقَ بَيْنَ سُؤَالِ الْوَسِيلَةِ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ.

(**مُحَمَّدٌ**): هُوَ أَشْهَرُ أَسْمَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَهُ أَسْمَاءٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا: أَحْمَدُ، وَقَدْ وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ بَلْ هَذَانِ الِاسْمَانِ جَاءَا فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ كَمَا جَاءَ عَلَى لِسَانِ الْمَسِيحِ فِي سُورَةِ الصَّفِّ: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**[3].

وَهُوَ عَلَمٌ وَصِفَةٌ، وَلَيْسَ كَأَسْمَائِنَا الَّتِي هِيَ أَعْلَامٌ مَحْضَةٌ.

وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ دَالٌّ عَلَى شَخْصِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدَالٌّ عَلَى كَثْرَةِ حَامِدِيهِ لِكَثْرَةِ مَحَامِدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) هو: الصحابي الجليل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، حبر الأمة كنيته أبو العباس توفي النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربع عشرة سنة ولد قبل هجرة النبي صلى الله عليه و سلم بأربع سنين قال له النبي صلى الله عليه و سلم اللهم علمه الحكمة مات سنة ثمان وستين بالطائف له في الصحيحين وغيرهما ١٦٦٠ حديثًا. (الأعلام للزركلي: ٤/ ٩٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة- باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه (٣٨٤)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) سورة الصف: ٦.

وَهُوَ اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ حُمِّدَ، وَهِيَ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ أَبْلَغُ مِنْ حُمِدَ؛ فَمُحَمَّدٌ أَبْلَغُ مِنْ مَحْمُودٍ، لِأَنَّ مَحْمُودًا مِنْ حُمِدَ، وَمُحَمَّدٌ مِنْ حُمِّدَ، فَفِيهِ تَضْعِيفٌ.

وَلِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْمَاءٌ أُخْرَى أَخْبَرَ بِهَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فَقَالَ: «**لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ**»[1].

(**وَآلِهِ**): الْآلُ فُسِّرَ بِأَهْلِ بَيْتِهِ مِنْ قَرَابَتِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ، وَفُسِّرَ بِزَوْجَاتِهِ وَذُرِّيَّتِهِ، وَكَذَلِكَ بِأَتْبَاعِهِ.

فَيَدْخُلُ فِي هَذَا: آلُهُ بِالْمَعْنَى الْخَاصِّ وَهُمْ آلُ بَيْتِهِ وَعَشِيرَتِهِ، وَبِالْمَعْنَى الْعَامِّ الَّذِينَ هُمْ أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ مُنْذُ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

(**وَصَحْبِهِ**): عَطْفُ الصَّحْبِ عَلَى الْآلِ هَذَا مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ، فَالْآلُ دَاخِلُونَ فِي الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ لَمَّا سُئِلَ: كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ قَالَ: «**قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[2].

لَكِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ جَرَوا عَلَى ذِكْرِ الْأَصْحَابِ بَعْدَ الْآلِ، بِسَبَبِ مَا أَحْدَثَهُ الرَّافِضَةُ مِنْ أَنَّهُمْ يُعَظِّمُونَ الْآلَ أَهْلَ الْبَيْتِ فَقَطْ وَيَرْفُضُونَ الصَّحَابَةَ بَلْ إِنَّهُمْ يُخْرِجُونَ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَيَخُصُّونَ الْآلَ بِعَلِيٍّ وَذُرِّيَّتِهِ، فَالْعَبَّاسُ[3] وَذُرِّيَّتُهُ لَيْسُوا مِنْ آلِهِ عِنْدَهُمْ، فَكَانَ مِنَ الْمُنَاسِبِ ذِكْرُ الصَّحَابَةِ خِلَافًا لِمَا اعْتَادَهُ الرَّافِضَةُ، فَهُمْ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَلَا يَذْكُرُونَهُمْ إِلَّا بِالشَّرِّ.

قَوْلُهُ: أَمَّا بَعْدُ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب ما جاء في أسماء رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣٥٣٢) واللفظ له، ومسلم في كتاب الفضائل- باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم (٢٣٥٤)، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء- باب قول الله تعالى: { وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} (٣٣٧٠)، ومسلم في كتاب الصلاة- باب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد التشهد (٤٠٦)، من حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه، وفي «الصحيحين» من حديث أبي حميد الساعدي، وعند «البخاري» من حديث أبي سعيد الخدري، وعند «مسلم» من حديث أبي مسعود الأنصاري، وغيرهم رضي الله عنهم، انظر كتاب «جلاء الأفهام» لابن القيم.

(٣) هو: العباس بن عبد المطلب بن هاشم، أبو الفضل: عم النبي صلى الله عليه وسلم، من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، وجد الخلفاء العباسيين. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصفه: أجود قريش كفا وأوصلها، هذا بقية آبائي !. وكان محسنا لقومه، سديد الرأي، واسع العقل، مولعا بإعتاق العبيد، كارها للرق، وشهد فتح مكة. مات سنة ٣٢هـ. (الإصابة في تمييز الصحابة: ٣/ ٦٣١).

هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ: مَهْمَا يُذْكَرُ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ فَهُوَ كَذَا وَكَذَا.

فَهِيَ جُمْلَةٌ يُؤْتَى بِهَا لِلِانْتِقَالِ مِنْ فَاتِحَةِ الْكَلَامِ إِلَى الشُّرُوعِ فِي الْمَقْصُودِ. وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِ، فَالْإِتْيَانُ بِهَا سُنَّةٌ وَكَثِيرًا مَا يَخْتَصِرُهَا النَّاسُ فَيَقُولُونَ: وَبَعْدُ. لَكِنَّ السُّنَّةَ أَنْ تَقُولَ: أَمَّا بَعْدُ.

وَالْمُفَسِّرُونَ تَكَلَّمُوا عَنْهَا عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي شَأْنِ دَاوُدَ: **{وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ}**(١). فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ فَصْلَ الْخِطَابِ هُوَ أَنْ يَقُولَ: أَمَّا بَعْدُ. وَلَكِنَّ هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَفَصْلُ الْخِطَابِ هُوَ الْقَوْلُ الْفَصْلُ الَّذِي يَحْدُثُ بِهِ الْفَصْلُ بَيْنَ الْمُتَنَازِعَيْنِ وَالْفَصْلُ بَيْنَ الشُّبُهَاتِ.

ثُمَّ ذَكَرَ الشَّيْخُ مَا قَصَدَ إِلَيْهِ مِنْ ذِكْرِ أُصُولِ الْعَقَائِدِ الدِّينِيَّةِ قَالَ: **وَالأُصولِ الكَبِيرَةِ المُهِمَّةِ.**

يُنَبِّهُ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأُصُولِ الْكِبَارِ، وَإِلَّا فَأُصُولُ الْعَقِيدَةِ مُتَعَدِّدَةٌ.

وَبَيَّنَ مَنْهَجَهُ فِيهَا بِأَنَّهُ قَصَدَ إِلَى ذِكْرِ هَذِهِ الْأُصُولِ عَلَى سَبِيلِ الِاخْتِصَارِ بِدُونِ بَسْطِ الْمَسَائِلِ وَلَا ذِكْرِ الْأَدِلَّةِ، وَصُوَرَّهَا بِأَنَّهَا أَقْرَبُ مَا تَكُونُ مِنْ **نَوْعِ الفِهْرِسْتِ لِلمَسَائِلِ.**

وَ(الْفِهْرِسْتُ) كَلِمَةٌ مُعَرَّبَةٌ أَصْلُهَا فَارِسِيٌّ، وَنَحْنُ نَقُولُهَا : فِهْرِسٌ. هَذَا هُوَ اللَّفْظُ الْمُعَرَّبُ.

وَوَعَدَ رَحِمَهُ اللهُ بِأَنَّهُ إِنْ كَانَ فِي الْعُمْرِ فُسْحَةٌ وَمَدَّ اللهُ فِي حَيَاتِهِ أَنْ يَبْسُطَ هَذِهِ الْمَسَائِلَ وَيَذْكُرَ أَدِلَّتَهَا، وَنَحْنُ لَا نَدْرِي هَلْ تَيَسَّرَ لَهُ ذَلِكَ وَأَنَّهُ شَرَعَ فِي بَسْطِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ كَمَا رَجَاهُ، رُبَّمَا يَكُونُ هَذَا وَلَمْ يُكْشَفْ عَنْهُ وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: (الأَصْلُ الأَوَّلُ : التَّوْحِيدُ، حَدُّ التَّوْحِيدِ الجَامِعُ لِأَنوَاعِهِ هُوَ: اعْتِقَادُ العَبْدِ وَإِيمَانُهُ بِتَفَرُّدِ اللهِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، وَإِفْرَادُهُ بِأَنوَاعِ العِبَادَةِ.

فَدَخَلَ فِي هَذَا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ: الَّذِي هُوَ اعْتِقَادُ انفِرَادِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِالخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَأَنوَاعِ التَّدْبِيرِ.

وَتَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: وَهُوَ إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ صلى الله عليه وسلم مِنَ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الكَامِلَةِ العُلْيَا مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ. وَتَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ: وَهُوَ إِفْرَادُهُ وَحْدَهُ بِأَجْنَاسِ العِبَادَةِ، وَأَنوَاعِهَا، وَأَفْرَادِهَا مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا مَعَ اعْتِقَادِ كَمَالِ أُلُوهِيَّتِهِ).

يَقُولُ: الْأَصْلُ الْأَوَّلُ التَّوْحِيدُ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَصْلُ دِينِ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ.

---

(١) سورة: ص: ٢٠.

وَأَصْلُ مَعْنَاهُ فِي اللُّغَةِ: جَعْلُ الْأَشْيَاءِ الْمُتَعَدِّدَةِ وَاحِدًا؛ وَلِهَذَا قَالَ الْمُشْرِكُونَ لَمَّا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَقَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ: **{أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ}**(١). وَالْمُرَادُ بِهِ: حَكَمَ أَنَّ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا، أَيْ فِي الْحُكْمِ وَالتَّشْرِيعِ، وَمَعْنَاهُ إِبْطَالُ كُلِّ مَا سِوَى اللهِ مِمَّا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَهَذَا التَّوْحِيدُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مَعْنَى: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ)، فَهِيَ حَصْرٌ؛ نَفْيٌ وَاسْتِثْنَاءٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

فَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى إِبْطَالِ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَى اللهِ وَإِثْبَاتِ الْعِبَادَةِ وَالْإِلَهِيَّةِ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَبَيَّنَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ مَعْنَاهَا: لَا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إِلَّا اللهُ، أَيْ أَنَّ اللهَ هُوَ الْمَعْبُودُ بِحَقٍّ وَكُلُّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: **{ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}**(٢)

وَكَلِمَةُ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ الْأَعْظَمُ مِنْهَا هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ وَتَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ، لَكِنَّهَا مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّوْحِيدِ كُلِّهِ.

وَالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا قَالَ: الْأَصْلُ الْأَوَّلُ التَّوْحِيدُ. فَسَّرَهُ بِمَا يَشْمَلُ أَنْوَاعَهُ قَبْلَ التَّفْصِيلِ؛ فَيَقُولُ إِنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الِاعْتِقَادُ وَالْإِيمَانُ بِتَفَرُّدِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ كُلِّهَا الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ، وَتَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ بِمَعْنَى أَنَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ، وَبِالْعِبَادَةِ.

فَذَكَرَ تَعْرِيفًا عَامًّا فَالتَّوْحِيدُ بِإِطْلَاقٍ يَشْمَلُ أَنْوَاعَ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ أَوِ النَّوْعَيْنِ.

تَقْسِيمُ التَّوْحِيدِ:

وَفِي عِبَارَةِ الشَّيْخِ مَا يَتَضَمَّنُ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَقْسِيمَ التَّوْحِيدِ فِيهِ طَرِيقَتَانِ: طَرِيقَةٌ أَنَّهُ قِسْمَانِ، وَطَرِيقَةٌ أَنَّهُ ثَلَاثَةٌ، وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ.

فَيُمْكِنُ أَنْ تَقُولَ: إِنَّ التَّوْحِيدَ نَوْعَانِ وَنُعَبِّرُ عَنْ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرَ الشَّيْخُ، أَوْ نَقُولُ: التَّوْحِيدُ نَوْعَانِ؛ تَوْحِيدٌ فِي الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ، وَتَوْحِيدٌ فِي الْعِبَادَةِ أَوِ فِي الْإِلَهِيَّةِ أَوْ فِي الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ.

وَأَهْلُ الْعِلْمِ لَهُمْ عِبَارَاتٌ فِي ذَلِكَ فَلَا تُشْكِلُ عَلَى طَالِبِ الْعِلْمِ فَقَدْ يُعَبِّرُ عَنِ الشَّيْءِ الْوَاحِدِ بِعِبَارَاتٍ لَكِنْ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَهَا.

---

(١) سورة ص: ٥.

(٢) سورة الحج: ٦٢.

فَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ يُمْكِنُ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ بِـ: التَّوْحِيدِ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، أَوِ: التَّوْحِيدِ الْعِلْمِيِّ الْقَوْلِيِّ، أَوِ: التَّوْحِيدِ الْخَبَرِيِّ، أَوْ مَا أَشْبَهَ ذَلِكَ.

وَتَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ تُعَبِّرُ عَنْهُ بِـ: تَوْحِيدٍ فِي الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ، أَوِ: التَّوْحِيدِ الْإِرَادِيِّ الْعَمَلِيِّ، أَوْ: تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، أَوْ: تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ.

فَيَجِبُ أَلَّا تَثْقُلَ تَنَوُّعُ الْعِبَارَاتِ وَالْأَلْفَاظِ عَنْ هَذِهِ الْمَعَانِي.

الأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: هَلْ يُعْرَفُ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيِّ كِتَابٌ مُطَوَّلٌ فِي الْعَقِيدَةِ؟

الجَوَابُ: لَا أَذْكُرُ ذَلِكَ لَكِنْ لَهُ كَلَامٌ فِي الرَّدِّ عَلَى الْمُلْحِدِينَ.

السُّؤَالُ: مَا مَعْنَى عِبَارَةِ تَوْحِيدِ الطَّلَبِ وَتَوْحِيدِ الْقَصْدِ؟

الجَوَابُ: تَوْحِيدُ الطَّلَبِ هُوَ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ؛ لِأَنَّ تَوْحِيدَ الْعِبَادَةِ فِيهِ طَلَبٌ لِأَنَّ تَوْحِيدَ الْعِبَادَةِ فِيهِ عَمَلٌ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ: الْبَاطِنُ هُوَ الْإِرَادَةُ وَالْقَصْدُ وَالطَّلَبُ، وَفِي الظَّاهِرِ كَذَلِكَ طَلَبٌ فَأَنْتَ تَدْعُو رَبَّكَ، وَالدُّعَاءُ طَلَبٌ وَهَذَا عِبَادَةٌ فِي الظَّاهِرِ، وَكُلُّ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ تُسَمَّى دُعَاءً.

السُّؤَالُ: هَلْ تَنْصَحُونَ بِشَرْحِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّعْدِي عَلَى الوَاسِطِيَّةِ وَكِتَابِ التَّوْحِيدِ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ، لَوْ كَانَ لَهُ شَرْحٌ عَلَى الْعَقِيدَةِ، وَلِلشَّيْخِ كِتَابٌ مُقْتَضَبٌ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ يُسَمَّى «الْقَوْلُ السَّدِيدُ فِي مَقَاصِدِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ».

يَقُولُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ: الْأَصْلُ الْأَوَّلُ التَّوْحِيدُ.

وَالْمُرَادُ بِهِ إِفْرَادُهُ وَتَفَرُّدُهُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، فَاسْمُهُ الْوَاحِدُ وَاسْمُهُ الْأَحَدُ، وَالْإِيمَانُ بِتَفَرُّدِهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ بِإِلَهِيَّتِهِ، وَهَذَا يَقْتَضِي إِفْرَادَهُ بِالْعِبَادَةِ.

وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ أَنَّ الشَّيْخَ جَعَلَ التَّوْحِيدَ مُتَضَمِّنًا لِشَيْئَيْنِ:

الْأَوَّلُ: الْإِيمَانُ بِتَفَرُّدِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ.

الثَّانِي: تَفَرُّدُهُ بِإِلَهِيَّتِهِ وَمَا يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ مِنْ تَخْصِيصِهِ بِالْعِبَادَةِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ.

ثُمَّ فَصَّلَ وَنَبَّهَ إِلَى أَنَّ هَذَا يَدْخُلُ فِيهِ –أَيْ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ– أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ الْمَشْهُورَةِ.

وَسَبَقَ الْإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ لِلْعُلَمَاءِ طَرِيقَتَيْنِ فِي تَقْسِيمِ التَّوْحِيدِ:

فَتَارَةً يَقُولُونَ هُوَ نَوْعَانِ أَوْ قِسْمَانِ، وَتَارَةً يَقُولُونَ هُوَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ.

وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الطَّرِيقَتَيْنِ، وَهَذَا وَاضِحٌ فِي كَلَامِ الشَّيْخِ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِتَفَرُّدِهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ يَتَضَمَّنُ نَوْعَيْ التَّوْحِيدِ؛ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ. وَالتَّقْسِيمُ دَائِمًا يَكُونُ فِيهِ تَوْضِيحًا لِلْمَعَانِي وَمَا يَدْخُلُ فِيهَا.

الْأَدِلَّةُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى أَقْسَامِ التَّوْحِيدِ:

وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ الثَّلَاثَةُ أَوْ هَذَانِ النَّوْعَانِ مِنَ التَّوْحِيدِ كُلُّهَا دَلَّ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، فَذِكْرُ الْعُلَمَاءِ لَهَا لَيْسَ بِدْعًا كَمَا يَزْعُمُ الْمُغَالِطُونَ وَخُصُومُ السُّنَّةِ فَالْأَدِلَّةُ الَّتِي فِي الْقُرْآنِ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْمَعَانِيَ:

فَهَذِهِ سُورَةُ: **{قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}**[1]. فِيهَا الدَّلَالَةُ عَلَى تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ الطَّلَبِ وَالْقَصْدِ أَوْ قُلْ: التَّوْحِيدُ الْعَمَلِيُّ، بَلْ هِيَ نَصٌّ فِي تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ.

وَدَلَّ عَلَى النَّوْعِ الْآخَرِ وَهُوَ تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا يَدْخُلُ فِيهِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ سُورَةُ: **{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ (١) اللهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}**[2]. وَهِيَ نَصٌّ فِي تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، أَوْ

(١) سورة الكافرون: ١-٦.

(٢) سورة الإخلاص: ١-٤.

بِالتَّعْبِيرِ الْآخَرِ: التَّوْحِيدُ الْعَلَمِيُّ الْقَوْلِيُّ الْخَبَرِيُّ.

تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ فِي الْقُرْآنِ:

وَمِنْ شَوَاهِدِ تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ وَمِنْ دَلَائِلِهِ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: **{وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}**(١). وَ: **{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ}**(٢). وَ: **{شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}**(٣). وَ: **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}**(٤). وَ: **{بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}**(٥). وَ: **{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ}**(٦).

تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فِي الْقُرْآنِ:

وَلِلنَّوْعُ الثَّانِي مِنْ تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا يَدْخُلُ فِيهِ مِنْ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ تَدُلُّ عَلَيْهِ:

قَالَ تَعَالَى: **{هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}**(٧). وَهَكَذَا أَوَّلُ سُورَةِ الْحَدِيدِ: **{سَبَّحَ للهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}**(٨).

وَالْآيَاتُ عِنْدَمَا يَقْرَؤُهَا الْمُسْلِمُ وَيَتَدَبَّرُهَا يَجِدُ أَنَّ بَعْضَهَا يَدُلُّ عَلَى بَعْضٍ، وَيُوَضِّحُ الْعُلَمَاءُ هَذَا بِأَنَّ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ، وَتَوْحِيدَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ، فَبَيْنَهُمَا كَامِلُ الِارْتِبَاطِ، وَلَا يَنْفَكُّ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ فِي ذَاتِهَا، لَكِنْ يَنْفَكُّ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ فِي وَاقِعِ النَّاسِ.

---

(١) سورة النساء: ٣٦.

(٢) سورة الإسراء: ٢٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٨.

(٤) سورة النحل: ٣٦.

(٥) سورة الزمر: ٦٦.

(٦) سورة الزمر: ١١.

(٧) سورة الحشر: ٢٢-٢٤.

(٨) سورة الحديد: ١-٣.

فَنَجِدُ هَذَا مُوَحِّدًا فِي الرُّبُوبِيَّةِ كَحَالِ الْمُشْرِكِينَ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ رَبَّهُمْ وَأَنَّ اللهَ خَالِقُهُمْ وَأَنَّ اللهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ، فَهُنَا حَصَلَ التَّبَايُنُ وَالتَّنَاقُضُ فِي وَاقِعِ النَّاسِ.

فَائِدَةُ هَذَا التَّقْسِيمِ:

وَهَذَا التَّقْسِيمُ الْمُسْتَمَدُّ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يَحْصُلُ بِهِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ النَّاسِ فَهُنَاكَ مِنَ النَّاسِ مَنْ هُوَ كَافِرٌ بِالتَّوْحِيدِ كُلِّهِ؛ مِثْلُ الْمَلَاحِدَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ،

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مُقِرًّا بِبَعْضٍ وَكَافِرًا بِبَعْضٍ كَحَالِ الْمُشْرِكِينَ وَكَحَالِ الْمُعَطِّلَةِ.

الْمُعَطِّلَةُ كَالْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ يُقِرُّونَ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَلَكِنَّهُمْ يُقَصِّرُونَ فِي تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ، وَيَنْفُونَ عَنِ اللهِ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ كُلَّهَا أَوْ كَثِيرًا مِنْهَا كَمَا تَعْلَمُونَ.

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: **{ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ }**(١).

لَكِنَّ هَذَا الْإِيمَانَ لَا يَنْفَعُهُمْ، إِيمَانُهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ لَا يَنْفَعُهُمْ هَذَا عِنْدَ اللهِ لِأَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ فِي الْعِبَادَةِ، وَيُضَافُ إِلَى هَذَا أَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ لِلرُّسُلِ وَكَافِرُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ يُوجِبُ الْكُفْرَ.

فَمُشْرِكُو الْعَرَبِ كَانَ كُفْرُهُمْ بِسَبَبِ الشِّرْكِ، وَبِتَكْذِيبِهِمْ لِلرَّسُولِ، لِأَنَّهُمْ لَوْ صَدَّقُوا الرَّسُولَ لَتَرَكُوا الشِّرْكَ، وَهَذِهِ الْأَنْوَاعُ يُؤَدِّي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ.

وَمُشْرِكُونَ لِأَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَاللهُ تَعَالَى ذَكَرَ هَذَا كُلَّهُ عَنْهُمْ وَأَخْبَرَ عَنْ تَكْذِيبِهِمْ وَجَحْدِهِمْ وَشِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ}**(٢). وَقَالَ سُبْحَانَهُ: **{وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}**(٣).

---

(١) سورة يوسف: ١٠٦.

(٢) سورة ق: ٢، ٣.

(٣) سورة الرعد: ٥.

فَبِهَذَا نَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُوَحِّدًا حَتَّى يُقِرَّ بِالتَّوْحِيدِ كُلِّهِ؛ فَيُؤْمِنَ بِتَفَرُّدِ الرَّبِّ تَعَالَى -كَمَا قَالَ الشَّيْخُ- بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا شَبِيهَ لَهُ، وَيُقِرَّ بِتَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ، أَيْ أَنَّهُ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ.

إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ شَرْطٌ فِي التَّوْحِيدِ:

ثُمَّ لَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ إِلَّا بِإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ؛ فَفِي تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ جَانِبُ اعْتِقَادٍ وَجَانِبُ عَمَلٍ، أَمَّا الِاعْتِقَادُ فَبِالْإِيمَانِ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى هُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ.

لَكِنَّ هَذَا لَا يَكْفِي بَلْ لَابُدَّ مَعَهُ مِنْ تَحْقِيقِ هَذَا فِي الْوَاقِعِ وَذَلِكَ بِإِفْرَادِهِ سُبْحَانَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إِلَّا بِالْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، فَالْجَانِبُ الْأَوَّلُ عَلَمِيٌّ اعْتِقَادِيٌّ، وَالْجَانِبُ الثَّانِي عَمَلِيٌّ وَهُوَ الثَّمَرَةُ لِذَلِكَ الِاعْتِقَادِ.

فَالشَّيْخُ لَمَّا عَرَّفَ التَّوْحِيدَ بِجُمْلَتِهِ ذَكَرَ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي هَذَا التَّعْرِيفِ إِثْبَاتُ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ وَهُوَ تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ كَذَلِكَ الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْإِقْرَارُ بِأَنَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ.

فَسُورَةُ «الْكَافِرُونَ» دَلَّتْ عَلَى تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ وَتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ بِالنَّصِّ، وَدَلَّتْ عَلَى التَّوْحِيدِ الْآخَرِ ضِمْنًا بِأَنَّ الْمُسْتَحِقَّ لِلْعِبَادَةِ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ يَكُونَ مَوْصُوفًا بِالْكَمَالِ مُنَزَّهًا عَنْ كُلِّ نَقْصٍ.

وَسُورَةُ الْإِخْلَاصِ تَدُلُّ عَلَى التَّوْحِيدِ الْعَلَمِيِّ أَوْ تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ نَصًّا، وَتَدُلُّ عَلَى تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ لُزُومًا؛ فَإِنَّ الَّذِي هَذَا شَأْنُهُ وَهُوَ الَّذِي تَصْمُدُ إِلَيْهِ الْخَلَائِقُ بِحَوَائِجِهَا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ يَجِبُ ضَرُورَةً فِي الْفِطَرِ وَالْعُقُولِ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ، فَكُلُّ مَا يَدُلُّ عَلَى تَفَرُّدِهِ تَعَالَى بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى أَوْ تَفَرُّدِهِ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ يَدُلُّ عَلَى تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ وَهَكَذَا فِي الْمُقَابِلِ.

قَالَ: (حَدُّ التَّوْحِيدِ الجَامِعُ لِأَنْوَاعِهِ).

يَقُولُ هَذَا حَدُّ التَّوْحِيدِ الْجَامِعُ، وَهُوَ التَّعْبِيرُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْنَاهُ.

وَالْحَدُّ الصَّحِيحُ التَّامُّ هُوَ مَا كَانَ جَامِعًا مَانِعًا يَدْخُلُ فِيهِ الْمَحْدُودُ وَيَخْرُجُ عَنْهُ مَا لَيْسَ مِنْهُ.

وَهَذَا مُعْتَبَرٌ فِي التَّعْرِيفَاتِ؛ فَالشَّيْءُ الَّذِي نُسَمِّيهِ فِي كَلَامِ أَهْلِ الْعِلْمِ «تَعْرِيفُ الشَّيْءِ». أَيْ حَدُّهُ، كَتَعْرِيفِ الصَّلَاةِ وَتَعْرِيفِ الصِّيَامِ، أَيْ حَدُّ الصِّيَامِ فِي الشَّرْعِ.

كَمَا نَقُولُ: حَدُّ الصِّيَامِ: أَنَّهُ الْإِمْسَاكُ مِنَ الْفَجْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ عَنِ الْمُفْطِرَاتِ بِنِيَّةٍ.

هَذَا نُسَمِّيهِ تَعْرِيفًا، وَفِي الْمَنْطِقِ يُسَمُّونَهُ: حَدًّا.

فَالشَّيْخُ أَتَى بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ وَهِيَ دَارِجَةٌ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ، يَقُولُ الشَّيْخُ: حَدُّ التَّوْحِيدِ. أَيِ التَّعْرِيفُ الَّذِي يَجْمَعُ أَنْوَاعَهُ.

قَالَ: (هُوَ: اعْتِقَادُ العَبْدِ، وَإِيمَانُهُ بِتَفَرُّدِ اللهِ بِصِفَاتِ الكَمَالِ، وَإِفْرَادُهُ بِأَنْوَاعِ العِبَادَةِ. فَدَخَلَ فِي هَذَا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ الَّذِي هُوَ اعْتِقَادُ انْفِرَادِ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ بِالخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ. وَتَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَهُوَ إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ صلى الله عليه وسلم مِنَ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى، وَالصِّفَاتِ الكَامِلَةِ العُلْيَا مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ).

تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ:

كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ الْحَدَّ الْجَامِعَ لِلتَّوْحِيدِ أَرَادَ أَنْ يُفَصِّلَ بَعْضَ التَّفْصِيلِ، فَذَكَرَ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَهُوَ تَوْحِيدُهُ بِأَفْعَالِهِ مِنَ الْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

قَالَ تَعَالَى: **{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}**[1]. وَقَالَ: **{قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}**[2].

كُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي مَفْهُومِ الرُّبُوبِيَّةِ.

وَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ هُوَ الْإِيمَانُ بِتَفَرُّدِهِ تَعَالَى بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي هَذَا كُلِّهِ، هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ: **{اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}**[3]، **{أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}**[4].

هَذَا حَصْرٌ أَيْ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَهَذَا تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّهُ يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كُلُّ مَخْلُوقٍ لِأَنَّهُ لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْخَلْقِ، وَقَدِ احْتَجَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِيمَا أَنْكَرُوهُ بِمَا أَقَرُّوهُ.

---

(١) سورة آل عمران: ٢٦.

(٢) سورة يونس: ٣١.

(٣) سورة الزمر: ٦٢.

(٤) سورة الأعراف: ٥٤.

تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ:

وَيَدْخُلُ فِي حَدِّ التَّوْحِيدِ الْجَامِعِ الْإِيمَانُ بِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَهَذَا التَّوْحِيدُ يَتَحَقَّقُ بِإِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ لِنَفْسِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبِتَنْزِيهِهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ نَقْصٍ.

هَذَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي هَذَا الْبَابِ، فَيُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ إِثْبَاتًا وَنَفْيًا: إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ، وَتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ لِلنُّصُوصِ وَلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَشْبِيهٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَلَا إِلْحَادٍ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وَآيَاتِهِ.

وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ لِإِخْرَاجِ الْمَذَاهِبِ وَالطَّرَائِقِ الْبَاطِلَةِ.

وَمِثْلُهُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْمُوَحِّدَ هُوَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَيَبْرَءُونَ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمُنْحَرِفَةِ فِي تَحْرِيفِ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ عَنْ مَوْضِعِهِ، وَيَبْرَءُونَ مِنَ التَّعْطِيلِ الَّذِي هُوَ تَعْطِيلُ الرَّبِّ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ، وَمِنَ التَّحْدِيدِ الَّذِي هُوَ تَحْدِيدُ حَقِيقَةِ الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ لَا يُحَرِّفُونَ، بَلْ يُمِرُّونَ النُّصُوصَ عَلَى ظَاهِرِهَا، يُؤْمِنُونَ بِهَا وَيَتَلَقَّوْنَهَا بِالْقَبُولِ، وَلَا يُعَطِّلُونَ الرَّبَّ عَنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ بَلْ يُثْبِتُونَ لَهُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ وَالتَّكْيِيفُ ضَرْبٌ مِنَ التَّشْبِيهِ لَكِنْ يُقْصَدُ بِهِ حَقِيقَةُ الشَّيْءِ وَكُنْهُهُ؛ وَلِهَذَا أَنْكَرَ السَّلَفُ قَوْلَ الْقَائِلِ: كَيْفَ اسْتَوَى.

فَالِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَكَذَلِكَ النُّزُولُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَقُلْ مِثْلَ هَذَا فِي كُلِّ الصِّفَاتِ.

وَالْكَلَامُ مَعْقُولٌ لَكِنَّ الْكَيْفَ مَجْهُولٌ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ اللهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ.

مَفْهُومُ التَّمْثِيلِ:

وَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ مَا هُوَ التَّمْثِيلُ الَّذِي يُنَاقِضُ الْإِثْبَاتَ وَتَوْحِيدَ اللهِ وَإِثْبَاتَ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ.

لِأَنَّ شُبْهَةَ الْمُعَطِّلَةِ أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ يَسْتَلْزِمُ عِنْدَهُمُ التَّشْبِيهَ، يَقُولُونَ: كَيْفَ نَقُولُ: اللهُ عَلِيمٌ وَالْإِنْسَانُ عَلِيمٌ؟! وَاللهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَالْإِنْسَانُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ؟!

هَذِهِ أَبْرَزُ شُبُهَاتِهِمْ، فَالْجَهْمِيَّةُ عِنْدَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ، وَالْمُعْتَزِلَةُ أَخَفُّ قَلِيلًا مِنْهُمْ؛ يُثْبِتُونَ الْأَسْمَاءَ

وَهُمْ لَا يَرَوْنَ أَنَّ إِثْبَاتَهَا يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ، لَكِنَّ الِانْحِرَافَ عِنْدَهُمْ فِي الصِّفَاتِ، ثُمَّ جَاءَ الَّذِينَ بَعْدَهُم وَتَلَطَّفُوا فَأَثْبَتُوا بَعْضَهَا وَقَالُوا إِنَّ إِثْبَاتَهَا لَا يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ وَحَرَّفُوا بَعْضَهَا.

وَقَدْ بَيَّنَ تَنَاقُضَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ وَاضْطِرَابَهُمْ الْإِمَامُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ[1] فِي كَثِيرٍ مِنْ مُؤَلَّفَاتِهِ وَلَا سِيَّمَا فِي «التَّدْمُرِيَّةِ» فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ وَبَيَّنَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَ أَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّ التَّفْرِيقَ بَيْنَهُمَا مُنَاقِضٌ لِلْعَقْلِ وَالشَّرْعِ.

فَمَا هُوَ التَّمْثِيلُ الَّذِي دَلَّتْ الْفِطَرُ وَالْعُقُولُ وَالسَّمْعُ عَلَى بُطْلَانِهِ؟

التَّمْثِيلُ نَوْعَانِ:

تَمْثِيلُ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ، وَتَمْثِيلُ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ؛ لِمَا بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ مِنْ صِفَاتٍ مُشْتَرَكَةٍ.

هَذَا هُوَ التَّمْثِيلُ الْبَاطِلُ، فَتَمْثِيلُ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ هُوَ وَصْفُ الْمَخْلُوقِ بِخَصَائِصِ الْخَالِقِ؛ كَوَصْفِهِ بِعِلْمِ الْغَيْبِ وَالْقُدْرَةِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، أَوْ وَصْفِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ.

فَالْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ وَالْأَمْوَاتَ التَّشْبِيهُ الَّذِي عِنْدَهُمْ

هُوَ تَشْبِيهُ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ؛ لِأَنَّهُمْ نَسَبُوا لِهَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الرَّبِّ وَهُوَ الْإِلَهِيَّةِ فَأَلَّهُوهَا وَعَبَدُوهَا مَعَ اللهِ، فَكَانُوا بِهَذَا مُشْرِكِينَ وَمُشَبِّهِينَ لِلْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ، قَالَ تَعَالَى: **{أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}**[2].

وَكَذَلِكَ وَصْفُ الْخَالِقِ بِخَصَائِصِ الْمَخْلُوقِ، فَهَذَا مِنْ قَبِيلِ تَمْثِيلِ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ.

مِثَالُهُ نِسْبَةُ الْوَلَدِ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ هَذَا يَتَضَمَّنُ تَشْبِيهَ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ لِأَنَّ الْوِلَادَةَ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِ فَوَصْفُ الرَّبِّ بِالْوِلَادَةِ تَشْبِيهٌ لَهُ بِالْخَلْقِ لِأَنَّ هَذَا مِنْ شَأْنِهِ.

يَدْخُلُ فِي هَذَا الَّذِينَ قَالُوا: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللهِ. شَبَّهُوا آلِهَتَهُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَشَبَّهُوا رَبَّ الْعَالَمِينَ بِخَلْقِهِ وَنَسَبُوا إِلَيْهِ الْوَلَدَ.

وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ: **{فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ**

---

(١) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد ابن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، شيخ الإسلام (تقي الدين أبو العباس) محدث، حافظ، مفسر، فقيه، مجتهد، مشارك في أنواع من العلوم، ولد في حران سنة ٦٦١ هـ، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. من مصنفاته الكثيرة: مجموعة فتاويه، السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. (الأعلام للزركلي: ١/ ١٤٤).

(٢) سورة النحل: ١٧.

(١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}[1]

وَفِي ضَوْءِ مَا قُلْتُ شِرْكُ النَّصَارَى فَإِنَّهُ يَقُومُ عَلَى تَشْبِيهِ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ بِنِسْبَةِ الْوِلَادَةِ إِلَى اللهِ، وَتَشْبِيهِ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ بِتَأْلِيهِ الْمَسِيحِ.

أَمَّا الْيَهُودُ فَالْغَالِبُ عَلَيْهِمُ التَّنَقُّصُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، الْغَالِبُ عَلَيْهِمْ تَشْبِيهُ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ، فَقَدْ نَسَبُوا الْفَقْرَ إِلَى اللهِ، وَنَسَبُوا الْبُخْلَ إِلَى اللهِ، وَنَسَبُوا الْعَجْزَ إِلَى اللهِ، كَمَا فِي الْقُرْآنِ، وَجَاءَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّهُمْ يَصِفُونَهُ بِأَشْيَاءَ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِ؛ يَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَمَّا أَغْرَقَ قَوْمَ نُوحٍ بَكَى عَلَى الطُّوفَانِ. وَأَشْيَاءَ مِنْ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ الرَّدِيئَةِ فِي حَقِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ.

وَالْحَقُّ أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ للهِ لَا يَسْتَلْزِمُ تَشْبِيهًا، وَتِلْكَ الشُّبْهَةُ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْمُعَطِّلَةُ، فَارْتَكَبُوا بِسَبَبِ ذَلِكَ رَدَّ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِإِثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَلِتَوْضِيحِ ذَلِكَ أَقُولُ:

الْعِلْمُ هَذَا مِنْ خَصَائِصِ الْخَالِقِ أَمْ مِنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِ؟

الْعِلْمُ الَّذِي لَا يَلْحَقُهُ نَقْصٌ هَذَا مُخْتَصٌّ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَمَّا الْعِلْمُ الْمُحْدَثُ الْمَخْلُوقُ النَّاقِصُ فَهَذَا عِلْمُ الْمَخْلُوقِ.

كَذَا مَسْأَلَةُ الْوُجُودِ وَهِيَ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، لَكِنْ الْوُجُودُ الْوَاجِبُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْحُدُوثَ وَلَا الْعَدَمَ هُوَ وُجُودُ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا، أَمَّا وُجُودُ الْمَخْلُوقِ فَوُجُودٌ مُمْكِنٌ يَقْبَلُ الْحُدُوثَ وَالْعَدَمَ.

فَمُرَاعَاةُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمُشْتَرَكِ وَبَيْنَ الْخَاصِّ؛ وَالْمَعْنَى الْمُخْتَصِّ ـ تُفْهِمُ حَقِيقَةَ التَّمْثِيلِ الَّذِي دَلَّتِ الْعُقُولُ وَالْفِطَرُ عَلَى فَسَادِهِ.

فَفِي بَابِ تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ لَابُدَّ مِنَ الْإِثْبَاتِ لِكُلِّ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، وَعَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَابُدَّ مِنْ نَفْيِ الْعِلْمِ بِالْكَيْفِيَّةِ، هَذِهِ هِيَ أُصُولُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ:

إِثْبَاتُ، وَنَفْيُ التَّمْثِيلِ، وَنَفْيُ الْعِلْمِ بِالْكَيْفِيَّةِ.

فَإِذَا حَقَّقَ الْعَبْدُ ذَلِكَ كَانَ قَدْ أُلْهِمَ الصَّوَابَ وَعَرَفَ الْحَقَّ.

---

(١) سورة الصافات: ١٤٩ – ١٥٢.

قَالَ: (وَتَوْحِيدُ الأُلُوهِيَّةِ وَالعِبَادَةِ: وَهُوَ إِفْرَادُهُ وَحْدَهُ بِأَجْنَاسِ العِبَادَةِ، وَأَنْوَاعِهَا، وَأَفْرَادِهَا، مِنْ غَيْرِ إِشْرَاكٍ بِهِ فِي شَيْءٍ مِنْهَا مَعَ اعْتِقَادِ كَمَالِ أُلُوهِيَّتِهِ).

هَذَا هُوَ النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ: تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ الَّذِي نُعَبِّرُ عَنْهُ أَحْيَانًا بـ «تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ».

أَيِ الْإِيمَانُ بِتَفَرُّدِ الرَّبِّ بِالْإِلَهِيَّةِ، وَذَلِكَ بِاعْتِقَادِ أَنَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ غَيْرُهُ، وَأَنَّ كُلَّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ بَاطِلٌ، وَمَا يَقْتَضِيهِ ذَلِكَ مِنْ إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ كُلِّهَا بِأَجْنَاسِهَا وَأَنْوَاعِهَا وَأَفْرَادِهَا.

هَذَا مِنْ أَجْلِ تَوْسِيعِ التَّصَوُّرِ

قَوْلُهُ: بِأَجْنَاسِ العِبَادَةِ.

الْجِنْسُ هُوَ مَا يَشْمَلُ أَنْوَاعًا، وَالنَّوْعُ هُوَ الِاسْمُ الْعَامُّ الَّذِي يَشْمَلُ أَفْرَادًا.

الْمَنَاطِقَةُ يَقُولُونَ: الْحَيَوَانُ جِنْسٌ يَشْمَلُ أَنْوَاعًا؛ فَيَشْمَلُ الْإِنْسَانَ وَأَنْوَاعَ الْحَيَوَانَاتِ.

فَاسْمُ الْحَيَوَانِ جِنْسٌ لِأَنَّ تَحْتَهُ أَنْوَاعًا مِنْهَا الْإِنْسَانُ، لِأَنَّ عِنْدَهُ مِنَ الْحَيَوَانِ مَا تَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ فَالْإِنْسَانُ نَوْعٌ.

يُمْكِنُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْإِنْسَانَ جِنْسٌ وَتَحْتَهُ أَنْوَاعٌ؛ لِأَنَّ اللهَ نَوَّعَ الْخَلْقَ، فَأَوَّلُ تَأْوِيلٍ أَنَّ الْإِنْسَانَ نَوْعَانِ ذَكَرٌ وَأُنْثَى.

فَدَائِمًا الْجِنْسُ يَكُونُ أَعَمَّ مِنَ النَّوْعِ، وَكُلُّ مَا كَانَ أَعَمَّ فَهُوَ جِنْسٌ لِمَا دُونَهُ، وَنَوْعٌ لِمَا هُوَ أَعَمُّ مِنْهُ

فَالْعِبَادَةُ جِنْسٌ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَاعْبُدُوا اللهَ}**. هَذَا أَمْرٌ بِالْعِبَادَةِ، وَالْعِبَادَةُ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ. هَذَا حَدُّ الْعِبَادَةِ.

فَالْعِبَادَةُ جِنْسٌ وَاحِدٌ بِهَذَا الْحَدِّ.

وَالْعِبَادَةُ تَحْتَهَا أَنْوَاعٌ؛ فَالصَّلَاةُ نَوْعٌ مِنَ الْعِبَادَةِ، وَالصِّيَامُ نَوْعٌ، وَالْحَجُّ نَوْعٌ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ نَوْعٌ.

وَالصَّلَاةُ جِنْسٌ فِي نَفْسِهَا لِأَنَّهَا يَدْخُلُ فِيهَا أَنْوَاعُ الصَّلَاةِ مِنْ فَرَائِضَ وَنَوَافِلَ وَذَوَاتِ أَسْبَابٍ.

فَالشَّيْخُ يَقُولُ: إِفْرَادُهُ وَحْدَهُ بِأَجْنَاسِ العِبَادَةِ، وَأَنْوَاعِهَا، وَأَفْرَادِهَا.

وَمِثَالُ الْأَفْرَادِ: صَلَاةُ الظُّهْرِ.

وَجِنْسُ الصِّيَامِ يَدْخُلُ فِيهِ صِيَامُ رَمَضَانَ وَصِيَامُ النَّوَافِلِ وَالنُّذُرِ، لَكِنْ صِيَامُ هَذَا الْيَوْمِ بِعَيْنِهِ هَذَا فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ الصِّيَامِ.

وَإِفْرَادُ اللهِ بِأَجْنَاسِ الْعِبَادَةِ يَتَضَمَّنُ إِفْرَادَهُ بِأَنْوَاعِهَا وَأَفْرَادِهَا، فَلَا يَجُوزُ صَرْفُ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى.

تَرْكُ الشِّرْكِ مِنْ لَوَازِمِ التَّوْحِيدِ:

وَلَا يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ إِلَّا بِتَرْكِ الشِّرْكِ، فَالتَّوْحِيدُ فِعْلٌ وَتَرْكٌ؛ فِعْلُ الْعِبَادَةِ للهِ وَتَرْكُ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ.

وَلَا يَكْفِي فِي التَّوْحِيدِ مُجَرَّدُ تَرْكٍ كَمَا نَبَّهَ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ، فِي مَوَاضِعَ، فَلَا يَكْفِي فِي التَّوْحِيدِ إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ، فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ أَنَّهُ يَعْبُدُ اللهَ وَلَا يَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ أَبَدًا. فَهَذَا لَا يَكْفِي بَلْ لَابُدَّ مِنَ الْكُفْرِ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: **{فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**(١).

فَالْإِيمَانُ بِاللهِ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ، وَالْكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ يَتَضَمَّنُ الْبَرَاءَةَ وَنَفْيَ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ.

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي هُوَ الْكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانُ بِاللهِ هُوَ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

(لَا إِلَهَ): هَذَا هُوَ الْكُفْرُ بِالطَّاغُوتِ.

(إِلَّا اللهُ): هُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ.

وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ مَعَ إِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ وَتَخْصِيصِهِ بِالْعِبَادَةِ لَابُدَّ مِنْ تَرْكِ الشِّرْكِ بِهِ

وَلَيْتَهُ قَالَ : الْبَرَاءَةُ ، فَلَابُدَّ مِنَ الْبَرَاءَةِ مِنْ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}**(٢).

هَذِهِ هِيَ الْبَرَاءَةُ.

وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ عُنِيَ بِهِ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي رَسَائِلِهِ وَمُؤَلَّفَاتِهِ رَحِمَهُ اللهُ.

الأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: هَلْ يُوجَدُ نَوْعٌ رَابِعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ يُسَمَّى تَوْحِيدُ الْحَاكِمِيَّةِ؟

الْجَوَابُ: تَقْسِيمُ التَّوْحِيدِ هَذَا تَقْسِيمٌ اعْتِبَارِيٌّ، فَالسَّلَفُ الصَّالِحُ وَالتَّابِعُونَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ أَنَّ التَّوْحِيدَ ثَلَاثَةُ

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) سورة الزخرف: ٢٦.

أَقْسَامٍ، فَلَوْ شِئْتَ قُلْتَ التَّوْحِيدُ أَرْبَعَةٌ، وَيُمْكِنُ أَنْ تَقُولَ خَمْسَةٌ، فَلَوْ قُلْنَا تَوْحِيدُ الْخَالِقِيَّةِ أَيِ الْإِيمَانُ بِتَفَرُّدِ الرَّبِّ بِالْخَلْقِ.

أَلَيْسَ كَمَا سَبَقَ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ دَاخِلٌ فِي تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَالْحُكْمُ بِأَنَّ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ وَأَنَّ هَذَا وَاجِبٌ وَهَذَا مُسْتَحَبٌّ هُوَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ: {**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله**}[1]. وَالْحُكْمُ نَوْعَانِ: حُكْمٌ كَوْنِيٌّ وَحُكْمٌ شَرْعِيٌّ، وَكِلَاهُمَا لله وَحْدَهُ. قَوْلُهُ تَعَالَى: {**وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا**}[2]. هَذَا تَوْحِيدُ حَاكِمِيَّةٍ، وَتَوْحِيدُ الْحَاكِمِيَّةِ دَاخِلٌ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْخَالِقَ الرَّازِقَ الْمُدَبِّرَ الْمُحْيِي الْمَالِكَ لِكُلِّ شَيْءٍ هُوَ الْمُتَفَرِّدُ بِالْحُكْمِ لَا حُكْمَ لِغَيْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السُّؤَالُ: هَلْ هَذَا الْفَهْمُ صَحِيحٌ مِنْ كَلَامِكُمْ: أَنَّ تَوْحِيدَ الْعِبَادَةِ لَهُ جَانِبَانِ؛ جَانِبٌ اعْتِقَادِيٌّ وَهُوَ اسْتِحْقَاقُ الْعِبَادَةِ، وَجَانِبٌ عَمَلِيٌّ وَهُوَ إِفْرَادُ الله بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ فِي الْوَاقِعِ فَلَا يَكُونُ مُوَحِّدًا تَوْحِيدَ الْعِبَادَةِ إِلَّا بِهَذَيْنِ الْجَانِبَيْنِ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ هَذَا جَدِيدٌ لَكِنْ مَا هُوَ إِلَّا التَّنْبِيهُ، هَلْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ مُوَحِّدًا بِمُجَرَّدِ أَنْ يَقُولَ عَنِ الله هُوَ الْإِلَهُ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ سِوَاهُ وَلَكِنَّهُ لَا يَعْبُدُهُ بَلْ يَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ؟!

وَمَنْ أَفْرَدَهُ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يَعْبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ لَكِنَّهُ لَا يُنْكِرُ عِبَادَةَ غَيْرِ الله وَلَا يَبْرَأُ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يَكُونُ مُوَحِّدًا.

فَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ يَتَضَمَّنُ الِاعْتِقَادَ وَالْعَمَلَ.

وَالْجَانِبُ الِاعْتِقَادِيُّ يُمْكِنُ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَأَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ بَيْنَهَا ارْتِبَاطٌ وَتَدَاخُلٌ.

السُّؤَالُ: هَلْ يَجُوزُ لِطَالِبِ الْعِلْمِ قِرَاءَةُ بَعْضِ الْكُتُبِ الْمُطَوَّلَةِ فِي الْعَقِيدَةِ لَا سِيَّمَا كُتُبِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ كَالتَّدْمُرِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَشْحُونَةٌ بِمُصْطَلَحَاتِ أَهْلِ الْمَنْطِقِ؟

الْجَوَابُ: هَذَا بِحَسَبِ الْمُسْتَوَى، فَإِذَا كَانَ أَهْلًا لِذَلِكَ فَيَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ كَيْ يَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ وَيَكُونَ هُوَ نَفْسُهُ عَلَى بَيِّنَةٍ وَإِدْرَاكٍ لِمُقْتَضَى الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالشَّرْعِيَّةِ وَلِيَكُونَ أَيْضًا مُدَافِعًا عَنِ السُّنَّةِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ.

وَأَمَّا الْمُبْتَدِئُ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِثْلَ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ فَلَيْسَ فِيهَا مُحَاوَرَاتٌ وَلَا مُنَاقَشَاتٌ.

السُّؤَالُ: هَلْ يَتَوَقَّفُ فَهْمُ الْعَقِيدَةِ عَلَى عِلْمِ الْمَنْطِقِ؟

---

(١) سورة النعام: ٥٧.

(٢) سورة الكهف: ٢٦.

الْجَوَابُ: لَا وَاللهِ.

السُّؤَالُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الزُّهْدِ وَالْوَرَعِ؟

الْجَوَابُ: قَالُوا: إِنَّ الزُّهْدَ هُوَ تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ، وَالْوَرَعُ: تَرْكُ مَا يَضُرُّ فِي الْآخِرَةِ.

فَالزُّهْدُ أَفْضَلُ مِنَ الْوَرَعِ؛ لِأَنَّ الزُّهْدَ تَرْكُ مَا لَا يَنْفَعُ فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ تَتْرُكَ الْفُضُولَ، وَأَمَّا الْوَرَعُ فَتَرْكُ مَا يَضُرُّ فِي الْآخِرَةِ وَهَذَا يَدْخُلُ فِيهِ تَرْكُ الْمُحَرَّمَاتِ وَالذُّنُوبِ.

السُّؤَالُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: **{يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ}**[1]. هَلِ الْمُرَادُ ظَنُّهُ الْبَقَاءَ فِي الدُّنْيَا؟

الْجَوَابُ: لَا مَانِعَ لَكِنْ كَأَنَّهُ بِتَصَرُّفِهِ وَكَأَنَّهُ مُخَلَّدٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}**[2]. قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: كَأَنَّكُمْ تَخْلُدُونَ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ الْأَخْذِ بِمَا دُونَ الْقَبْضَةِ مِنَ اللِّحْيَةِ؟

الْجَوَابُ: هَذَا خِلَافُ مَا أَمَرَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) سورة الهمزة: ٣.

(٢) سورة الشعراء: ١٢٩.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

فَدَخَلَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ: إِثْبَاتُ القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَأَنَّهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ الغَنِيُّ الحَمِيدُ وَمَا سِوَاهُ فَقِيرٌ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

هَذِهِ إِشَارَةٌ قَصِيرَةٌ إِلَى أَصْلٍ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَوَابِهِ لِجِبْرِيلَ حَيْثُ قَالَ: «**وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

وَالْقَدَرُ مَصْدَرٌ تَارَةً يُرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الْمَصْدَرِيُّ أَوْ مَعْنَى الْمَصْدَرِ، بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ، مِنْ قَدَرَ يَقْدِرُ تَقْدِيرًا أَوْ قَدَرًا.

وَتَارَةً يُرَادُ بِهِ اسْمُ مَفْعُولٍ أَيِ الشَّيْءُ الْمُقَدَّرُ وَهَذَا وَاضِحٌ، تَقُولُ: سَبَقَ الْقَدَرُ. أَيْ سَبَقَ تَقْدِيرُ اللهِ لِلْأَشْيَاءِ. أَوْ: هَذَا الْأَمْرُ سَبَقَ بِهِ الْقَدَرُ. فَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى التَّقْدِيرِ.

وَتَقُولُ فِي الْحَوَادِثِ: هَذَا قَدَرُ اللهِ. أَيْ هَذَا مُقَدَّرٌ بِتَقْدِيرِ اللهِ.

فَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ مَعْنَاهُ: الْإِيمَانُ بِتَقْدِيرِ اللهِ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّهُ تَعَالَى قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ فِي سَابِقِ عِلْمِهِ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ، وَقَدَّرَهُ فِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ، وَتَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّ كُلَّ مَا فِي هَذَا الْوُجُودِ بِمَشِيئَتِهِ؛ إِذْ لَا يَخْرُجُ عَنْ مَشِيئَتِهِ شَيْءٌ، وَأَنَّ الْكُلَّ خَلْقُهُ.

مَرَاتِبُ الْقَدَرِ:

فَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ يَشْمَلُ هَذِهِ الْأُمُورَ الْأَرْبَعَةَ، وَيُسَمِّيهَا الْعُلَمَاءُ مَرَاتِبَ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ وَهِيَ:

الْإِيمَانُ بِعِلْمِ اللهِ السَّابِقِ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَقَدْ عَلِمَ كُلَّ مَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي لَا بِدَايَةَ لَهُ، فَعِلْمُهُ لَمْ يَكُنْ حَادِثًا بَعْدَ جَهْلٍ بَلْ عِلْمُهُ أَزَلِيٌّ.

وَقَدْ أَرَادَ بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ أَنْ يَكْتُبَ مَقَادِيرَ هَذَا الْعِلْمِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ حَدِيثُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو عِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ قَالَ: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ – قَالَ – وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**»(٢).

فَالْعَرْشُ وَالْمَاءُ كَانَا قَبْلَ كِتَابَةِ الْمَقَادِيرِ، وَهَذَا هُوَ الْعِلْمُ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مِنَ السُّنَّةِ هُوَ حَدِيثُ جِبْرِيلَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان– باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨)، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر– باب حجاج موسى وآدم عليهما السلام (٢٦٥٣)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وَمَا فِي مَعْنَاهُ: «**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**». وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ مَا فِي هَذَا الْوُجُودِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ هُوَ بِقَدَرِ اللهِ وَبِتَقْدِيرِهِ وَقَدْ سَبَقَ بِهِ عِلْمُهُ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِمَشِيئَتِهِ؛ فَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ وَفْقَ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، فَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي خَلْقِهِ.

لَابُدَّ فِي الْإِيمَانِ بِقَدَرِهِ أَنْ نُؤْمِنَ بِمَا يَتَضَمَّنُهُ ذَلِكَ مِنَ الْأُصُولِ الْمُتَقَدِّمَةِ: الْعِلْمِ، وَالْكِتَابَةِ، وَعُمُومِ الْمَشِيئَةِ، وَعُمُومِ الْخَلْقِ، مَعَ الْإِيمَانِ بِكَمَالِ حِكْمَتِهِ فِي ذَلِكَ.

أَفْعَالُ الْعِبَادِ دَاخِلَةٌ فِي الْقَدَرِ:

وَأَفْعَالُ الْعِبَادِ دَاخِلَةٌ فِي قَدَرِ اللهِ خِلَافًا لِلْقَدَرِيَّةِ النُّفَاةِ الَّذِينَ يُخْرِجُونَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ عَنْ قُدْرَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَالْغُلَاةُ مِنْهُمْ يُخْرِجُونَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ عَنْ عِلْمِ اللهِ، فَيَقُولُونَ: إِنَّ اللهَ لَا يَعْلَمُ بِهَا إِلَّا بَعْدَ حُدُوثِهَا، فَالْأَمْرُ عِنْدَهُمْ أُنُفٌ، أَيْ لَمْ يَسْبِقْ أَفْعَالَ الْعِبَادِ عِلْمٌ وَلَا كِتَابٌ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَكُونَ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَنْ تَكُونَ خَلْقًا لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

وَكُلُّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ فِيهَا ذِكْرُ هَذَا الْخَلْقِ فَهِيَ مِنْ عُمُومِ هَذَا الْأَصْلِ

{اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[1]. **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ}**[2]. **{يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}**[3]. **{لِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ}**[4].

فَالْمَرَاتِبُ الْأَرْبَعُ أَدِلَّتُهَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ، مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ آيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْعِلْمِ أَوْ ذِكْرُ الْكِتَابَةِ أَوْ ذِكْرُ الْمَشِيئَةِ وَعُمُومُهَا وَتَعَلُّقُهَا بِالْمَخْلُوقَاتِ أَوْ عُمُومُ الْخَلْقِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: **{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}**[5].

{أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ}[6] هَذِهِ الْآيَاتُ تَدُلُّ عَلَى

(١) سورة الزمر: ٦٢.

(٢) سورة الإنسان: ٣٠.

(٣) سورة النحل: ٩٣.

(٤) سورة الشورى: ٤٩.

(٥) سورة الأنعام: ٥٩.

(٦) سورة الحج: ٧٠.

الْمُرَتَّبَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ الْعِلْمِ وَالْخَلْقِ.

وَمِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: **{اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ}** فِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى عُمُومِ الْخَلْقِ وَكُلُّ مَا فِيهِ خَلْقٌ فَهُوَ مَخْلُوقٌ لله فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ إِلَّا وَاللهُ خَالِقُهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ فَهُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ لِهَذَا الْوُجُودِ.

كُلُّهَا مَفْعُولَاتٌ لَهُ وَاقِعَةٌ بِفِعْلِهِ؛ بِمَشِيئَتِهِ بِقُدْرَتِهِ **{فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}**[1].

الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ دَاخِلٌ فِي أَصْلِ التَّوْحِيدِ:

وَبِهَذَا يُلَاحَظُ أَنَّ إِثْبَاتَ الْقَدَرِ دَاخِلٌ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِتَفَرُّدِ اللهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ وَالْخَفْضِ وَالرَّفْعِ يَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ، وَهَذِهِ كُلُّهَا مِنْ مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ دَاخِلٌ فِي تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَإِثْبَاتُ الْقَدَرِ دَاخِلٌ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ إِذْ هُوَ دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِاللهِ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْأَصْلَ الْأَوَّلَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ يَتَضَمَّنُ أُصُولَ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ.

وَأَقُولُ: إِنَّ السِّرَّ فِي أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ الْقَدَرُ فِي الْآيَاتِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ فِيهَا أُصُولَ الْإِيمَانِ وَالَّتِي نَصَّ اللهُ عَلَيْهَا مُجْتَمِعَةً فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **{وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}**[2]. وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى **{وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}**[3]. فَلَمْ يَذْكُرِ الْقَدَرَ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِاللهِ.

وَكَمَا سَبَقَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِرُبُوبِيَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ، وَخَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا هُوَ الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ.

وَأَقُولُ أَيْضًا: لَعَلَّ هَذَا هُوَ السِّرُّ فِي أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا ذَكَرَ أُصُولَ الْإِيمَانِ مَيَّزَ الْقَدَرَ وَأَفْرَدَهُ فَقَالَ فِي جَوَابِهِ لِجِبْرِيلَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[4]. كَأَنَّهُ كَالتَّخْصِيصِ وَالتَّنْصِيصِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ، وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي الْإِيمَانِ بِاللهِ.

الشَّرُّ خَلَقَهُ اللهُ وَلَيْسَ مِنْ أَفْعَالِهِ:

---

(١) سورة البروج: ١٦.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.

(٣) سورة النساء: ١٣٦.

(٤) تقدم تخريجه.

وَالشَّرُّ لَيْسَ فِي فِعْلِ اللهِ وَعَدْلِ اللهِ، فَأَفْعَالُ اللهِ جَارِيَةٌ وَفْقَ الْحِكْمَةِ، إِنَّمَا الشَّرُّ فِي الْمَخْلُوقِ فِي الْمَفْعُولَاتِ، لَا فِي أَفْعَالِ اللهِ، فَتَقْدِيرُ اللهِ وَقَضَاؤُهُ كُلُّهُ خَيْرٌ، أَمَّا الْمُقَدَّرُ وَالْمَخْلُوقُ فَفِيهِ خَيْرٌ وَشَرٌّ، وَلَكِنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَاقِعٌ بِعِلْمِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَبِمَشِيئَتِهِ، فَكُلُّ مَا فِي هَذَا الْوُجُودِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَلِلَّهِ فِيهِ حِكْمَةٌ.

فَلَهُ الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْأَضْدَادِ؛ فَقَدْ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ وَخَلَقَ الشَّيَاطِينَ وَخَلَقَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ طَاعَاتِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، خَلَقَ الْأَشْيَاءَ النَّافِعَةَ مِنْ حَيَوَانَاتٍ وَمَطْعُومَاتٍ وَمَشْرُوبَاتٍ، وَخَلَقَ أَشْيَاءَ أُخْرَى مُؤْذِيَةً وَضَارَّةً مِنْ حَيَوَانَاتٍ وَغَيْرِهَا، وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِي هَذَا كُلِّهِ.

فَلَابُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ أَنَّ الْكُلَّ بِقَدَرِ اللهِ، فَالْقَدَرُ حُلْوُهُ وَمُرُّهُ وَخَيْرُهُ وَشَرُّهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى **{ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ}**[1]. النِّعَمُ وَالْمَصَائِبُ كُلُّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ .

قَالَ:

وَدَخَلَ فِي تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ: إِثْبَاتُ جَمِيعِ مَعَانِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى للهِ تَعَالَى الوَارِدَةِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَالإِيمَانُ بِهَا ثَلَاثُ دَرَجَاتٍ: إِيمَانٌ بِالْأَسْمَاءِ، وَإِيمَانٌ بِالصِّفَاتِ، وَإِيمَانٌ بِإِحْكَامِ صِفَاتِهِ، كَالعِلْمِ بِأَنَّهُ عَلِيمٌ ذُو عِلْمٍ وَيَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ، قَدِيرٌ ذُو قُدْرَةٍ وَيَقْدِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ إِلَى آخِرِ مَا لَهُ مِنَ الأَسْمَاءِ المُقَدَّسَةِ.

يَقُولُ رَحِمَهُ اللهُ إِثْبَاتُ كُلِّ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ وَمَا أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ فِي مَا صَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إِذَا قُلْنَا يَجِبُ تَوْحِيدُ اللهِ وَالْإِيمَانُ بِتَفَرُّدِهِ سُبْحَانَهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، فَنَحْنُ نَعْنِي مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ صِفَاتِهِ وَأَسْمَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَقَوْلُنَا: مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ. كَانَ تَحْتَ هَذِهِ الْعِبَارَةِ: الْإِيمَانُ بِوَحْدَانِيَّتِهِ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، وَالْإِيمَانُ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَأَنَّهُ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْإِيمَانُ بِعِلْمِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ، وَالْإِيمَانُ بِأَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ رَحِيمٌ كَرِيمٌ، وَالْإِيمَانُ بِأَنَّهُ يُحِبُّ وَيَرْضَى وَيَغْضَبُ وَيَسْخَطُ، وَأَنَّهُ يُعْطِي وَيَمْنَعُ وَيَخْفِضُ وَيَرْفَعُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَاسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ. وَغَيْرُ ذَلِك.

وَأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَكَمَا أَخْبَرَ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَنَّنَا لَا نُدْرِكُ كُنْهَ ذَلِكَ وَلَا يُشْبِهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ.

---

(١) سورة النساء: ٧٨.

وَالْأُسُسُ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ هِيَ:

الْإِثْبَاتُ، وَنَفْيُ التَّمْثِيلِ، وَنَفْيُ الْعِلْمِ بِالْكَيْفِيَّةِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ: وَهَذَا عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ:

الْإِيمَانُ بِالِاسْمِ، ثُمَّ الْإِيمَانُ بِالْمَعْنَى، ثُمَّ الْإِيمَانُ بِالْحُكْمِ.

فَكُلُّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةً، وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

وَقَدْ تَنَوَّعَتْ مَذَاهِبُ أَهْلِ الضَّلَالِ وَالْبِدَعِ فِي هَذَا الْبَابِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَنْفِي الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ كُلَّهَا كَالْجَهْمِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُثْبِتُ الْأَسْمَاءَ وَيَنْفِي مَعَانِيَهَا كَالْمُعْتَزِلَةِ.

وَلَا بُدَّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مِنَ الْإِيمَانِ بِحُكْمِ الصِّفَةِ وَهُوَ أَثَرُهَا؛ فَقَوْلُنَا: إِنَّهُ تَعَالَى عَلِيمٌ.

هَذَا فِيهِ إِثْبَاتُ الِاسْمِ، وَإِثْبَاتٌ لِلصِّفَةِ بِأَنَّهُ ذُو عِلْمٍ، وَإِثْبَاتٌ لِأَثَرِ هَذَا الِاسْمِ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ.

خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ بِلَا سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ.

سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، فَيُثْبِتُونَ الْأَسْمَاءَ دُونَ مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنَ الصِّفَاتِ، وَهَذَا مِنَ الْإِلْحَادِ فِي أَسْمَاءِ اللهِ.

وَمِنَ الْإِلْحَادِ فِي الْأَسْمَاءِ نَفْيُهَا، أَوْ نَفْيُ مَعَانِيهَا، قَالَ تَعَالَى: {**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**}[1].

فَنَقُولُ: عَلِيمٌ، وَهَذَا إِثْبَاتٌ لِلِاسْمِ، وَذُو عِلْمٍ وَهَذَا إِثْبَاتٌ لِلصِّفَةِ، وَنَقُولُ: إِنَّهُ يَعْلَمُ وَأَنَّ عِلْمَهُ مُتَعَلِّقٌ بِالْحَاضِرِ وَالْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ وَالْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {**إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**}[2] هَذِهِ شُمُولِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ بِلَا حُدُودٍ وَلَا تَخْصِيصَ وَهَذَا أَعَمُّ الْعُمُومَاتِ، فَيَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَا يَكُونُ لَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ.

وَهُوَ ذُو سَمْعٍ وَلَابُدَّ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ السَّمْعَ إِدْرَاكٌ لِلْأَصْوَاتِ أَيْ بِالْمَعْنَى الْمَعْقُولِ لُغَةً وَعُرْفًا وَعَقْلًا، وَأَنَّهُ ذُو سَمْعٍ فَكُلُّ صِفَةٍ لَهَا مُتَعَلَّقٌ، فَالسَّمْعُ يَتَعَلَّقُ بِالْأَصْوَاتِ كَمَا جَاءَ فِي الْأَثَرِ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ تَقُولُ : سُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ.

---

(١) سورة الأعراف: ١٨٠.

(٢) سورة الأنفال: ٧٥.

ثُمَّ نَقُولُ إِنَّهُ يَسْمَعُ أَقْوَالَ الْعِبَادِ خَيْرُهَا وَشَرُّهَا: **{قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا}**[1] هَذَا فِيهِ إِثْبَاتُ الْحُكْمِ، تَقُولُ أُمُّنَا عَائِشَةُ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ تَشْتَكِي إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ مَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ[2].

قَالَ تَعَالَى: {**وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا**} هَذَا فِيهِ تَعَلُّقُ السَّمْعِ بِكَلَامِهَا وَكَلَامِ الرَّسُولِ فِي الْحِوَارِ الَّذِي دَارَ بَيْنَهُمَا.

ثُمَّ خُتِمَتِ الْآيَةُ بِإِثْبَاتِ الِاسْمَيْنِ **{إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}**.

وَاسْمُهُ الْخَالِقُ: فِيهِ إِثْبَاتٌ لِلاسْمِ، وَأَنَّهُ ذُو خَلْقٍ وَفِعْلٍ فَمِنْ أَفْعَالِهِ الَّتِي تَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ الْخَلْقُ.

وَتَقْدِيرُ الْخَلْقِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ يُطْلَقُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ:

عَلَى التَّقْدِيرِ، وَعَلَى الْإِنْشَاءِ؛ فَاللهُ هُوَ الْخَالِقُ وَهُوَ الْخَلَّاقُ بِكُلٍّ مِنَ الْمَعْنَيَيْنِ، وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ تَقْدِيرًا وَإِيجَادًا.

فَهُوَ الْخَالِقُ، وَهُوَ ذُو الْخَلْقِ، وَهُوَ الَّذِي يَخْلُقُ؛ فَالْمَخْلُوقَاتُ أَثَرُ فِعْلِهِ.

وَفِعْلُهُ هُوَ مَضْمُونُ اسْمِهِ الْخَلَّاقِ.

فَالْإِيمَانُ التَّامُّ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِالْأُمُورِ الثَّلَاثَةِ: بِالِاسْمِ وَبِالصِّفَةِ وَبِالْحُكْمِ.

وَالَّذِينَ يَنْفُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ يُثْبِتُونَ الْحُكْمَ لَكِنَّهُمْ لَا يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ قَائِمَةً بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى ذَاتٌ مُجَرَّدَةٌ عَنْ جَمِيعِ الصِّفَاتِ فَيَنْفُونَ جَمِيعَ صِفَاتِ الِاسْمِ.

الْجَهْمِيَّةُ يُؤْمِنُونَ بِالْحُكْمِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِالِاسْمِ وَلَا بِالصِّفَةِ، وَالْمُعْتَزِلَةُ يُؤْمِنُونَ بِالِاسْمِ دُونَ مَصْدَرٍ؛ فَيَقُولُونَ: قَدِيرٌ بِلَا قُدْرَةٍ.

قَالَ الشَّيْخُ:

وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ عُلُوِّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ، وَنُزُولِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا عَلَى الوَجْهِ اللَّائِقِ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ.

يَقُولُ وَدَخَلَ فِي تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِثْبَاتُ أَفْعَالِهِ الَّتِي تَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ كَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَنُزُولِهِ إِلَى

---

(١) سورة المجادلة: ١.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٦)، والنسائي في كتاب الطلاق- باب الظهارة (٣٤٦٠)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب فيما أنكرت الجهمية (١٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح النسائي».

السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ.

فَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ فَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرًا، وَالْمُرَادُ بِالْعَرْشِ ذَلِكَ الْمَخْلُوقُ الْعَظِيمُ الَّذِي وَصَفَهُ اللهُ بِالْعِظَمِ وَالْكَرَمِ وَالْمَجْدِ.

وَتَمَدَّحَ الرَّبُّ تَعَالَى بِرُبُوبِيَّتِهِ لِلْعَرْشِ فَقَالَ: **{رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}**[1] وَقَدْ ذُكِرَ الْعَرْشُ فِي الْقُرْآنِ فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ:

إِحْدَاهَا فِي سُورَةِ طَهَ: **{الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}**[2].

وَفِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ أُخْرَى يَذْكُرُ سُبْحَانَهُ اسْتِوَاءَهُ عَلَى الْعَرْشِ بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَوْلِهِ: **{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}**.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُثْبِتُونَ ذَلِكَ للهِ تَعَالَى عَلَى مَا يَلِيقُ بِهِ إِثْبَاتًا، مَعَ نَفْيِ التَّمْثِيلِ وَنَفْيِ الْعِلْمِ بِالْكَيْفِيَّةِ.

فَيَقُولُونَ: اللهُ تَعَالَى مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ اسْتِوَاءً يَلِيقُ بِهِ لَا يُمَاثِلُ اسْتِوَاءَ الْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ؛ فَالْمَخْلُوقُ مُعْتَمِدٌ عَلَى مَا هُوَ مُسْتَوٍ عَلَيْهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْهِ، فَلَوْ عَثَرَتِ الدَّابَّةُ سَقَطَ مِنْ عَلَى ظَهْرِهَا، وَلَوْ غَرَقَتِ السَّفِينَةُ أَوْ سَقَطَتِ الطَّائِرَةُ لَهَلَكَ مَنْ فِيهَا.

أَمَّا اللهُ تَعَالَى فَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ مَعَ كَمَالِ غِنَاهُ عَنِ الْعَرْشِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ الْمُمْسِكُ لِلْعَرْشِ وَمَا دُونَهُ، فَلَيْسَ اسْتِوَاؤُهُ كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ، فَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إِلَيْهِ وَلَا مُعْتَمِدًا عَلَيْهِ.

وَلَا نَعْلَمُ كُنْهَ ذَلِكَ الِاسْتِوَاءِ، بَلْ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَخَيَّلَ الْإِنْسَانُ كَيْفِيَّةَ اسْتِوَائِهِ سُبْحَانَهُ عَلَى عَرْشِهِ، فَالِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ.

وَيُقَالُ مِثْلُ ذَلِكَ تَمَامًا فِي النُّزُولِ.

فَالنُّزُولُ ثَابِتٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ الْمُتَوَاتِرَةِ، فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ تَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَلَا نَعْقِلُ لِذَلِكَ كَيْفِيَّةً، لِأَنَّهُ لَا يُمَاثِلُ نُزُولُهُ نُزُولَ الْمَخْلُوقِ مِنْ عُلُوٍّ إِلَى سُفْلٍ، لَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ نُزُولٌ.

وَأَحَادِيثُ النُّزُولِ هِيَ مِنْ جُمْلَةِ أَدِلَّةِ الْعُلُوِّ؛ لِأَنَّ النُّزُولَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ عُلُوٍّ.

---

(١) سورة التوبة: ١٢٩.

(٢) سورة طه: ٥.

فَالشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ أَرَادَ أَنْ يُدْخِلَ فِي ذَلِكَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ كَذَلِكَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَمَا أَخْبَرَ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ أَفْعَالِهِ الَّتِي تَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ كَاسْتِوَائِهِ عَلَى عَرْشِهِ وَنُزُولِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ.

قَالَ:

وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ الَّتِي لَا يَنْفَكُّ عَنْهَا: كَالسَّمْعِ، وَالبَصَرِ، وَالعِلْمِ، وَالعُلُوِّ وَنَحْوِهَا. وَالصِّفَاتِ الفِعْلِيَّةِ وَهِيَ الصِّفَاتُ المُتَعَلِّقَةُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ كَالكَلَامِ، وَالخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالاسْتِوَاءِ عَلَى العَرْشِ، وَالنُّزُولِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كَمَا يَشَاءُ، وَأَنَّ جَمِيعَهَا تَثْبُتُ للهِ مِنْ غَيْرِ تَمْثِيلٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَأَنَّهَا كُلَّهَا قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِهَا. وَأَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ يَقُولُ وَيَفْعَلُ، وَأَنَّهُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ، وَيَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ، كَيْفَ شَاءَ، لَمْ يَزَلْ بِالكَلَامِ مَوْصُوفًا، وَبِالرَّحْمَةِ وَالإِحْسَانِ مَعْرُوفًا.

الشَّيْخُ هُنَا يُفَصِّلُ، فَيَقُولُ يَدْخُلُ فِي تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِثْبَاتُ صِفَاتِهِ كُلِّهَا الذَّاتِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ.

فَصِفَاتُ اللهِ مِنْ حَيْثُ تَعَلُّقِهَا بِذَاتِ الرَّبِّ وَمِنْ حَيْثُ تَعَلُّقِ الْمَشِيئَةِ بِهَا تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: صِفَاتٌ ذَاتِيَّةٌ، لَازِمَةٌ لِذَاتِهِ لَا يَنْفَكُّ عَنْهَا، وَهِيَ لَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَشِيئَةِ، كَحَيَاتِهِ وَعِلْمِهِ وَسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ؛ فَاللهُ حَيٌّ لَمْ يَزَلْ حَيًّا، قَيُّومًا وَهُوَ مَوْصُوفٌ بِالْحَيَاةِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَبِالْعِلْمِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَبِالسَّمْعِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَبِالْعِزَّةِ أَزَلًا وَأَبَدًا.

النَّوْعُ الثَّانِي: الصِّفَاتُ الْفِعْلِيَّةُ، وَهِيَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِهَا الْمَشِيئَةُ؛ كَالِاسْتِوَاءِ، تَقُولُ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ حِينَ شَاءَ، وَيَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ حِينَ يَشَاءُ، وَيَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَشَاءُ، يَغْضَبُ إِذَا شَاءَ، وَيَرْضَى إِذَا شَاءَ، وَيُحِبُّ مَنْ شَاءَ إِذَا شَاءَ، وَيُبْغِضُ مَنْ شَاءَ إِذَا شَاءَ. فَهَذِهِ كُلُّهَا صِفَاتٌ فِعْلِيَّةٌ.

وَهُنَاكَ صِفَاتٌ ذَاتِيَّةٌ فِعْلِيَّةٌ: مِثْلُ الْكَلَامِ، تَقُولُ إِنَّ اللهَ مَوْصُوفٌ بِالْكَلَامِ أَزَلًا وَأَبَدًا. بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ بِمَا شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ.

فَالْكَلَامُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ مِنْ وَجْهٍ وَصِفَةٌ فِعْلِيَّةٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ؛ فَبِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ بِمَا شَاءَ وَلَا يَزَالُ، هُوَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ.

وَمِنْ جِهَةِ أَنَّ آحَادَ الْكَلَامِ يَكُونُ بِمَشِيئَتِهِ؛ مِثْلُ نِدَائِهِ لِلْأَبَوَيْنِ: **{وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ**

لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ}[1].

وَخِطَابُهُ لِلْمَلَائِكَةِ: **{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}**[2] وَيَدْخُلُ فِيهِ تَكْلِيمُهُ لِلنَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلرُّسُلِ وَلِلْمَلَائِكَةِ: **{وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}**[3]. **{يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ}**[4]. فَكُلُّ آحَادِ الْكَلَامِ بِمَشِيئَتِهِ. فَالْكَلَامُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ فِعْلِيَّةٌ.

وَكَذَلِكَ الرَّحْمَةُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ فِعْلِيَّةٌ: ذَاتِيَّةٌ لِأَنَّ اللهَ لَمْ يَزَلْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفًا بِالرَّحْمَةِ، لَمْ يَزَلْ رَحْمَانًا، لَمْ يَزَلْ رَحِيمًا: **{إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ}**[5]. **{يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ}**[6]. فَالرَّحْمَةُ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ فِعْلِيَّةٌ.

وَصِفَاتُهُ قَائِمَةٌ بِهِ لَيْسَتْ أَشْيَاءَ مُبَايِنَةً لِذَاتِهِ بَلْ لَازِمَةً لِذَاتِهِ.

وَإِذَا كَانَتْ صِفَاتُهُ الْفِعْلِيَّةُ قَائِمَةً بِالْفِعْلِ فَهَلْ يَقُومُ الْفِعْلُ بِغَيْرِ الْفَاعِلِ؟

بِالطَّبْعِ لَا، فَالْكَلَامُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالْمُتَكَلِّمِ، لَا كَمَا يَقُولُ الْمُبْطِلُونَ مِثْلُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ: إِنَّ اللهَ لَا يَتَكَلَّمُ.

وَلِذَا أَلْجَأَهُمْ هَذَا الْأَصْلُ الْبَاطِلُ إِلَى أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ كَلَامَ اللهِ مَخْلُوقٌ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ.

قَالُوا: اللهُ خَلَقَ كَلَامًا فِي الشَّجَرَةِ سَمِعَهُ مُوسَى.

وَمَعَ ذَلِكَ يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ. وَلَكِنْ لَيْسَ بِالْمَفْهُومِ الْمَعْقُولِ وَلَا بِالْمَفْهُومِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الشَّرْعُ.

وَالشَّيْخُ يُنَبِّهُ عَلَى أَنَّ كُلَّ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ وَالذَّاتِيَّةِ الْفِعْلِيَّةِ كُلَّهَا قَائِمَةٌ بِالرَّبِّ سُبْحَانَهُ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ يَتَكَلَّمُ وَيُسْمِعُ كَلَامَهُ مَنْ شَاءَ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ فِي السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ،**

---

(١) سورة الأعراف: ٢٢.

(٢) سورة البقرة: ٣٠.

(٣) سورة القصص: ٦٢.

(٤) سورة المائدة: ١٠٩.

(٥) سورة الإسراء: ٥٤.

(٦) سورة العنكبوت: ٢١.

فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الأَرْضِ»[1]. وَكَلَامُهُ يَكُونُ نِدَاءً وَمُنَاجَاةً؛ فَقَدْ نَادَى مُوسَى وَنَاجَاهُ وَكَلَّمَهُ بِصَوْتٍ: {وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا}[2]

قَالَ:

وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلَامُ اللهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّهُ المُتَكَلِّمُ بِهِ حَقًّا، وَأَنَّ كَلَامَهُ لَا يَنْفَدُ وَلَا يَبِيدُ.

كَلَامُهُ دَاخِلٌ فِي تَوْحِيدِ اللهِ وَإِثْبَاتِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَالْإِيمَانُ بِأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيُكَلِّمُ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ، يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ مُنْزَلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ.

خِلَافًا لِلْمُعَطِّلَةِ الْجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ ابْتَدَعُوا التَّعْطِيلَ وَابْتَدَعُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ وَلَيْسَ بِكَلَامِ اللهِ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ بِهِ.

وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أَنَّ كُتُبَهُ الْمُنَزَّلَةَ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ كَلَامِهِ.

الْقُرْآنُ وَإِنْ قُلْنَا إِنَّهُ كَلَامُ اللهِ فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ اللهِ لَا أَنَّهُ كُلُّ كَلَامِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَكَلَامُهُ تَعَالَى وَكَلِمَاتُهُ لَا حَدَّ لَهَا وَلَا نَفَادَ لَهَا

قَالَ تَعَالَى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا}[3]. {وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[4]. ذَكَرَ السَّبْعَةُ لَيْسَ إِلَّا مِنْ بَابِ الْمِثْلِ وَإِلَّا فَلَوْ أُتْبِعَتْ بِأَضْعَافِ أَضْعَافِهَا وَجُعِلَتْ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ اللهِ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى لَا أَوَّلَ لَهُ، فَهُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ وَالْآخِرُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ وَهُوَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ يَتَكَلَّمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ، إِذَنْ فَلَا بِدَايَةَ لِكَلَامِهِ وَلَا نِهَايَةَ لِكَلَامِهِ، إِذَنْ فَلَا نَفَادَ لِكَلَامِهِ.

قَالَ:

وَدَخَلَ فِي ذَلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مُجِيبٌ، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ عَلِيٌّ أَعْلَى، وَأَنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ كَمَالِ عُلُوِّهِ وَكَمَالِ قُرْبِهِ؛

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب المقة من الله تعالى (٦٠٤٠)، ومسلم في كتاب البر والصلة والآداب- باب إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده (٢٦٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة مريم: ٥٢.

(٣) سورة الكهف: ١٠٩.

(٤) سورة لقمان: ٢٧.

لِأَنَّهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ وَصِفَاتِهِ.

كَذَلِكَ يَدْخُلُ فِي تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَوْ فِي إِثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِثْبَاتُ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ مَعَ إِثْبَاتِ عُلُوِّهِ **{وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ}**[1]. **{وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}**[2]. **{مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا}**[3].

فَيَدْخُلُ فِي بَابِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ قُرْبُهُ وَمَعِيَّتُهُ.

وَالْمَعِيَّةُ نَوْعَانِ:

مَعِيَّةٌ عَامَّةٌ: وَمُقْتَضَاهَا الْعِلْمُ، فَهِيَ مَعِيَّةٌ عَامَّةٌ مَعَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، مَعَهُمْ بِعِلْمِهِ أَيْ أَنَّ عِلْمَهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ الْوُجُودِ **{إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا}**[4].

وَكَذَلِكَ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ أَيْ أَنَّهُ تَعَالَى مَعَ عِبَادِهِ لَا تَخْفَى مِنْهُمْ خَافِيَةٌ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ، يَعْلَمُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ فِي حَالِ الْمُنَاجَاةِ يَعْلَمُ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ ضَمَائِرُهُمْ وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُونَهُ: **{أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ}**[5]. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}**[6].

وَمَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ: وَهِيَ مَعِيَّتُهُ لِأَوْلِيَائِهِ وَرُسُلِهِ **{إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}**[7]. وَيَقُولُ لِمُوسَى وَهَارُونَ: **{إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}**[8]. لِأَنَّهُمَا تَوَجَّهَا إِلَى اللهِ بِأَنَّهُمَا يَخَافَانِ **{قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى}**[9]. وَمَنْ كَانَ اللهُ مَعَهُ فَلَنْ يَنَالَهُ أَحَدٌ بِسُوءٍ وَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ.

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) سورة الحديد: ٤.

(٣) سورة المجادلة: ٧.

(٤) سورة المجادلة: ٧.

(٥) سورة الزخرف: ٨٠.

(٦) سورة ق: ١٦.

(٧) سورة النحل: ١٢٨.

(٨) سورة طه: ٤٦.

(٩) سورة طه: ٤٥.

وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ النَّبِيِّ: {**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**}(١). فَلِهَذَا حَبِطَتْ جُهُودُ الْمُشْرِكِينَ فِي بَحْثِهِمْ وَطَلَبِهِمْ جَاءُوا إِلَى الْغَارِ وَوَقَفُوا عِنْدَ الْبَابِ وَالرَّسُولُ يَسْمَعُ وَصَاحِبُهُ أَبُو بَكْرٍ وَرَجَعُوا خَائِبِينَ مَخْذُولِينَ قَدْ أَعْمَى اللهُ بَصَائِرَهُمْ وَأَضَلَّهُمْ عَنْ مَطْلُوبِهِمْ بِحِفْظِهِ تَعَالَى وَتَأْيِيدِهِ لِأَنَّ اللهَ مَعَهُمَا، وَقَالَ: {**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**}(٢). فَهَذِهِ مَعِيَّةٌ خَاصَّةٌ تَقْتَضِي التَّأْيِيدَ وَالْحِفْظَ.

وَقَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: الْقُرْبُ هُوَ الْقُرْبُ الْخَاصُّ بِالْمُؤْمِنِينَ

وَإِلَّا فَلَا يُقَالُ إِنَّ اللهَ قَرِيبٌ مِنَ الْكُفَّارِ، وَفَسَّرُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: {**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**}(٣). أَنَّ الْمُرَادَ قُرْبُهُ بِمَلَائِكَتِهِ الْحَافِظِينَ لِأَعْمَالِ الْعِبَادِ

وَذَلِكَ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: {**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ**}(٤). الْمُرَادُ قُرْبُهُ بِمَلَائِكَتِهِ، وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ فِي الْآيَتَيْنِ وَاللهُ أَعْلَمُ.

فَقُرْبُهُ وَمَعِيَّتُهُ لَا يُنَافِيَانِ عُلُوَّهُ فَهُوَ عَلِيمٌ قَرِيبٌ، هُوَ عَلِيٌّ وَفَوْقَ الْعَرْشِ وَمَعَ عِبَادِهِ أَيْنَمَا كَانُوا فَلَا مُنَافَاةَ.

يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ(٥) رَحِمَهُ اللهُ فِي الْعَقِيدَةِ : وَهُوَ قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ.

وَلَيْسَتْ مَعِيَّتُهُ وَقُرْبُهُ مِنْ عِبَادِهِ كَمَا يَتَصَوَّرُ الْمُبْطِلُونَ الْمُعَطِّلَةُ الَّذِينَ يَنْفُونَ عُلُوَّهُ تَعَالَى وَيُثْبِتُونَ الْمَعِيَّةَ فَيَقُولُونَ : إِنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، حَالٌّ فِي الْمَخْلُوقَاتِ، حَالٌّ فِي الْأَمْكِنَةِ كُلِّهَا بِمَا يَتَصَوَّرُهُ النَّاسُ.

وَقَدْ أَلْزَمَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَقَالُوا: يَقْتَضِي كَلَامُكُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى فِي الْحُشُوشِ وَفِي بُطُونِ الْحَيَوَانَاتِ دَاخِلٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ. سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ .

قَالَ:

(١) سورة التوبة: ٤٠.

(٢) سورة البقرة: ١٥٣.

(٣) سورة ق: ١٦.

(٤) سورة الواقعة: ٨٥.

(٥) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد ابن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، شيخ الإسلام (تقي الدين أبو العباس) محدث، حافظ، مفسر، فقيه، مجتهد، مشارك في أنواع من العلوم، ولد في حران سنة ٦٦١هـ، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. من مصنفاته الكثيرة: مجموعة فتاويه، السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. (الأعلام للزركلي: ١/ ١٤٤).

وَلَا يَتِمُّ تَوْحِيدُ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالأَفْعَالِ وَأَحْكَامِهَا عَلَى وَجْهٍ يَلِيقُ بِعَظَمَةِ البَارِي؛ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَمَا أَنَّهُ لَا يُمَاثِلُهُ أَحَدٌ فِي ذَاتِهِ فَلَا يُمَاثِلُهُ أَحَدٌ فِي صِفَاتِهِ.

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ فِي بَعْضِ العَقْلِيَّاتِ مَا يُوجِبُ تَأْوِيلَ بَعْضِ الصِّفَاتِ عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا المَعْرُوفِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا.

هَذَا تَوْكِيدٌ لِمَا سَبَقَ، فَلَا يُفَرَّقُ فِي الْإِيمَانِ بِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ كَمَا فَعَلَ الْمُتَنَاقِضُونَ، بَلْ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِالْكُلِّ، بِكُلِّ أَسْمَائِهِ الَّتِي سَمَّى اللهُ بِهَا نَفْسَهُ وَسَمَّاهَا بِهِ رَسُولُهُ، وَبِكُلِّ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ، وَلَا يَتِمُّ هَذَا إِلَّا بِتَنْزِيهِهِ تَعَالَى عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**[1]. فَهَذِهِ الْآيَةُ مُرْتَكَزٌ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ النَّاسَ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: مُعَطِّلَةٌ وَمُشَبِّهَةٌ وَمُثْبِتَةٌ الْإِثْبَاتَ الْحَقَّ.

وَالْآيَةُ فِيهَا رَدٌّ عَلَى أَهْلِ التَّعْطِيلِ وَعَلَى أَهْلِ التَّمْثِيلِ، إِذَنْ فَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى مَذْهَبِ الْمُثْبِتَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

فَالنَّاسُ فِي هَذَا الْبَابِ طَرَفَانِ وَوَسَطٌ؛ أَهْلُ التَّعْطِيلِ يَنْفُونَ عَنِ اللهِ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتُ أَوْ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ فَقَطْ، وَالْمُشَبِّهَةُ الَّذِينَ يُثْبِتُونَ للهِ الصِّفَاتِ لَكِنْ يَقُولُونَ للهِ سَمْعٌ كَسَمْعِ الْمَخْلُوقِينَ وَبَصَرٌ كَبَصَرِهِمْ وَهَكَذَا، فَيَجْعَلُونَ صِفَاتِ الْخَالِقِ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ.

فَأَهْلُ التَّعْطِيلِ غَالَوا فِي التَّنْزِيهِ أَيْ نَفَوا مَا نَفَوا بِحُجَّةِ تَنْزِيهِ اللهِ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقِينَ، فَأَفْضَى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى تَشْبِيهِهِ بِالْمَخْلُوقَاتِ النَّاقِصَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ.

وَالْمُشَبِّهَةُ أَثْبَتُوا لَهُ الصِّفَاتِ عَلَى نَحْوِ مَا هُوَ ثَابِتٌ لِلْمَخْلُوقِ، فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ تَعْطِيلُهُ عَنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا.

فَكُلُّ مُشَبِّهٍ مُعَطِّلٌ، وَكُلُّ مُعَطِّلٍ مُشَبِّهٌ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَسَطٌ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ؛ أَثْبَتُوا للهِ كُلَّ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ، وَنَزَّهُوهُ عَنْ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ وَعَنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ، إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ، وَتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى **{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}**[2].

---

(١) سورة الشورى: ١١.

(٢) سورة الشورى: ١١.

الأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: هَلْ هُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ الْقَدَرِ وَالْقَضَاءِ؟

الْجَوَابُ: الْفَرْقُ مِنْ نَاحِيَةِ اللَّفْظِ، وَإِلَّا فَهُمَا مُتَلَازِمَانِ، فَالْقَضَاءُ مَعْنَاهُ الْحُكْمُ، وَالْقَدَرُ مَعْنَاهُ التَّقْدِيرُ، وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ؛ فَاللهُ تَعَالَى قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ وَهَذَا التَّقْدِيرُ يَتَضَمَّنُ حُكْمَهُ بِكَوْنِ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ، فَقَضَى- وَحَكَمَ بِوُجُودِهَا.

وَالْقَضَاءُ فِي نُصُوصِ الشَّرْعِ يَجْرِي فِيهِ التَّقْسِيمُ الْمَعْرُوفُ؛ إِلَى كَوْنِيٍّ وَشَرْعِيٍّ، وَالْقَضَاءُ الْكَوْنِيُّ شَامِلٌ لِكُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَتَضَمَّنُهُ الْقَدَرُ، وَالْقَضَاءُ الشَّرْعِيُّ هُوَ الْأَمْرُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **{وَقَضَى- رَبُّكَ}**[1]. أَيْ أَمَرَ وَوَصَّى، فَهَذَا قَضَاءٌ شَرْعِيٌّ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى **{ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ }**[2].

السُّؤَالُ: عِبَارَةُ (الْأَمْرُ أُنُفٌ) هَلْ هُوَ مِنْ قَوْلِ الْقَدَرِيَّةِ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ، وَمَعْنَاهُ شَيْءٌ مُسْتَجَدٌّ لَمْ يَسْبِقْ بِهِ عِلْمٌ وَلَا كِتَابَةٌ.

السُّؤَالُ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ نَقُولَ : اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِي قَدَرِي فِي الْخَيْرِ وَاصْرِفْ عَنِّي قَدَرِي فِي الشَّرِّ؟

الْجَوَابُ: الصَّوَابُ أَنْ تَسْأَلَ رَبَّكَ الْخَيْرَ وَتَعُوذُ بِهِ مِنَ الشَّرِّ.

السُّؤَالُ: مَا الْمُرَادُ بِقَوْلِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَلَا يَنْفَكُّ الْعَرْشُ عَنْهُ؟

الْجَوَابُ: الصَّوَابُ: وَلَا يَخْلُو الْعَرْشُ مِنْهُ، ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ مَسْأَلَةَ النُّزُولِ، وَذَكَرَ أَنَّ جُمْهُورَ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْهُ الْعَرْشُ. وَالَّذِي يُيَسِّرُ هَذَا عَلَى عَقْلِ الْمُسْلِمِ هُوَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَلَيْسَ نُزُولُهُ كَنُزُولِ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ خُلُوَ مَكَانٍ وَمَلْءَ مَكَانٍ، فَاللهُ يَنْزِلُ كَيْفَ شَاءَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السُّؤَالُ: هَلِ الدُّعَاءُ يُغَيِّرُ الْقَدَرَ؟

الْجَوَابُ: لَا، الدُّعَاءُ هُوَ مِنَ الْقَدَرِ، لَكِنَّ الْأَقْدَارَ الَّتِي سَبَقَ بِهَا عِلْمُ اللهِ وَكِتَابُهُ مِنْهُ مَا هُوَ مُرَتَّبٌ عَلَى سَبَبٍ وَلَا

(١) سورة الإسراء: ٢٣.

(٢) سورة آل عمران: ٤٧.

يُوجَدُ إِلَّا بِهَذَا السَّبَبِ، وَإِذَا سَبَقَ الْعِلْمُ بِالسَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ فَلَابُدَّ مِنْ وُجُودِهِمَا.

فَإِذَا دَعَا الْإِنْسَانُ بِحُصُولِ أَمْرٍ فَحَصَلَ فَالسَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ قَدْ جَرَى بِهِمَا الْقَدَرُ، وَإِذَا دَعَا وَلَمْ يَحْصُلِ الْمَطْلُوبُ فَقَدْ سَبَقَ الْقَدَرُ بِالدُّعَاءِ فَقَطْ وَلَمْ يُقَدِّرِ اللهُ حُصُولَ الْمَطْلُوبِ، وَهَذَا فِي كُلِّ مَا يَدْخُلُ فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، وَقَدْ جَرَتْ حِكْمَةُ اللهِ وَسُنَّتُهُ الْكَوْنِيَّةُ فِي دَفْعِ الْأَقْدَارِ بِالْأَقْدَارِ فَالْأُمُورُ الْمَكْرُوهَةُ الْوَاقِعَةُ هِيَ بِأَقْدَارِ اللهِ وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهَا أَسْبَابًا تَدْفَعُهَا، عَلَى حَدِّ قَوْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ لَمَّا اعْتَرَضَ عَلَيْهِ بَعْضُ النَّاسِ فِي رُجُوعِهِ عَنِ الشَّامِ لِوُقُوعِ الطَّاعُونِ فِيهَا قَالَ: نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ.

وَكَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ**»(١). لَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّ اللهَ يَرُدُّ قَدَرًا قَدْ سَبَقَ عِلْمُ اللهِ وَكِتَابُهُ أَنَّهُ كَائِنٌ، لَكِنْ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ قَدِ انْعَقَدَتْ أَسْبَابُ هَذَا الْقَدَرِ فَقَيَّضَ اللهُ لَهُ سَبَبًا يَدْفَعُهُ، انْعَقَدَ سَبَبُ نُزُولِ هَذَا الْأَمْرِ الْمَكْرُوهِ فَبَسَبَبُ الدُّعَاءِ انْدَفَعَ، وَالسَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ كِلَاهُمَا بِقَدَرِ اللهِ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ قَوْلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ الْقَضَاءِ وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ اللُّطْفَ فِيهِ؟

الْجَوَابُ: هَذَا غَلَطٌ، فَهُوَ دُعَاءٌ لَا أَصْلَ لَهُ فِي الْمَنْقُولِ وَلَا يَصِحُّ مِنْ جِهَةِ مَعْنَاهُ.

السُّؤَالُ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ أَسْأَلَ عَنْ حِكْمَةِ اسْتِوَاءِ اللهِ عَلَى عَرْشِهِ؟

الْجَوَابُ: لَيْسَ لَكَ ذَلِكَ، وَلَكِنِ ابْحَثْ عَنْ حُكْمِهِ تَعَالَى فِي مَخْلُوقَاتِهِ، أَمَّا فِي صِفَاتِهِ فَلَا.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٢٨٠)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب في القدر (٩٠)، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٨).

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ فِي بَعْضِ العَقْلِيَّاتِ مَا يُوجِبُ تَأْوِيلَ بَعْضِ الصِّفَاتِ عَلَى غَيْرِ مَعْنَاهَا المَعْرُوفِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا.

يُشِيرُ الشَّيْخُ فِي هَذِهِ الْعِبَارَةِ إِلَى الرَّدِّ عَلَى الطَّوَائِفِ الْمُبْتَدِعَةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْأَدِلَّةَ النَّقْلِيَّةَ -وَهِيَ عِنْدَهُمْ عَقْلِيَّةٌ- تُعَارِضُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَيَقُولُ: مَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَّلَائِلَ الْعَقْلِيَّةَ تَقْتَضِي تَأْوِيلَ النُّصُوصِ بِمَا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا وَيُوجِبُ صَرْفَهَا عَنْ مَعْنَاهَا الظَّاهِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا.

وَهَذَا فِيهِ الرَّدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ فِيمَا زَعَمُوهُ مِنَ التَّعَارُضِ بَيْنَ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَدِلَّةِ الْعَقْلِ كَمَا يَدَّعُونَ.

وَدَعْوَى التَّعَارُضِ بَاطِلَةٌ؛ فَالْمَعْقُولُ الصَّحِيحُ لَا تُعَارِضُ الْأَدِلَّةَ النَّقْلِيَّةَ الصَّرِيحَةَ، فَالْعَقْلُ لَا يُعَارِضُ مَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، لِأَنَّ الرُّسُلَ لَا يَأْتُونَ بِمَا تَدُلُّ الْعُقُولُ عَلَى اسْتِحَالَتِهِ، لَكِنْ قَدْ تَأْتِي بِمَا يَحَارُ فِيهِ الْعَقْلُ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ مَا يَقْتَضِي ثُبُوتُهُ وَلَا نَفْيُهُ.

أَصْلُ الضَّلَالِ هُوَ تَقْدِيمُ الْعَقْلِ عَلَى النَّقْلِ:

وَهَذَا الْأَصْلُ -أَعْنِي تَقْدِيمَ الْعَقْلِ عَلَى السَّمْعِ- هُوَ أَصْلُ ضَلَالِ تِلْكَ الطَّوَائِفِ، وَإِنَّهَا لَبِدْعَةٌ نَكْرَاءُ وَمَقَالَةٌ شَنْعَاءُ أَدَّتْ بِهِمْ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْبَاطِلِ؛ فَيَنْفُونَ أَسْمَاءَ الله وَصِفَاتِهِ بِحُجَّةِ دَلَالَةِ الْعَقْلِ، فَجَعَلُوا الْأَصْلَ فِي الدَّلِيلِ هُوَ الْعَقْلُ، فَلَمَّا جَاءَتِ النُّصُوصُ عَلَى خِلَافِ عُقُولِهِمْ لَجَئُوا إِلَى التَّأْوِيلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَخَلَّصُ مِنَ النُّصُوصِ بِدَعْوَى التَّفْوِيضِ فَيَقُولُونَ إِنَّ نُصُوصَ الصِّفَاتِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ إِلَّا الله وَيَسْتَدِلُّونَ بِالْآيَةِ: **{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله}**[1].

نُفَاةُ الصِّفَاتِ عَلَى قِسْمَيْنِ:

فَصَارَ نُفَاةُ الصِّفَاتِ عَلَى طَائِفَتَيْنِ عَلَى الْإِجْمَالِ: أَهْلِ تَفْوِيضٍ، وَأَهْلِ تَأْوِيلٍ. وَلَاسِيَّمَا مَنْ يَنْفِي بَعْضَهَا وَيُثْبِتُ

(١) سورة آل عمران: ٧.

بَعْضَهَا مِثْلُ الْأَشَاعِرَةِ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ أَهْلِ التَّفْوِيضِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ التَّأْوِيلِ، فَكُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى نَفْيِ مَا يَنْفُونَ مِنَ الصِّفَاتِ وَلَكِنَّهُمْ يَخْتَلِفُونَ فِي مَوْقِفِهِمْ مِنَ النُّصُوصِ.

فَفَرِيقٌ يَقُولُونَ: هَذِهِ النُّصُوصُ لَهَا مَعَانٍ خِلَافَ ظَاهِرِهَا فَيُؤَوِّلُونَهَا بِمَعَانٍ قَدْ تَحْتَمِلُهَا اللُّغَةُ الْعَرَبِيَّةُ وَقَدْ يُفَسِّرُونَهَا بِمَا لَا تَحْتَمِلُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا لَا تَحْتَمِلُ الْمَعَانِيَ الَّتِي زَعَمُوهَا مِنْ حَيْثُ دَلَالَةِ السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ.

فَمَذْهَبُ أَهْلِ التَّفْوِيضِ وَأَهْلِ التَّأْوِيلِ فِيمَا يُثْبِتُونَ وَيَنْفُونَ مَذْهَبٌ وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ جَوَابَهُمْ عَنِ النُّصُوصِ يَخْتَلِفُ وَالْمُعَوَّلُ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ فِي ذَلِكَ هُوَ الْعَقْلُ؛ فَمَا دَلَّ الْعَقْلُ عَلَيْهِ بِزَعْمِهِمْ أَثْبَتُوهُ وَمَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى إِثْبَاتِهِ نَفَوْهُ.

مَعَ أَنَّ الْمُقَرَّرَ فِي قَوَاعِدِ الْعَقْلِ أَنَّ الْمُثْبَتَ النَّافِي عَلَيْهِ الدَّلِيلُ، فَمَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى إِثْبَاتِهِ وَلَا عَلَى نَفْيِهِ يَجِبُ التَّوَقُّفُ فِيهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُمْ يَنْفُونَ مَا لَمْ يَدُلَّ الْعَقْلُ عَلَيْهِ سَوَاءٌ دَلَّ عَلَى نَفْيِهِ عِنْدَهُمْ أَوْ لَمْ يَدُلَّ عَلَى نَفْيِهِ.

وَقَدْ أَبْدَعَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي كُتُبِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى مَا يَزْعُمُونَهُ مِنَ التَّعَارُضِ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَأَلَّفَ فِيهِ كِتَابًا عَظِيمًا اسْمُهُ «دَرْءُ تَعَارُضِ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ» أَيْ دَفْعُ التَّعَارُضِ وَإِبْطَالُهُ، وَقَرَّرَ أَنَّهُ لَا يَتَعَارَضُ الْعَقْلُ الصَّحِيحُ مَعَ النَّقْلِ الصَّرِيحِ، وَبَيَّنَ فَسَادَ التَّعْوِيلِ عَلَى الْعَقْلِ فِي إِثْبَاتِ أَوْ نَفْيِ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى بِدَلَائِلَ عَقْلِيَّةٍ، وَذَلِكَ فِي كِتَابِهِ «الْفَتْوَى الْحَمَوِيَّةُ الْكُبْرَى» وَبَيَّنَ أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ بَيَّنَ مَا يَجِبُ اعْتِقَادُهُ؛ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الرَّسُولَ لَمْ يُبَيِّنْ لِلْأُمَّةِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمُ اعْتِقَادُهُ فِي رَبِّهِمْ.

قَالَ الشَّيْخُ:

وَلَا يَتِمُّ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ حَتَّى يَعْتَقِدَ الْعَبْدُ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لله، وَأَنَّ مَشِيئَتَهُمْ تَابِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ، وَأَنَّ لَهُمْ أَفْعَالًا وَإِرَادَةً تَقَعُ بِهَا أَفْعَالُهُمْ وَهِيَ مُتَعَلَّقُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَنَافَى الْأَمْرَانِ: إِثْبَاتُ مَشِيئَةِ اللهِ الْعَامَّةِ الشَّامِلَةِ لِلذَّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ، وَإِثْبَاتُ قُدْرَةِ الْعَبْدِ عَلَى أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ.

رَجَعَ الشَّيْخُ لِيَذْكُرَ مَا يَدْخُلُ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ كَمَا أَشَارَ مِنْ قَبْلُ أَنَّهُ يَدْخُلُ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ إِثْبَاتُ الْقَدَرِ، وَهَذَا مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ إِثْبَاتُ أَنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لله وَأَنَّهَا وَاقِعَةٌ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ فَلَا خُرُوجَ لِشَيْءٍ عَنْ قُدْرَةِ الرَّبِّ وَعَنْ مَشِيئَتِهِ.

وَالْقَدَرِيَّةُ النُّفَاةُ أَخْرَجُوا أَفْعَالَ الْعِبَادِ عَنْ عُمُومِ الْمَشِيئَةِ وَعُمُومِ الْخَلْقِ، وَتَقَدَّمَ أَنَّ الْقَدَرِيَّةَ طَائِفَتَانِ: غُلَاةٌ نَفَوا

الْقَدَرَ بِكُلِّ مَعَانِيهِ، وَمُتَوَسِّطُونَ وَهُمْ جُمْهُورُهُمْ. وَمُتَأَخِّرُوهُمْ إِنَّمَا نَفَوا عُمُومَ الْمَشِيئَةِ وَعُمُومَ الْخَلْقِ، وَزَعَمُوا أَنَّ الْعِبَادَ خَالِقُونَ لِأَفْعَالِهِمْ وَأَنَّهَا إِنَّمَا تَقَعُ بِمَحْضِ مَشِيئَتِهِمْ هُمْ.

وَأَمَّا الْجَهْمِيَّةُ فَعَلَى الْخِلَافِ مِنْ ذَلِكَ تَمَامًا فَقَدْ غَالَوا فِي الْمَشِيئَةِ حَتَّى قَالُوا إِنَّ الْعَبْدَ لَا مَشِيئَةَ لَهُ وَلَا اخْتِيَارَ. فَهُمَا عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بَيْنَ هَذَيْنِ؛ فَأَثْبَتُوا لله عُمُومَ الْخَلْقِ وَعُمُومَ الْقُدْرَةِ وَعُمُومَ الْمَشِيئَةِ، وَأَثْبَتُوا لِلْعَبْدِ قُدْرَةً وَمَشِيئَةً وَفِعْلًا، وَقَالُوا إِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مَحْكُومٌ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ}**[1] **{لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ}**[2].

وَيَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ الْإِيمَانُ أَنَّ اللهَ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ، أَيْ لَا تَعَارُضَ بَيْنَ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ، بَلْ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِمَا وَيَجِبُ إِثْبَاتُهُمَا، وَلَا يَسْتَقِيمُ دِينُ الْعَبْدِ إِلَّا بِذَلِكَ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ طَرَفَانِ:

فَمِنْهُمْ مَنْ نَفَى الْقَدَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ غَالَى فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ وَأَعْرَضَ عَنِ الشَّرْعِ، وَمِنْهُمْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ بَيْنَ الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ تَنَاقُضًا.

وَهَذِهِ الطَّوَائِفُ ذَكَرَهَا شَيْخُ الْإِسْلَامِ، فَالْقَدَرِيَّةُ يُعْرَفُونَ بِمَجُوسِ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا جَاءَ فِي الْآثَارِ، وَالْجَبْرِيَّةُ يُشَبَّهُونَ بِالْمُشْرِكِينَ، وَلِذَا يُقَالُ لَهُمُ الْمُشْرِكِيَّةُ لِأَنَّهُمْ يُشْبِهُونَ الَّذِينَ قَالُوا: **{سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا}**[3]. فَعَارَضُوا الشَّرْعَ بِالْقَدَرِ وَاحْتَجُّوا بِالْقَدَرِ عَلَى الشَّرْعِ.

فَلَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ الْعَبْدِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِقَدَرِ اللهِ وَأَمْرِهِ، وَيُثْبِتَ الْحُكْمَ الْكَوْنِيَّ وَالْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ وَيُؤْمِنَ بِأَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا، وَلَا يُحْتَجُّ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمَعَاصِي كَاحْتِجَاجِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى شِرْكِهِمْ بِمَشِيئَةِ اللهِ، وَهَذِهِ كَلِمَةُ حَقٍّ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ}**[4] لَكِنَّهَا كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، فَهُمْ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ بِرُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى وَعُمُومِ مَشِيئَتِهِ، وَإِنَّمَا قَالُوا هَذَا مُعَارِضِينَ لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) سورة الإنسان: ٣٠.

(٢) سورة التكوير: ٢٨.

(٣) سورة الأنعام: ١٤٨.

(٤) سورة الأنعام: ١٣٧.

مُحْتَجِّينَ بِذَلِكَ عَلَى صِحَّةِ دِينِهِمْ وَمِلَّتِهِمُ الْعَوْجَاءِ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللهِ.

قَالَ الشَّيْخُ:

وَلَا يَتِمُّ تَوْحِيدُ العَبْدِ حَتَّى يُخْلِصَ العَبْدُ للهِ تَعَالَى فِي إِرَادَتِه، وَأَقْوَالِهِ، وَأَفْعَالِهِ، وَحَتَّى يَدَعَ الشِّرْكَ الأَكْبَرَ المُنَافِيَ لِلتَّوْحِيدِ كُلَّ المُنَافَاةِ: وَهُوَ أَنْ يَصْرِفَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ تَعَالَى.

يَقُولُ وَلَا يَتِمُّ دِينُ الْعَبْدِ حَتَّى يُخْلِصَ الدِّينُ للهِ وَيَصْرِفَ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَهَذَا هُوَ تَحْقِيقُ تَوْحِيدِ الْعِبَادَةِ الَّذِي نُعَبِّرُ عَنْهُ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، فَلَا يَعْبُدُ مَعَ اللهِ غَيْرَهُ بِأَيِّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ، وَيَدَعُ الشِّرْكَ كُلَّهُ الْأَكْبَرَ وَالْأَصْغَرَ.

فَالشِّرْكُ الْأَكْبَرُ يَتَنَافَى مَعَ أَصْلِ التَّوْحِيدِ وَيُوجِبُ لِلْعَبْدِ الْخُرُوجَ عَنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ فَإِنَّهُ يُنَافِي كَمَالَ التَّوْحِيدِ الْوَاجِبِ.

وَأَيْضًا سَائِرُ الذُّنُوبِ تُنَافِي كَمَالَ التَّوْحِيدِ الْوَاجِبِ؛ فَإِنَّ تَحْقِيقَ التَّوْحِيدِ يَسْتَلْزِمُ تَرْكَ مَا يُنَافِي أَصْلَهُ، فَلِهَذَا عَقَدَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي كِتَابِ «التَّوْحِيدِ» بَابَ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ.

فَلَيْسَ كُلُّ مُوَحِّدٍ يَكُونُ مُحَقِّقًا لِلتَّوْحِيدِ، فَالْمُحَقِّقُ لِلتَّوْحِيدِ هُوَ الَّذِي قَامَ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ.

تَفَاوُتُ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ:

وَأَكْمَلُ النَّاسِ تَوْحِيدًا هُمُ الرُّسُلُ وَأَتْبَاعُهُمْ ثُمَّ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ،

وَالنَّاسُ فِي التَّوْحِيدِ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ لَا يَعْلَمُ دَرَجَاتِهِمْ إِلَّا الَّذِي يَعْلَمُ مَا فِي الْقُلُوبِ.

وَمَا لَا يَتِمُّ تَوْحِيدُ الْعِبَادَةِ إِلَّا بِهِ فَإِنَّهُ لَا يَتِمُّ أَيْضًا تَحْقِيقُ الرُّبُوبِيَّةِ وَلَا تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ إِلَّا بِهِ.

وَلِهَذَا أَجْمَلَ الشَّيْخُ وَلَمْ يَرْبِطْهُ بِنَوْعٍ مُعَيَّنٍ، فَلَا يَتِمُّ تَوْحِيدُ الْعَبْدِ حَتَّى يُخْلِصَ الدِّينَ كُلَّهُ للهِ وَيَجْتَنِبَ الشِّرْكَ كُلَّهُ كَبِيرَهُ وَصَغِيرَهُ، وَالْأَدِلَّةُ عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ تَقَدَّمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا، فَاللهُ أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ وَنَهَى عَنِ الشِّرْكِ بِهِ **{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}**[1]. **{وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا}**[2].

(١) سورة البقرة: ٢١.

(٢) سورة النساء: ٣٦.

وَقَالَ مُخْبِرًا عَنْ دَعْوَةِ الرُّسُلِ: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}(١).

قَالَ الشَّيْخُ:

وَكَمَالُ ذَلِكَ أَنْ يَدَعَ الشِّرْكَ الأَصْغَرَ: وَهُوَ كُلُّ وَسِيلَةٍ قَرِيبَةٍ يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الشِّرْكِ الأَكْبَرِ كَالحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ وَيَسِيرِ الرِّيَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

يَقُولُ إِنَّهُ لَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ وَلَا يَتَحَقَّقُ عَلَى وَجْهِ الْكَمَالِ إِلَّا بِتَرْكِ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ؛ فَإِنَّهُ يُنَافِي تَحْقِيقَ التَّوْحِيدِ وَكَمَالَ التَّوْحِيدِ الْوَاجِبِ.

وَيُعَرِّفُ الشَّيْخُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ، أَمَّا الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ فَهُوَ عِبَادَةُ غَيْرِ اللهِ مَعَ اللهِ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**»(٢).

قَالَ تَعَالَى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ}(٣).

لَكِنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرِ فَلَيْسَ لَهُ تَعْرِيفٌ جَامِعٌ مَانِعٌ، لَكِنَّ الشَّيْخَ عَرَّفَهُ تَعْرِيفًا لَا يَتَحَقَّقُ فِيهِ تَصَوُّرُ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ بِأَنْوَاعِهِ فَقَالَ: وَهُوَ كُلُّ وَسِيلَةٍ قَرِيبَةٍ تُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ.

وَالْحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ لَيْسَ بِبَيِّنٍ أَنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَى الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ لَكِنْ رُبَّمَا قَصَدَ أَنَّ الْحَلِفَ بِالشَّيْءِ يَتَضَمَّنُ تَعْظِيمَهُ وَقَدْ يَتَمَادَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى الْغُلُوِّ فِيهِ وَاعْتِقَادِ أَنَّ ذَلِكَ الْمَحْلُوفَ بِهِ لَهُ مِنَ الْعَظَمَةِ مَا لله تَعَالَى.

وَيَسِيرُ الرِّيَاءِ مَعْرُوفٌ وَمُرَاءَاةُ النَّاسِ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ وَإِرَادَةُ الْإِنْسَانِ النَّاسَ بِعَمَلِهِ.

وَعِنْدِي أَنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ لَا يَنْضَبِطُ إِلَّا بِأَنْوَاعِهِ؛ مِثْلُ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ، وَيَسِيرُ الرِّيَاءِ، وَقَوْلِ الرَّجُلِ مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَمِنْ جِنْسِ ذَلِكَ الِاعْتِمَادُ عَلَى الْأَسْبَابِ. فَيَضْبِطُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ بِأَنْوَاعِهِ.

وَكَبِيرُ الرِّيَاءِ هُوَ النِّفَاقُ بِأَنْ يُظْهِرَ الْإِسْلَامَ وَأَعْمَالَ الْإِيمَانِ وَيُبْطِنَ الْكُفْرَ، وَاللهُ تَعَالَى وَصَفَ الْمُنَافِقِينَ بِالْمُرَاءَاةِ فَقَالَ: {يُرَاءُونَ النَّاسَ}(٤).

---

(١) سورة النحل: ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب قوله: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادًا} (٤٤٩٧) واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان- باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل النار (٩٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنهما.

(٣) سورة يونس: ١٠٦.

(٤) سورة النساء: ١٤٢.

أَمَّا الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُؤْمِنُ بِالله وَرَسُولِهِ فَإِنَّهُ لَا يُرَائِي فِي أَصْلِ دِينِهِ وَلَا يُرَائِي فِي فَرَائِضِ الْإِسْلَامِ، لَكِنْ قَدْ يَعْمَلُ بَعْضَ الْأَعْمَالِ يَتَزَيَّنُ بِهَا كَمَا فِي الْحَدِيثِ : «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ ». قَالُوا: بَلَى. فَقَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِي أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنَ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[1]. هَذَا شِرْكٌ أَصْغَرُ.

قَالَ الشَّيْخُ:

وَالنَّاسُ فِي التَّوْحِيدِ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ بِحَسَبِ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ مَعْرِفَةِ الله، وَالقِيَامِ بِعُبُودِيَّتِهِ.

فَأَكْمَلُهُمْ فِي هَذَا البَابِ مَنْ عَرَفَ مِنْ تَفَاصِيلِ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَآلَائِهِ وَمَعَانِيهَا الثَّابِتَةِ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَفَهِمَهَا فَهْمًا صَحِيحًا؛ فَامْتَلَأَ قَلْبُهُ مِنْ مَعْرِفَةِ الله، وَتَعْظِيمِهِ، وَإِجْلَالِهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَانْجِذَابِ جَمِيعِ دَوَاعِي قَلْبِهِ إِلَى الله تَعَالَى مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وَوَقَعَتْ جَمِيعُ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ فِي كَمَالِ الإِيمَانِ، وَالإِخْلَاصِ التَّامِّ الَّذِي لَا يَشُوبُهُ شَيْءٌ مِنَ الأَغْرَاضِ الفَاسِدَةِ فَاطْمَأَنَّ إِلَى الله مَعْرِفَةً وَإِنَابَةً وَفِعْلًا وَتَرْكًا وَتَكْمِيلًا لِنَفْسِهِ، وَتَكْمِيلًا لِغَيْرِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ فَنَسْأَلُ الله مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْنَا بِذَلِكَ.

يُخْتَمُ الْقَوْلُ فِي التَّوْحِيدِ بِبَيَانِ أَنَّ النَّاسَ فِي التَّوْحِيدِ عَلَى دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ لَكِنَّهُ هُنَا يُعَبِّرُ عَنْ أَعْلَى أَصْنَافِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ.

فَهُمُ الَّذِينَ عَرَفُوا اللهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَفَهِمُوا مَعَانِيَهَا، مُسْتَمِدِّينَ ذَلِكَ مِنْ كِتَابِ الله وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَثْمَرَ هَذَا الْعِلْمُ أَعْمَالًا فِي قُلُوبِهِمْ: مَحَبَّةً لله وَخَوْفًا وَرَجَاءً وَتَوَكُّلًا، فَإِنَّ مَعْرِفَةَ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ مِنْهَا مَا يُوجِبُ مَحَبَّةَ الله وَمِنْهَا مَا يُوجِبُ الْخَوْفَ مِنَ الله وَمِنْهَا مَا يُوجِبُ رَجَاءَ الله وَمِنْهَا مَا يُوجِبُ التَّوَكُّلَ عَلَيْهِ: **{نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}**[2].

فَالْعِلْمُ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَكَثْرَةِ مَغْفِرَتِهِ لِعِبَادِهِ أَوْجَبَ لَهُمْ مَحَبَّتَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَالتَّوَجُّهَ إِلَيْهِ وَالرَّجَاءَ فِيهِ وَحُسْنَ الظَّنِّ بِهِ، وَإِذَا عَلِمَ الْعَبْدُ أَنَّهُ تَعَالَى عَزِيزٌ وَأَنَّهُ ذُو انْتِقَامٍ وَأَنَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ أَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ مَهَابَتَهُ وَتَعْظِيمَهُ وَالْخَوْفَ

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٠)، وابن ماجه في كتاب الزهد- باب الريا والسمعة (٤٢٠٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٣٣).

(٢) سورة الحجر: ٤٩، ٥٠.

مِنْهُ.

ثُمَّ إِذَا عَمُرَ الْقَلْبُ بِمَحَبَّتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَحُسْنِ الظَّنِّ فِيهِ وَمَهَابَتِهِ أَجْرَى ذَلِكَ التَّأْثِيرَ عَلَى حَرَكَاتِهِ فِي أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ فَتَكُونُ أَقْوَالُهُ وَأَعْمَالُهُ مَحْكُومَةً بِمَا يَتَنَاسَبُ مَعَ ذَلِكَ الْعِلْمِ؛ فَتَكُونُ حَرَكَاتُهُ كُلُّهَا لله وَبِالله، وَهَذَا أَكْمَلُ النَّاسِ عُبُودِيَّةً وَهُوَ مَنْ تَحَقَّقَ لله بِالْعُبُودِيَّةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ.

وَقَدْ عَبَّرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَنْ ذَلِكَ مُسَايَرَةً لِمَا يَدَّعِيهِ الصُّوفِيَّةُ مِنْ أَنَّ الفَنَاءَ هُوَ الْفَنَاءُ عَنْ شُهُودِ سِوَاهُ، فَيَقُولُ هُوَ: الْفَنَاءُ الشَّرْعِيُّ هُوَ الْفَنَاءُ بِعِبَادَةِ الله عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ، وَبِحُبِّهِ عَنْ حُبِّ مَنْ سِوَاهُ، وَخَوْفِهِ عَنْ خَوْفِ مَنْ سِوَاهُ، بِحَيْثُ لَا يَعْبُدُ إِلَّا الله، وَلَا يَرْجُو إِلَّا الله، وَلَا يَخَافُ إِلَّا مِنَ الله، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَى الله، فَتَكُونُ جَمِيعُ أَحْوَالُهُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ مُرْتَبِطَةً بِالله. وَيُصَوِّرُ هَذَا مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ كَمَا يَرْوِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَبِّ الْعِزَّةِ: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ**»[1].

مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ الْخُضُوعَ وَالْعُبُودِيَّةَ لله قَدِ اسْتَغْرَقَتْ حَرَكَاتِ هَذَا الْعَبْدِ، فَمَثَلًا النَّظَرُ فِيهِ مَا هُوَ وَاجِبٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُسْتَحَبٌّ وَمِنْهُ مَا هُوَ مَكْرُوهٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ حَرَامٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُبَاحٌ، فَيَكُونُ نَظَرُ هَذَا الْعَبْدِ دَائِرًا بَيْنَ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ، وَكَذَلِكَ سَمْعُهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ أَخْذِهِ وَعَطَائِهِ ... إِلَخْ.

فَلْيَتَأَمَّلِ الْعَبْدُ فِي أَفْعَالِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَأَقْوَالِهِ مَاذَا لله مِنْهَا وَمَاذَا لِغَيْرِهِ.

فَأَكْمَلُ النَّاسِ تَوْحِيدًا هُوَ مَنْ عَرَفَ اللهَ وَعَرَفَ تَفَاصِيلَ مَا لله مِنْ أَسْمَاءٍ وَصِفَاتٍ، وَطَرِيقُ ذَلِكَ هُوَ تَدَبُّرُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، ثُمَّ أَنْ يُثْمِرَ ذَلِكَ الْعِلْمُ التَّوَكُّلَ عَلَى الله وَحُبَّهُ وَخَوْفَهُ وَحُسْنَ الظَّنِّ بِهِ إِلَى آخِرِ ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنَ الانْقِيَادِ لله فِي أَعْمَالِهِ كُلِّهَا.

فَكَمَالُ التَّوْحِيدِ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ.

أَمَّا الْكَمَالُ بِاعْتِبَارِ الْمُوَحِّدِينَ فَأَكْمَلُ النَّاسِ تَوْحِيدًا هُوَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ الرُّسُلُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ ثُمَّ الْأَنْبِيَاءُ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ ثُمَّ الصَّالِحُونَ عَلَى مَرَاتِبِهِمْ،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب التواضع (٦٥٠٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وَفَضْلُ الْعِبَادِ عِنْدَ اللهِ بِحَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي تَحْقِيقِ تَوْحِيدِهِ وَفِي تَحْقِيقِ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ.

قَالَ:

الأَصْلُ الثَّانِي

الإِيمَانُ بِنُبُوَّةِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ عُمُومًا، وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُصُوصًا وَهَذَا الأَصْلُ مَبْنَاهُ عَلَى أَنْ يَعْتَقِدَ، وَيُؤْمِنَ بِأَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ قَدِ اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِوَحْيِهِ وَإِرْسَالِهِ، وَجَعَلَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي تَبْلِيغِ شَرْعِهِ وَدِينِهِ.

هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الثَّانِي مِنَ الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ الَّتِي بَنَى عَلَيْهَا الشَّيْخُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ الْمُخْتَصَرَةَ: الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ.

وَالْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ هُوَ الْأَصْلُ الرَّابِعُ مِنَ الْأُصُولِ الَّتِي فَصَّلَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِيمَانَ فِي جَوَابِهِ لِجِبْرِيلَ.

وَالْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ يَعْنِي الْإِيمَانَ بِأَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ وَأَنَّ مَا جَاءُوا بِهِ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَأَنَّهُمْ أَهْدَى الْخَلْقِ وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ وَأَنْفَعُ الْخَلْقِ لِلْخَلْقِ وَكَذَلِكَ أَتْبَاعُهُمْ مِنْ أَنْفَعِ النَّاسِ لِلنَّاسِ: **{كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ}**[1].

فَالرُّسُلِ جَاءُوا بِمَا يُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، فَهَذِهِ غَايَتُهُمْ كَمَا قَالَ اللهُ فِي شَأْنِ الْقُرْآنِ وَالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **{الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}**[2]. **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}**[3]. وَهَكَذَا كُلُّ الرُّسُلِ هَذِهِ غَايَتُهُمْ.

وَيَكُونُ الْخُرُوجُ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِتَوْحِيدِ اللهِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ ظُلْمَةِ الشِّرْكِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ وَمِنْ ظُلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ إِلَى نُورِ الطَّاعَةِ، وَيُخْرِجُونَهُمْ مِنْ ظُلْمَةِ الْغَفْلَةِ وَالْإِعْرَاضِ إِلَى نُورِ الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ.

الإِيمَانُ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) سورة آل عمران: ١١٠

(٢) سورة إبراهيم: ١، ٢.

(٣) سورة إبراهيم: ٥.

وَلِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذَا الْإِيمَانِ أَكْبَرُ قَدْرٍ وَأَعْظَمُ حَظٍّ مِنَ الْإِيمَانِ بِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُرْسَلُ إِلَيْنَا فَهُوَ حَظُّنَا مِنَ الرُّسُلِ؛ فَنَخُصُّهُ بِمَزِيدٍ مِنَ الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ، وَهُوَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَا جَاءَ بِهِ عَلَى التَّفْصِيلِ، أَمَّا الرُّسُلُ فَنَعْرِفُ مَا جَاءُوا بِهِ مَعْرِفَةً مُجْمَلَةً؛ فَنُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ جَاءُوا بِالْحَقِّ وَأَنَّهُمْ جَاءُوا مِنْ عِنْدِ اللهِ بِشَرَائِعَ قَوِيمَةٍ وَجَاءُوا بِالْهُدَى وَالنُّورِ.

لَكِنْ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُصُوصِيَّةٌ هِيَ حَقُّهُ عَلَيْنَا، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَأَنْ نُحِبَّهُ فَوْقَ مَحَبَّتِنَا لِأَنْفُسِنَا وَأَنْ نُطِيعَهُ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ، وَنُصَدِّقَهُ فِي أَخْبَارِهِ، فَاللهُ تَعَالَى أَمَرَنَا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَأَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ رَسُولِهِ وَجَعَلَهُ لَنَا أُسْوَةً: **{لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}**(١). وَأَمَرَنَا بِالْإِيمَانِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ: **{فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا}**(٢). **{فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**(٣).

الْفَرْقُ بَيْنَ الْوَسَاطَةِ فِي الشَّرْعِ وَالْوَسَاطَةِ فِي الْعِبَادَةِ:

وَالْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ كَمَا قَالَ الشَّيْخُ حَقِيقَتُهُ أَنَّهُمْ جَاءُوا بِمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ وَدِينِ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُمْ وَسَائِطُ بَيْنَ اللهِ وَعِبَادِهِ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ مِنْ شَرْعِ اللهِ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْوَسَاطَةِ يَجِبُ اعْتِقَادُهُ.

وَأَمَّا الْوَسَاطَةُ فِي الْعِبَادَةِ فَهِيَ سَبِيلُ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ وَسَائِطَ بِعِبَادَتِهِمْ فَصَارُوا يَعْبُدُونَ مَا يَعْبُدُونَ مُتَّخِذِينَ تِلْكَ الْوَسَائِطَ شُفَعَاءَ عِنْدَ اللهِ وَزَاعِمِينَ أَنَّهُمْ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَى اللهِ زُلْفَى: **{وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}**(٤).

وَالرُّسُلُ كَثِيرُونَ، وَلَكِنَّ اللهَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ عَدَدًا مِنَ الرُّسُلِ وَفَصَّلَ فِي الْخَبَرِ عَنْ بَعْضِهِمْ وَأَجْمَلَ فِي الْخَبَرِ عَنْ بَعْضِهِمْ وَأَخْبَرَ أَنَّ هُنَاكَ رُسُلًا لَمْ يُخْبِرْنَا عَنْهُمْ: **{وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا}**(٥). وَلَهُ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ فِيمَا قَصَّ وَفِيمَا طَوَى عِلْمَهُ عَنَّا.

---

(١) سورة الأحزاب: ٢١.

(٢) سورة التغابن: ٨.

(٣) سورة الأعراف: ١٥٧.

(٤) سورة الزمر: ٣.

(٥) سورة النساء: ١٦٤.

وَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ الْإِيمَانَ بِالرُّسُلِ فَقَالَ: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}(١). وَوَصَفَ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْإِيمَانِ بِذَلِكَ فَقَالَ: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}(٢).

الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ:

التَّعْرِيفُ الْمَشْهُورُ أَنَّ الرَّسُولَ هُوَ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ، وَالنَّبِيَّ هُوَ مِنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ.

وَهَذَا التَّعْرِيفُ غَيْرُ مُسْتَقِيمٍ لِقَوْلِهِمْ إِنَّ النَّبِيَّ مَنْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَبْلِيغِهِ، وَالْحَقُّ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ يُبَلِّغُونَ وَيَأْمُرُونَ وَيَنْهَوْنَ وَيَحْكُمُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي شَأْنِ التَّوْرَاةِ: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ}(٣).

وَالتَّعْرِيفُ الَّذِي ارْتَضَاهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ(٤): أَنَّ الرَّسُولَ مَنْ أُرْسِلَ إِلَى قَوْمٍ مُكَذِّبِينَ كُفَّارٍ.

وَأَمَّا النَّبِيُّ فَهُوَ الْمُرْسَلُ إِلَى قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ يُعَلِّمُهُمْ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ؛

كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى.

وَلَكِنَّ الَّذِي لَابُدَّ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَيْضًا لَهُمْ قَدْرٌ مِنَ الرِّسَالَةِ قَالَ سُبْحَانَهُ: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ}(٥). فَأَضَافَ الْإِرْسَالَ إِلَيْهِمَا جَمِيعًا فَالنَّبِيُّ مُرْسَلٌ.

فَالْإِرْسَالُ الشَّرْعِيُّ مِنْهُ مَا هُوَ عَامٌّ لِكُلِّ مَنْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ، وَمِنْهُ مَا هُوَ خَاصٌّ بِمَنْ أُرْسِلَ لِدَعْوَةِ الْكُفَّارِ وَنَهْيِهِمْ عَنِ الشِّرْكِ كَنُوحٍ وَهُودَ وَصَالِحٍ وَلُوطَ وَإِبْرَاهِيمَ وَشُعَيْبٍ وَمُوسَى وَهَارُونَ.

قَالَ الشَّيْخُ:

---

(١) سورة النساء: ١٣٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٥.

(٣) سورة المائدة: ٤٤.

(٤) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد ابن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، شيخ الإسلام (تقي الدين أبو العباس) محدث، حافظ، مفسر، فقيه، مجتهد، مشارك في أنواع من العلوم، ولد في حران سنة ٦٦١ هـ، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. من مصنفاته الكثيرة: مجموعة فتاويه، السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. (الأعلام للزركلي: ١/ ١٤٤).

(٥) سورة الحج: ٥٢.

وَأَنَّ اللهَ أَيَّدَهُمْ بِالبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ وَصِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ، وَأَنَّهُمْ أَكْمَلُ الخَلْقِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَأَصْدَقُهُمْ وَأَبَرُّهُمْ وَأَكْمَلُهُمْ أَخْلَاقًا وَأَعْمَالًا.

مِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُمْ غَايَةٌ فِي الصِّدْقِ وَأَنَّهُمْ أَكْمَلُ النَّاسِ عِلْمًا وَتقْوَى وَصِدْقًا وَبِرًّا وَهُمْ خَيْرُ عِبَادِ اللهِ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا أَنَّ اللهَ أَقَامَ الْأَدِلَّةَ عَلَى صِدْقِهِمْ وَأَرْسَلَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَخْبَرَنَا عَمَّا أَعْطَاهُمْ مِنَ الدَّلَائِلِ وَالْبَيِّنَاتِ وَمِنْهُمْ مَا لَمْ يُخْبِرْنَا بِهِ، لَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّ اللهَ أَيَّدَهُمْ بِالْحُجَجِ الَّتِي تَقُومُ بِهَا حُجَّتُهُمْ عَلَى أُمَمِهِمْ كَمَا فِي الْحَدِيثِ «الصَّحِيحِ»: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِي إِلا وَقَدْ أُعْطِي مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

قَالَ تَعَالَى: **{أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}**(٢). وَقَالَ: **{فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ}**(٣). **{قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ}**(٤). **{فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ}**(٥).

فَاللهُ أَيَّدَ رُسُلَهُ بِالْآيَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى صِدْقِهِمْ وَالَّتِي يَحْصُلُ بِهَا الْعِلْمُ، وَلَا يَدْفَعُهَا إِلَّا الْمُعَانِدُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا فَلَابُدَّ أَنْ يَخْضَعَ لَهَا.

وَأَكْثَرُ الْمُكَذِّبِينَ لِلرُّسُلِ إِنَّمَا يُكَذِّبُونَهُمْ عِنَادًا وَجَحْدًا لَا لِاعْتِقَادِ كَذِبِهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ }**(٦).

فَفِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ مَعَ طُغْيَانِهِمْ وَكُفْرِهِمْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُمْ مُوقِنُونَ بِصِدْقِ مُوسَى وَصِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ كَمَا قَالَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن- باب كيف نزل الوحي وأول ما نزل (٤٩٨١)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (١٥٢)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة العنكبوت: ٥١.

(٣) سورة البقرة: ٢٣.

(٤) سورة هود: ١٣.

(٥) سورة الطور: ٣٤.

(٦) سورة الأنعام: ٣٣.

سُبْحَانَهُ: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}(١).

الأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: هَلِ الْعَالِمُ بِشَرْعِ اللهِ وَدِينِهِ يَدْخُلُ فِي الْإِرْسَالِ الْعَامِّ؟

الْجَوَابُ: لَا، لَكِنَّهُ مَأْمُورٌ بِالتَّبْلِيغِ وَوَاجِبٌ عَلَيْهِ ذَلِكَ، أَمَّا الْإِرْسَالُ فَلَا يُقَالُ لِلْعَالِمِ أَنَّهُ رَسُولٌ أَوْ مُرْسَلٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ.

السُّؤَالُ: بَعْضُ النَّاسِ يَقُولُونَ : عَرَفْنَا اللهَ بِالْعَقْلِ فَهَلْ هَذَا صَحِيحٌ؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ هَذَا صَحِيحٌ، عَرَفْنَاهُ بِالْعَقْلِ وَالشَّرْعِ، فَاللهُ فَطَرَ الْعِبَادَ عَلَى مَعْرِفَتِهِ وَطَرِيقُ ذَلِكَ النَّظَرُ فِي آيَاتِهِ.

السُّؤَالُ: هَلْ مَشِيئَةُ اللهِ تَابِعَةٌ لِلُطْفِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ}(٢)؟

الْجَوَابُ: الْمَعْنَى أَنَّ اللُّطْفَ تَابِعٌ لِلْمَشِيئَةِ وَلَيْسَتِ الْمَشِيئَةُ تَابِعَةً لِلُّطْفِ.

السُّؤَالُ: مَا وَجْهُ تَشْبِيهِ الْقَدَرِيَّةِ بِمَجُوسِ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟

الْجَوَابُ: لِأَنَّ الْمَجُوسَ يَقُولُونَ بِخَالِقَيْنِ لِلْعَالَمِ، وَمَذْهَبُ الْقَدَرِيَّةِ يَتَضَمَّنُ أَنَّ الْعِبَادَ خَالِقُونَ لِأَفْعَالِهِمْ؛ فَأَثْبَتُوا مَعَ اللهِ خَالِقِينَ بِعَدَدِ النَّاسِ.

السُّؤَالُ: مَا الْأُمُورُ الَّتِي تُعِينُ عَلَى تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَزِيَادَةِ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ؟

الْجَوَابُ: هَذِهِ كَثِيرَةٌ وَمُتَنَوِّعَةٌ: مِنْهَا تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ وَتَدَبُّرُ السُّنَّةِ، وَمُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ وَتَرْكُ كُلِّ مَا يَشْغَلُ الْعَبْدَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ وَعَنْ ذِكْرِهِ، وَالْإِعْرَاضُ عَنِ الْفُضُولِ وَقِرَاءَةُ بَعْضِ الْكُتُبِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ عَنِ الْقُلُوبِ مِثْلُ «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ» لِابْنِ الْقَيِّمِ وَمُفْسِدَاتِ الْقُلُوبِ.

السُّؤَالُ: إِذَا تَصَدَّقَ الْعَبْدُ بِنِيَّةِ دَفْعِ الشَّرِّ عَنْ نَفْسِهِ وَلَمْ يَحْتَسِبِ الْأَجْرَ عِنْدَ اللهِ فَهَلْ يَكُونُ آثِمًا بِهَذِهِ النِّيَّةِ؟

الْجَوَابُ: لَعَلَّهُ يَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ}(٣).

فَلَيْسَ لَهُ ثَوَابٌ، وَعِنْدِي أَنَّهُ يَكُونُ آثِمًا لِأَنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يُرِيدَ الْآخِرَةَ لَا أَنْ يُرِيدَ فَقَطِ الدُّنْيَا.

---

(١) سورة النمل: ١٤.

(٢) سورة يوسف: ١٠٠.

(٣) سورة البقرة: ٢٠٠.

السُّؤَالُ: مَتَى يَكُونُ الِاعْتِمَادُ عَلَى الْأَسْبَابِ شِرْكًا أَصْغَرَ وَمَتَى يَكُونُ شِرْكًا أَكْبَرَ؟

الْجَوَابُ: تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِالسَّبَبِ وَغَفْلَتُهُ عَنِ ارْتِبَاطِ هَذَا السَّبَبِ بِمَشِيئَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، فَهُوَ لَا يُفَكِّرُ إِلَّا فِي هَذَا السَّبَبِ وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ.

وَالْمُسْلِمُ عَقِيدَتُهُ أَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ، لَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ الشُّعُورِ وَالِاسْتِحْضَارِ الْقَلْبِيِّ تَجِدُ قَلْبَهُ مُتَعَلِّقًا بِالسَّبَبِ وَغَافِلًا عَنِ اللهِ فَهُوَ مُتَوَكِّلٌ عَلَى هَذَا السَّبَبِ فَمَعْنَاهُ أَنَّ هَذَا السَّبَبَ هُوَ الَّذِي يُحَقِّقُ لَهُ مَطْلُوبَهُ، وَمَا هِيَ إِلَّا غَفْلَةٌ، أَمَّا إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ هَذَا السَّبَبَ مُسْتَقِلٌّ عَنْ قُدْرَةِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ فَهَذَا هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ.

السُّؤَالُ: هَلْ سُؤَالُ الصَّالِحِينَ الدُّعَاءَ يَتَنَافَى مَعَ دُخُولِ الْجَنَّةِ بِلَا سُؤَالٍ وَلَا حِسَابٍ؟

الْجَوَابُ: إِنَّ الَّذِي يَتَصَدَّقُ عَلَى فَقِيرٍ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الدُّعَاءَ وَإِنَّمَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}**[1]. فَتَتَصَدَّقُ لِمَحْضِ الْقُرْبَى إِلَى اللهِ لَا تَرْجُو مِنْ هَذَا نَفْعًا وَلَا شُكُورًا.

السُّؤَالُ: مَا رَأْيُ فَضِيلَتِكُمْ فِيمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الرَّسُولِ وَالنَّبِيِّ بِأَنَّ النَّبِيَّ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعِ مَنْ قَبْلَهُ أَمَّا الرَّسُولَ فَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ جَدِيدٍ؟

الْجَوَابُ: هَذَا يُمْكِنُ مِنْ حَيْثُ أَنَّ الرَّسُولَ هُوَ الَّذِي يَأْتِي بِشَرِيعَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ فَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى شَرِيعَةِ مُوسَى لَكِنَّهُ جَاءَ بِنَسْخِ بَعْضِ أَحْكَامِ التَّوْرَاةِ: **{وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}**[2].

السُّؤَالُ: هَلْ آدَمُ رَسُولٌ أَمْ نَبِيٌّ؟

الْجَوَابُ: نَبِيٌّ بِالْمَعْنَى الَّذِي تَقَدَّمَ.

السُّؤَالُ: هَلْ تُوصُونَ بِحِفْظِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ أَمْ تُوصُونَ بِغَيْرِهَا؟

الْجَوَابُ: حَفَظُهَا طَيِّبٌ، فَهِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُتُونِ الْمُخْتَصَرَةِ فِي الْعَقِيدَةِ.

---

(١) سورة الإنسان: ٩.

(٢) سورة آل عمران: ٥٠.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

الأَصْلُ الثَّانِي: الإِيمَانُ بِنُبُوَّةِ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ عُمُومًا، وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُصُوصًا وَهَذَا الأَصْلُ مَبْنَاهُ عَلَى أَنْ يَعْتَقِدَ، وَيُؤْمِنَ بِأَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ قَدِ اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِوَحْيِهِ وَإِرْسَالِهِ، وَجَعْلِهِمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي تَبْلِيغِ شَرْعِهِ وَدِينِهِ.

تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ وَهُوَ الْأَصْلُ الرَّابِعُ فِي أُصُولِ الْإِيمَانِ، وَالشَّيْخُ قَدْ أَحْسَنَ فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْأُصُولِ، حَيْثُ ذَكَرَ هَذَا الْأَصْلَ عَلَى إِثْرِ الْأَصْلِ الثَّانِي، وَهَذَا يَتَطَابَقُ مَعَ الشَّهَادَةِ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّتِي حَقِيقَتُهَا تَوْحِيدُ اللهِ بِكُلِّ مَا يَشْمَلُهُ التَّوْحِيدُ وَمَا يَدْخُلُ فِيهِ، وَالْأَصْلُ الثَّانِي الْإِيمَانُ بِالْأَنْبِيَاءِ بِأَنَّ اللهَ قَدِ اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِالْوَحْيِ إِلَيْهِمْ وَتَبْلِيغِ شَرَائِعِهِ، وَيَتَضَمَّنُ ذَلِكَ شَهَادَةَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ.

فَالشَّهَادَتَانِ هُمَا أَصْلُ الدِّينِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمَّا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَهِيَ أَصْلُ دِينِ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ

وَأَمَّا شَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ بِهَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ وَالتَّخْصِيصِ فَهِيَ مِنْ أَصْلِ هَذَا الدِّينِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ.

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ دِينَ الرُّسُلِ يَقُومُ عَلَى هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ؛ فَدِينُ نُوحٍ يَقُومُ عَلَى شَهَادَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ نُوحًا رَسُولُ اللهِ، وَقُلْ ذَلِكَ فِي سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، فَدِينُ اللهِ يَقُومُ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ.

قَالَ الشَّيْخُ :

وَأَنَّ اللهَ أَيَّدَهُمْ بِالبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِهِمْ وَصِحَّةِ مَا جَاءُوا بِهِ، وَأَنَّهُمْ أَكْمَلُ الخَلْقِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَأَصْدَقُهُمْ وَأَبَرُّهُمْ وَأَكْمَلُهُمْ أَخْلَاقًا وَأَعْمَالًا.

الْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ يَتَضَمَّنُ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ: **{وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ}**[1].

{وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}[2].

وَقَدْ جَاءُوا بِالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ الَّتِي تُوجِبُ لِكُلِّ مَنْ أَنْصَفَ تَصْدِيقَهُمْ وَأَنَّ مَا جَاءُوا بِهِ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى.

(١) سورة الحديد: ٢٥.

(٢) سورة فاطر: ٢٥.

وَالْجَانِبُ الثَّانِي الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الِاعْتِقَادُ أَنَّهُمْ أَبَرُّ النَّاسِ وَأَتْقَى النَّاسِ لِأَنَّهُمْ جَاءُوا لِيَكُونُوا أُسْوَةً لِأُمَمِهِمْ، فَهُمْ فِي غَايَةِ الْكَمَالِ الْخَلْقِيِّ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَكْمَلَ مِنْ بَعْضٍ فِي الْجُمْلَةِ، وَأَكْمَلُهُمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ عِلْمًا وَعَمَلًا وَخَلْقًا هُوَ خَاتَمُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}**[1].

قَالَ الشَّيْخُ:

وَأَنَّ اللهَ خَصَّهُمْ بِخَصَائِصَ وَفَضَائِلَ لَا يَلْحَقُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، وَأَنَّ اللهَ بَرَّأَهُمْ مِنْ كُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ.

هَذَا مِنْ تَمَامِ كَمَالِهِمْ فَكَمَا أَنَّ اللهَ أَكْرَمَهُمْ بِإِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ وَتَطْهِيرِهِمْ مِنْ كُلِّ خَلْقٍ رَذِيلٍ أَكْمَلَهُمْ كَذَلِكَ بِكُلِّ خُلُقٍ كَرِيمٍ وَشَرَّفَ نُفُوسَهُمْ بِذَلِكَ.

فَهُمْ مُنَزَّهُونَ عَنْ قَبَائِحِ الْأَعْمَالِ وَسَفَاسِفِ الْأَخْلَاقِ، بَلْ هُمْ فِي الْغَايَةِ فِي عِبَادَةِ اللهِ وَتَقْوَاهُ، وَفِي مُعَامَلَةِ الْخَلْقِ؛ لِأَنَّهُمْ جَاءُوا هُدَاةً، فَهُمْ هُدَاةٌ مَهْدِيُّونَ وَمُهْتَدُونَ، حَتَّى أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}**[2]. فَأَمَرَ اللهُ نَبِيَّهُ بِأَنْ يَقْتَدِيَ بِمَنْ قَبْلَهُ مِنَ النَّبِيِّينَ فِي الْجُمْلَةِ لَا فِي كُلِّ شَرَائِعِهِمْ لِأَنَّ شَرَائِعَهُمْ مُخْتَلِفَةٌ لَكِنْ يَقْتَدِي بِهِمْ فِي تَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَفِي دَعْوَةِ الْخَلْقِ فَقَدْ جَاءَ قَبْلَهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}**[3]. وَهَذَا كُلُّهُ تَابِعٌ لِقِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَمُنَاظَرَتِهِ لِقَوْمِهِ فِي أَمْرِ الشِّرْكِ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى التَّوْحِيدِ: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}**[4].

فَاللهُ طَهَّرَهُمْ مِنَ الرَّذَائِلِ وَزَكَّاهُمْ وَجَبَلَهُمْ عَلَى فَضَائِلِ الْأَخْلَاقِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ فِيمَا يُبَلِّغُونَ عَنِ اللهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ لَا يَسْتَقِرُّ فِي خَبَرِهِمْ وَتَبْلِيغِهِمْ إِلَّا الْحَقُّ وَالصَّوَابُ.

هَذَا مِنْ تَمَامِ الْكَلَامِ الْمُتَقَدِّمِ فَهُمْ مُبَرَّءُونَ مِنَ الْكَذِبِ وَالْخَطَأِ فِيمَا يُبَلِّغُونَهُ عَنِ اللهِ، وَهَذَا الْأَمْرُ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، فَمَا بَلَّغُوهُ عَنِ اللهِ فَهُوَ حَقٌّ لِأَنَّهُمْ أَصْدَقُ النَّاسِ؛ فَهُمْ صَادِقُونَ مَصْدُوقُونَ لِأَنَّ مَا جَاءُوا بِهِ هُوَ خَبَرٌ عَنِ اللهِ،

---

(١) سورة القلم: ٢-٤.

(٢) سورة الأنعام: ٩٠.

(٣) سورة الأنعام: ٨٨.

(٤) سورة الأنعام: ٧٤.

وَاللهُ تَعَالَى أَصْدَقُ الصَّادِقِينَ: {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا}(١) {وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا}(٢).

أَمَّا الذُّنُوبُ فَهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ، أَمَّا الصَّغَائِرُ فَإِنَّهَا تَجُوزُ عَلَيْهِمْ، وَكَذَلِكَ الْخَطَأُ وَالسَّهْوُ، لَكِنَّهُمْ لَا يُقَرُّونَ عَلَى خَطَأٍ، بَلِ اللهُ يَهْدِيهِمْ وَيُسَدِّدُهُمْ.

وَمِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي أَرْشَدَ اللهُ نَبِيَّهُ إِلَى خِلَافِهَا مَا حَدَثَ فِي أَسْرَى بَدْرٍ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(٣). فَإِنَّهُ لَمَّا أَسَرَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْكُفَّارِ سَبْعِينَ اخْتَلَفُوا هَلْ يَقْتُلُونَهُمْ أَوْ يُفَادُونَهُمْ، فَكَانَ مِنْ رَأْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَأْيِ أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُفَادُوهُمْ رَجَاءَ هِدَايَتِهِمْ، أَمَّا عُمَرُ فَكَانَ يَرَى قَتْلَهُمْ، فَعَاتَبَ اللهُ نَبِيَّهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا حَصَلَ، وَلَكِنْ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ ثُمَّ أَحَلَّ لَهُمْ مَا أَخَذُوهُ مِنَ الْفِدَاءِ، وَفِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا}(٤). إِذَنْ كَانَ الْأَمْرُ فِي بِدَايَةِ الْجِهَادِ فَلَا يَحِلُّ الْأَسْرُ بَلْ يَجِبُ الْقَتْلُ حَتَّى تَنْكَسِرَ شَوْكَتُهُمْ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَأَنَّهُ يَجِبُ الإِيمَانُ بِهِمْ وَبِكُلِّ مَا أُوتُوهُ مِنَ اللهِ وَمَحَبَّتُهُمْ وَتَعْظِيمُهُمْ، وَأَنَّ هَذِهِ الأُمُورَ ثَابِتَةٌ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَكْمَلِ الوُجُوهِ.

وَاجِبُنَا تِجَاهَ رُسُلِ اللهِ الْإِيمَانُ بِهِمْ وَالْإِيمَانُ بِفَضْلِهِمْ عَلَى سَائِرِ الْخَلْقِ، وَيَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نُحِبَّهُمْ لِأَنَّ حُبَّهُمْ أَوْجَبَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُبِّ فِي اللهِ؛ لِأَنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ وَدُعَاةُ الْخَيْرِ، فَحُبُّهُمْ مِنْ حُبِّ اللهِ، فَاللهُ يُحِبُّهُمْ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ اللهُ.

وَلِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ أَعْظَمُ نَصِيبٍ، فَيَجِبُ لَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَمَحَبَّتِهِ مَا يَلِيقُ بِمَقَامِهِ الْعَظِيمِ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمُرْسَلُ إِلَيْنَا فَعَلَيْنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ شَرِيعَتَهُ وَنَتَرَسَّمَ خُطَاهُ وَنَأْخُذَ بِسُنَّتِهِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ وَالتَّقْرِيرِيَّةِ كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ

(١) سورة النساء: ٨٧.

(٢) سورة النساء: ٨٨.

(٣) سورة الأنفال: ٦٧-٦٩.

(٤) سورة محمد: ٤.

اللهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ: {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}(١). {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(٢). {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ}(٣).

وَالْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي وُجُوبِ مَحَبَّتِهِ فَوْقَ مَحَبَّةِ الْأَهْلِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ بَلْ وَالنَّفْسِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا: «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»(٤). وَفِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: «ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٥).

وَتَوَعَّدَ اللهُ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ الْمَحْبُوبَاتِ عَلَى مَحَبَّةِ الرَّسُولِ فَقَالَ: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}(٦). هَذَا تَهْدِيدٌ لِمَنْ آثَرَ هَذِهِ الْمَحْبُوبَاتِ عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَوْقَ مَحَبَّتِهِ لِهَذِهِ الْمَحْبُوبَاتِ، وَحِينَئِذٍ فَلَا يُقَدِّمُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْمَحْبُوبَاتِ عَلَى أَمْرِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

عَلَى الرَّغْمِ أَنَّ هَذِهِ الْمَحْبُوبَاتِ مَحَبَّتُهَا طَبِيعِيَّةٌ، فَالْمَحَبَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ لَا حَرَجَ فِيهَا، لَكِنْ لَا يَجُوزُ التَّجَاوُزُ فِي حُبِّ هَذِهِ الْمَحْبُوبَاتِ حَتَّى يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إِلَى تَقْدِيمِ مَحَبَّتِهَا عَلَى مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

فَلِهَذَا آثَرَ الْمُؤْمِنُونَ حُبَّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَنُصْرَةَ اللهِ وَرَسُولِهِ عَلَى الْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَوْطَانِ فَهَجَرُوا أَوْطَانَهُمْ وَفَارَقُوهَا نُصْرَةً للهِ وَرَسُولِهِ: {لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ

---

(١) سورة النور: ٥٦.

(٢) سورة آل عمران: ٣١.

(٣) سورة الأحزاب: ٢١.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب حب الرسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان (١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان (٤٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) سورة التوبة: ٢٤.

وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[1]

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَأَنَّهُ يَجِبُ مَعْرِفَةُ جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الشَّرْعِ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَالإِيمَانُ بِذَلِكَ، وَالْتِزَامُ طَاعَتِهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِتَصْدِيقِ خَبَرِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ.

مِنْ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْرِفَةُ مَا جَاءَ بِهِ.

أَمَّا الْعِلْمُ بِمَا جَاءَ بِهِ تَفْصِيلًا فَهَذَا فَرْضُ كِفَايَةٍ عَلَى الْأُمَّةِ، أَمَّا فَرْضُ الْعَيْنِ فَهُوَ مَا يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ تَعَلُّمُهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُقِيمَ بِهِ دِينَهُ؛ كَالْإِيمَانِ بِفَرْضِ الصَّلَاةِ إِيمَانًا مُجْمَلًا إِذْ يَجِبُ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ، لِأَنَّهُ فَرْضُ عَيْنٍ؛ مِثْلُ الْإِيمَانِ بِوُجُوبِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتَعَلُّمِ أَحْكَامِ الصَّلَاةِ، وَصِفَةِ الصَّلَاةِ وَشُرُوطِ الصَّلَاةِ، وَمَاذَا يَجِبُ فِي الصَّلَاةِ، كَمَا عَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُسِيءَ فِي صَلَاتِهِ.

قَالَ الْعُلَمَاءُ: كُلُّ مَا فِي حَدِيثِ الْمُسِيءِ مِمَّا عَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ فَرْضٌ كُلُّهُ دَاخِلٌ فِي أَرْكَانِ الصَّلَاةِ؛ مِنْ رُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَطُمَأْنِينَةٍ وَقِرَاءَةٍ وَاسْتِقْبَالِ الْقِبْلَةِ: «**إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا**»[2].

أَمَّا الْعِلْمُ بِتَفَاصِيلِ الصَّلَاةِ فَالْعِلْمُ بِهَا مِنْ كَمَالِ الْمَعْرِفَةِ؛ فَلَا يَضُرُّهُ أَنْ يَجْهَلَ أَنَّ هَذَا سُنَّةٌ أَوْ وَاجِبٌ أَوْ رُكْنٌ، الْمُهِمُّ أَنْ يَعْرِفَ وَيَتَعَلَّمَ كَيْفِيَّةَ الصَّلَاةِ وَكَيْفَ فَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا.

وَلِهَذَا فَإِنَّهُ يُكْتَبُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ صِفَةَ الصَّلَاةِ دُونَ أَنْ تُبَيَّنَ لَهُمْ تَفَاصِيلَ أَحْكَامِهَا الَّتِي اسْتَنْبَطَهَا الْفُقَهَاءُ.

وَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْحَجِّ وَغَيْرِهِ.

قَالَ الشَّيْخُ:

وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ قَدْ نَسَخَتْ شَرِيعَتُهُ جَمِيعَ الشَّرَائِعِ، وَأَنَّ نُبُوَّتَهُ وَشَرِيعَتَهُ بَاقِيَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَلَا نَبِيَّ

---

(١) سورة الحشر: ٨.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأذان- باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلاة (٧٥٧)، ومسلم في كتاب الصلاة- باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بَعْدَهُ، وَلَا شَرِيعَةَ غَيْرَ شَرِيعَتِهِ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ.

مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الدِّينِ الَّتِي لَا تَتَحَقَّقُ شَهَادَةُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ إِلَّا بِهَا؛ الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ قَالَ تَعَالَى: **{مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}**(١). وَصَفَهُ بِالرِّسَالَةِ الْمُتَضَمِّنَةِ لِلنُّبُوَّةِ ثُمَّ قَالَ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ**»(٢).

وَأَخْبَرَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَعُلِمَ بِذَلِكَ بُطْلَانُ كُلِّ مُدَّعٍ لِلنُّبُوَّةِ.

هَذَا لَازِمٌ لِإِيمَانِنَا بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَمَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ فَلَا نَنْظُرُ فِي شُبُهَاتِهِ نَظَرَ اسْتِثْبَاتٍ، لَكِنْ نَنْظُرُ فِي شُبُهَاتِهِ لِدَحْضِهَا وَلِفْضِيحَتِهِ وَبَيَانِ فُجُورِهِ وَكَذِبِهِ.

وَالْمُسْلِمُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ إِذَا قِيلَ لَهُ إِنَّ هُنَاكَ شَخْصًا فِي مَكَانِ كَذَا مُدَّعٍ لِلنُّبُوَّةِ. فَإِنَّهُ يَكْفُرُ بِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ كَذَّابٌ لِعِلْمِهِ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتِمُ النَّبِيِّينَ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ.

فَكُلُّ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ أَوْ صَدَّقَ مُدَّعٍ لِلنُّبُوَّةِ فَإِنَّهُ كَافِرٌ وَلَوِ ادَّعَى الْإِسْلَامَ، مِثْلُ الْأَحْمَدِيَّةِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْقَادِيَانِيَّةِ، فَهُمْ يَنْسُبُونَ أَنْفُسَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَدَّعُونَ أَنَّ الْمِرْزَا غُلَامٍ نَبِيٌّ، فَهُمْ كُفَّارٌ مُرْتَدُّونَ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ الْإِيمَانُ بِالْكُتُبِ؛ فَالْإِيمَانُ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْتَضِي الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَلْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا فَلَا يَتِمُّ الْإِيمَانُ بِهِ إِلَّا بِذَلِكَ.

لِأَنَّ الْكُتُبَ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ وَهُمُ الْمُبَلِّغُونَ لَهَا: **{جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ}**(٣).

وَالشَّيْخُ هُنَا يَنُصُّ عَلَى الْأَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْكُتُبِ، فَمِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ الْإِيمَانُ بِالْكُتُبِ الَّتِي أُنْزِلَتْ مَا عَلِمْنَا مِنْهَا وَمَا لَمْ نَعْلَمْ، وَمَا سُمِّيَ لَنَا مِنْهَا نُؤْمِنُ بِهَا كَالتَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ وَصُحُفِ

---

(١) سورة الأحزاب: ٤٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير- باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «نصرت...» (٢٩٧٧)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة آل عمران: ١٨٤.

مُوسَى، وَأَعْظَمُ ذَلِكَ الْقُرْآنُ.

فَمِنَ الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ الْإِيمَانُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنَ الْحِكْمَةِ: **{وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}**[1].

فَالْإِيمَانُ بِالسُّنَّةِ هُوَ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ الْقُرْآنَ أَمَرَ بِالسُّنَّةِ وَأَمَرَ بِطَاعَةِ اللهِ وَالرَّسُولِ وَبِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ وَهَذَا يَتَضَمَّنُ اتِّبَاعَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَكُلُّ مَنْ كَانَ أَعْظَمَ عِلْمًا بِذَلِكَ وَتَصْدِيقًا وَاعْتِرَافًا وَعَمَلًا كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا.

هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى تَفَاضُلِ النَّاسِ فِي عِلْمِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكُلُّ مَنْ كَانَ أَكْمَلَ عِلْمًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَأَكْمَلَ عَمَلًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ كَانَ أَكْمَلَ إِيمَانًا، فَمَدَارُ الْإِيمَانِ عَلَى الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَاسْمُ الْإِيمَانِ شَامِلٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ، فَأَكْمَلُ النَّاسِ عِلْمًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَمَلًا بِمَا جَاءَ بِهِ فَهُوَ أَكْمَلُهُمْ إِيمَانًا.

وَأَكْمَلُ الْأُمَّةِ فِي هَذَا هُمُ الصَّحَابَةُ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ، وَلِهَذَا كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[2].

وَالنَّاسُ بَعْدَ ذَلِكَ يَتَفَاضَلُونَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَاللهُ تَعَالَى يُؤْتِي فَضْلَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَالإِيمَانُ بِالمَلَائِكَةِ، وَالقَدَرِ دَاخِلٌ فِي هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ.

الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْكُتُبِ وَالْقَدَرِ دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ هُمُ الَّذِينَ أَخْبَرُونَا عَنِ الْمَلَائِكَةِ لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ.

---

(١) سورة النساء: ١١٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٣٦٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وَالدَّلِيلُ عَلَى وُجُودِهِمْ سَمْعِيٌّ، فَإِنَّ مِنَ الْقَضَايَا الشَّرْعِيَّةِ أُمُورٌ سَمْعِيَّةٌ فَقَطْ، وَمِنْهَا أُمُورٌ سَمْعِيَّةٌ عَقْلِيَّةٌ أَيْ تَضَافَرَتْ عَلَيْهَا أَدِلَّةُ الشَّرْعِ وَالْعَقْلِ.

وَيَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ -وَخَاصَّةً النَّبِيِّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ.

وَقَدْ بُيِّنَ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ هُوَ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَقَدَّمَ بَيَانُ وَجْهِ ذَلِكَ.

وَهُنَا يَقُولُ إِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ وَالْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَوَجْهُ ذَلِكَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَخْبَرُوا بِأَنَّ اللهَ قَدَرَ كُلَّ شَيْءٍ وَعَلِمَ كُلَّ شَيْءٍ.

وَنُلَاحِظُ أَنَّ هَذِهِ الْأُصُولَ مُتَدَاخِلَةٌ مَعَ بَعْضِهَا وَمُتَرَابِطَةٌ؛ فَيَدْخُلُ فِي الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ الْإِيمَانُ بِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَخْبَرُونَا بِهَا وَهُمُ الَّذِينَ عَرَّفُونَا ذَلِكَ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ رِسَالَةَ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ تَدُورُ عَلَى أَقْسَامِ الْعِلْمِ الثَّلَاثَةِ وَهِيَ:

مَعْرِفَةُ اللهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَالْإِيمَانُ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَدِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ لِعِبَادِهِ، وَالْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّاسَ وَمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ هَذَا الْعِلْمُ وَمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْمُكَلَّفُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ.

فَالْإِيمَانُ بِالرُّسُلِ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ أُصُولِ الْإِيمَانِ.

وَالْإِيمَانُ بِاللهِ يَقْتَضِي الْإِيمَانَ بِبَقِيَّةِ أُصُولِ الْإِيمَانِ، فَاللهُ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرُّسُلَ وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ، وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَمِنْ تَمَامِ الإِيمَانِ بِهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ، أَوْ حِسِّيٌّ عَلَى خِلَافِهِ كَمَا لَا يَقُومُ دَلِيلٌ نَقْلِيٌّ عَلَى خِلَافِهِ فَالأُمُورُ العَقْلِيَّةُ أَوِ الحِسِّيَّةُ النَّافِعَةُ تَجِدُ دَلَالَةَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُثْبِتَةً لَهَا، حَاثَّةً عَلَى تَعَلُّمِهَا وَعَمَلِهَا، وَغَيْرُ النَّافِعِ مِنَ المَذْكُورَاتِ لَيْسَ فِيهَا مَا يَنْفِي وُجُودَهَا، وَإِنْ كَانَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ يَنْفِي وَيَذُمُّ الأُمُورَ الضَّارَّةَ مِنْهَا.

هَذَا يُشْبِهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ وَلَا حِسِّيٌّ عَلَى خِلَافِ مَا أَخْبَرَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا جَاءَ بِهِ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ دَلِيلٌ عَلَى خِلَافِهِ.

بَلِ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ وَالْحِسِّيَّةُ النَّافِعَةُ -يَقُولُ الشَّيْخُ- تَجِدُ دَلَالَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دَاعِيَةً إِلَيْهَا وَحَاثَّةً عَلَيْهَا.

وَالْعِبَارَةُ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْغُمُوضِ، أَيْ أَنَّ أَدِلَّةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تُطَابِقُ مَا تَقْتَضِيهِ الْعُقُولُ وَتُطَابِقُ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْحِسُّ وَالْوَاقِعُ، وَهَذَا يَتَعَلَّقُ بِالنَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي يَذْكُرُونَهَا، فَالْأَدِلَّةُ النَّظَرِيَّةُ يَجِبُ أَنْ يُنْظَرَ فِيهَا فَمَا نَاقَضَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ عَلِمْنَا بُطْلَانَهُ.

وَمَا لَمْ يُعَارِضِ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ فَإِمَّا أَنَّهُ يَجِبُ قَبُولُهُ، وَإِمَّا أَلَّا يُعْلَمَ صِدْقُهُ وَلَا كَذِبُهُ فَيَكُونُ مَوْضِعَ تَوَقُّفٍ، وَهَذَا هُوَ الْعَدْلُ، فَلَا يَجُوزُ رَدُّ الْحَقِّ وَلَا قَبُولُ الْبَاطِلِ، وَلَا يَجُوزُ الْقَوْلُ بِلَا عِلْمٍ، لَا فِي النَّفْيِ وَلَا فِي الْإِثْبَاتِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ تَعَارُضًا بَيْنَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ وَلَا بَيْنَ النَّقْلِ وَالْحِسِّ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ الصَّحِيحَ دَلِيلٌ، وَالْحِسَّ كَذَلِكَ، وَالنَّقْلَ دَلِيلٌ، فَكُلُّهَا أَدِلَّةٌ صَحِيحَةٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهَا تَعَارُضٌ؛ فَكُلُّهَا طُرُقٌ مِنْ طُرُقِ الْعِلْمِ.

فَهُنَاكَ عُلُومٌ عَقْلِيَّةٌ تُعْرَفُ بِالْعَقْلِ، وَأُمُورٌ حِسِّيَّةٌ تُعْرَفُ بِالْحَوَاسِّ الْخَمْسِ، وَعُلُومُ طَرِيقِ الْعِلْمِ بِهَا الْخَبَرُ وَالنَّقْلُ.

فَالْعَقْلُ الصَّحِيحُ لَا يُعَارِضُ النَّقْلَ الصَّرِيحَ وَلَا الْحِسَّ الْمُحَقَّقَ.

وَالشَّيْخُ يَقْصِدُ مِنْ هَذَا أَنَّ أَدِلَّةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تُثْبِتُ الْحَقَائِقَ الْعِلْمِيَّةَ الْعَقْلِيَّةَ وَتُثْبِتُ الْأُمُورَ النَّافِعَةَ وَتُرْشِدُ إِلَيْهَا بَلْ وَتَحُثُّ عَلَيْهَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ»(١).

فَالشَّرِيعَةُ جَاءَتْ بِالْإِرْشَادِ إِلَى الْأُمُورِ النَّافِعَةِ، وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ قَبِلَ أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْبَصِيرَةِ مَا جَاءَتْ بِهِ هَذِهِ الْحَضَارَةُ مِنَ الْأُمُورِ النَّافِعَةِ الْحِسِّيَّةِ، وَقَدْ كَانَتْ فِي الْبِدَايَاتِ مُفَاجَأَةً لِلنَّاسِ وَأَشْكَلَتْ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ عَامَّتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ، لَكِنْ لَمَّا تَبَيَّنَ أَنَّهَا حَقَائِقُ أَصْبَحَ لَابُدَّ مِنْ قَبُولِهَا وَأَنَّهُ لَا يَتَعَارَضُ قَبُولُهَا مَعَ شَيْءٍ مِنْ أَدِلَّةِ الشَّرْعِ -أَعْنِي النَّافِعَ مِنْهَا.

وَمِنْ تِلْكَ الْوَسَائِلِ النَّافِعَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ وَسَائِلُ التَّنَقُّلِ وَوَسَائِلُ الِاتِّصَالِ وَوَسَائِلُ الْإِعْلَامِ.

لَكِنْ قَدْ يَأْتِي الضَّرَرُ مِنْهَا بِسَبَبِ سُوءِ اسْتِخْدَامِهَا فَهِيَ فِي ذَاتِهَا وَسَائِلُ نَافِعَةٌ.

أَمَّا الْكُفَّارُ فَلَا غَرَابَةَ أَنْ يُسِيئُوا اسْتِعْمَالَهَا لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُونَ الدُّنْيَا: **{إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ**

(١) أخرجه مسلم في كتاب القدر- باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة (٢٦٦٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[1]. **{زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}**[2].

وَلَكِنْ الشَّأْنُ فِي الْمُسْلِمِينَ، فَالْكَثِيرُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ انْسَاقُوا وَرَاءَ الْكُفَّارِ وَلَمْ يُحْسِنُوا اسْتِعْمَالَ هَذِهِ الْوَسَائِلِ النَّافِعَةِ فِي ذَاتِهَا وَلَا سِيَّمَا وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ الَّتِي لَهَا الْأَثَرُ الْعَظِيمُ وَالَّتِي تَصِلُ إِلَى الْأَبْعَادِ الْكَثِيرَةِ، وَمِنَ الْمُسْلِمِينَ مَنِ انْتَفَعَ بِهَا فِي أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا.

يَقُولُ الشَّيْخُ :

وَيَدْخُلُ فِي الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ وَسَائِرُ الرُّسُلِ: الأَصْلُ الثَّالِثُ الإِيمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ.

الشَّيْخُ يُرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَيْضًا دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالرُّسُلِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي شَأْنِ الْمَلَائِكَةِ وَالْكُتُبِ.

الأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ: شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا؟

الْجَوَابُ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ أُصُولِيَّةٌ مَعْرُوفَةٌ؛ هَلْ شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا شَرْعٌ لَنَا؟ أَيْ مَا بَلَغَنَا أَنَّهُ فِي شَرِيعَةِ مُوسَى أَوْ عِيسَى أَوْ مَنْ قَبْلَهُمَا هَلْ نَحْنُ مُتَعَبَّدُونَ بِهِ وَأَنَّهُ شَرْعٌ لَنَا؟

هَذِهِ الْقَضِيَّةُ فِيهَا خِلَافٌ وَلِتَوْضِيحِ الْحَقِّ فِيهَا يُقَسِّمُ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

الْأَوَّلُ: مَا دَلَّ شَرْعُنَا عَلَى خِلَافِهِ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ شَرْعِنَا بِلَا خِلَافٍ.

الثَّانِي: مَا دَلَّ شَرْعُنَا أَنَّهُ شَرْعٌ لَنَا، فَهُوَ شَرْعٌ لَنَا بِاتِّفَاقٍ.

الثَّالِثُ: مَا ثَبَتَ فِي شَرْعِنَا أَنَّهُ شَرْعٌ لِمَنْ قَبْلَنَا –وَالْكَلَامُ كُلُّهُ فِيمَا ثَبَتَ فِي شَرْعِنَا أَنَّهُ شَرْعُ مَنْ قَبْلَنَا– وَلَمْ يَأْتِ شَرْعُنَا بِخِلَافِهِ وَلَمْ يَأْتِ بِمَا يُوَافِقُهُ، وَإِنَّمَا جَاءَ شَرْعُنَا بِالْخَبَرِ عَنْهُ أَنَّهُ شَرْعٌ لِمَنْ قَبْلَنَا، فَهَذَا هُوَ مَحَلُّ الْخِلَافِ، وَالصَّوَابُ أَنَّهُ شَرْعٌ لَنَا.

السُّؤَالُ: يُذْكَرُ فِي الْإِيمَانِ بِمَنْ لَمْ نَعْلَمْهُ مِنَ الرُّسُلِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكُتُبِ أَنَّا نُؤْمِنُ بِهِمْ إِجْمَالًا فَمَا تَعْنِي هَذِهِ

(١) سورة يونس: ٧، ٨.

(٢) سورة البقرة: ٢١٢.

الْكَلِمَةُ؟

الْجَوَابُ: الْإِيمَانُ الْعَامُّ بِالْمَلَائِكَةِ أَنَّهُمْ خَلْقٌ غَيْبِيٌّ، هَذَا إِيمَانٌ عَامٌّ دُونَ تَفْصِيلٍ لِأَصْنَافِهِمْ.

فَهُمْ أَصْنَافٌ؛ مِنْهُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِالْوَحْيِ، وَمِنْهُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِالْقَطْرِ، وَمِنْهُمُ الْمُوَكَّلُ بِقَبْضِ الْأَرْوَاحِ، وَمِنْهُمُ الْمُوَكَّلُونَ بِحِفْظِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}**[1]. وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ ذَوَاتِ الْعِبَادِ وَأَنْفُسِهِمْ: **{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ}**[2].

وَمِنَ الْعُلُومِ التَّفْصِيلِيَّةِ الْخَبَرُ عَنْ كَثْرَةِ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى أَنَّ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ لَا يَخْرُجُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

فَالْعَامِيُّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَلَائِكَةَ إِجْمَالًا، وَالْمُتَعَلِّمُ يَعْلَمُ بِالتَّفْصِيلِ مَا لَا يَعْلَمُهُ الْعَامِيُّ.

السُّؤَالُ: قُلْتُمْ إِنَّهُ إِذَا قِيلَ إِنَّ الرَّسُولَ خَاتَمُ الرُّسُلِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي ذَلِكَ شُبْهَةٌ فَمَا هِيَ تِلْكَ الشُّبْهَةُ؟

الْجَوَابُ: الشُّبْهَةُ أَنْ يُقَالَ إِنَّهُ يُوجَدُ بَعْدَ الرَّسُولِ أَنْبِيَاءُ وَلَيْسَ هُنَاكَ رُسُلٌ

مِثْلُ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَ بَعْدَ مُوسَى أَنْبِيَاءُ وَلَا نَعْلَمُ أَنَّهُ جَاءَ بَعْدَهُ رَسُولٌ إِلَّا الْمَسِيحُ، لَكِنْ مَا بَيْنَهُمَا يُقَالُ لَهُمْ أَنْبِيَاءُ.

وَتَقَدَّمَ الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ بِالْمَعْنَى الْخَاصِّ، فَلَوْ جَاءَتِ الْآيَةُ: وَخَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ. لَكَانَ هُنَاكَ شُبْهَةٌ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ الرُّسُلِ وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَهُ أَنْبِيَاءُ.

السُّؤَالُ: أَصَحِيحٌ مَا يُقَالُ بِأَنَّ عَامَّةَ أَهْلِ السُّنَّةِ أَوْ عَامَّةَ النَّاسِ هُمْ أَشَاعِرَةٌ؟

الْجَوَابُ: هَذَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ مَدَى النَّاسِ فِي عَقَائِدِهِمْ، وَأَنَا لَا أَقُولُ بِهَذَا، لَكِنْ يَدَّعِي بَعْضُ الْأَشَاعِرَةِ أَنَّ الْأَشَاعِرَةَ هُمُ الْأَكْثَرُ، وَقَدْ يَصِحُّ هَذَا فِي الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْعِلْمِ، لَكِنَّهُ لَا يَصِحُّ فِي عَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ، فَهَلْ عَامَّةُ الْمُسْلِمِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ فِي السَّمَاءِ، بَلْ عَامَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْفِطْرَةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ وَأَنَّهُ مُسْتَوٍ عَلَى الْعَرْشِ لَيْسَ عِنْدَهُمْ تِلْكَ الْفَلْسَفَاتُ وَالْأَقْوَالُ الْمُبْتَدَعَةُ وَلَا يَتَصَوَّرُنَهَا.

وَلَوْ وُصِفَ لَهُمُ الْمَذْهَبُ الْأَشْعَرِيُّ لَنَفَرَتْ مِنْهُ عُقُولُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَفِطَرُهُمْ.

---

(١) سورة الانفطار: ١٠، ١١، ١٢.

(٢) سورة الرعد: ١١.

السُّؤَالُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْكُفْرِ الْأَصْغَرِ وَالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ؟

الْجَوَابُ: كُلٌّ مِنْهُمَا لَا يُوجِبُ الْكُفْرَ وَالرِّدَّةَ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَالْكُفْرُ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ أَعَمَّ، مِثْلُ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ**»(١).

السُّؤَالُ: يَسْتَدِلُّ شَخْصٌ عَلَى عَدَمِ جَوَازِ خُرُوجِ الدُّعَاةِ إِلَى دُوَلِ الْغَرْبِ لِلدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ**»(٢). فَهَلْ هَذَا صَحِيحٌ؟

الْجَوَابُ: إِذَا صَحَّتِ النِّيَّاتُ وَكَانَتْ هُنَاكَ جُهُودٌ صَادِقَةٌ وَلَيْسَ مُجَرَّدَ تَذَرُّعٍ بِاسْمِ الدَّعْوَةِ، إِذْ كَيْفَ يُمْكِنُ دَعْوَتُهُمْ إِلَّا بِالذَّهَابِ إِلَيْهِمْ فَالرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَغْشَى مَجَامِعَ الْكُفَّارِ لِأَجْلِ دَعْوَتِهِمْ فِي أَوَّلِ بَعْثَتِهِ لَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يَسْتَقِرَّ هُنَاكَ فَلْيَذْهَبْ فِي فَتَرَاتٍ وَلَا يَسْتَوْطِنْ هُنَاكَ وَلَا يُعَايِشْهُمْ لِأَنَّهُمْ كُفَّارٌ. ثُمَّ إِنِّي أَتَصَوَّرُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا يَقُومُونَ بِهِ هُنَاكَ فِي مَجَالِ الدَّعْوَةِ هِيَ دَعْوَةُ الْمُسْلِمِينَ لِلِاسْتِقَامَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ. وَدُوَلُ الْكُفْرِ لَا تَقْبَلُ الدَّعْوَةَ وَلَا سِيَّمَا دُوَلِ الْغَرْبِ الْكَافِرِ لَا يَقْبَلُونَ الدَّعْوَةَ هَذَا فِي الْجُمْلَةِ وَقَدْ تَكُونُ الدُّوَلُ الْإِفْرِيقِيَّةُ أَكْثَرَ اسْتِجَابَةً لِلدَّعْوَةِ وَلِذَلِكَ كَانَتْ مَرْتَعًا لِلنَّصَارَى.

السُّؤَالُ: مَا هِيَ أَنْوَاعُ الْعُلُوِّ لله مَعَ ذِكْرِ أَدِلَّةِ كُلِّ نَوْعٍ؟

الْجَوَابُ: الْعُلُوُّ ثَلَاثَةٌ: عُلُوُّ الذَّاتِ، وَعُلُوُّ الْقَدْرِ، وَعُلُوُّ الْقَهْرِ.

وَالنِّزَاعُ كُلُّهُ فِي عُلُوِّ الذَّاتِ.

وَالْأَدِلَّةُ قَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}**(٣). فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنْوَاعِ الْعُلُوِّ الثَّلَاثَةِ، فَهُوَ الْعَلِيُّ ذَاتًا وَقَدْرًا وَقَهْرًا. وَهُنَاكَ أَدِلَّةٌ هِيَ أَخَصُّ بِعُلُوِّ الذَّاتِ مِثْلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: **{أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}**(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر (٤٨)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان قول النبس صلى الله عليه وسلم سباب المسلم فسوق (٦٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد- باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود (٢٦٤٥)، والترمذي في كتاب السير- باب ما جاء في كراهية المقام بين أظهر المشركين (١٦٠٤)، من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٦١).

(٣) سورة البقرة: ٢٥٥.

(٤) سورة الملك: ١٦.

{ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}[1]. أَيْ أَأَمِنْتُمُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ. يَقُولُ الْمُؤَوِّلُونَ فِي ذَلِكَ أَقْوَالًا عَجِيبَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: مَنْ فِي السَّمَاءِ هُمُ الْمَلَائِكَةُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هَذَا خِطَابٌ جَاءَ حَسَبَ اعْتِقَادِ الْعَرَبِ فَجَاءَ الْخِطَابُ بِمُرَاعَاةِ تَصَوُّرِهِمْ وَهُوَ أَنَّهُمْ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّ اللهَ فِي السَّمَاءِ.

أَمَّا عُلُوُّ الْقَهْرِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: **{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ}**[2]. **{وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}**[3]. وَاسْمُهُ الْعَزِيزُ يَتَضَمَّنُ عُلُوَّ الْقَهْرِ وَمَعْنَاهُ الْغَالِبُ لِكُلِّ شَيْءٍ.

السُّؤَالُ: مَا هُوَ نَهْجُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صِيَامِ شَعْبَانَ؟

الْجَوَابُ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ أَوْ غَالِبَهُ.

(١) سورة الأعراف: ٥٤.

(٢) سورة الأنعام: ١٨.

(٣) سورة إبراهيم: ١٦.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَمِنْ تَمَامِ الإِيمَانِ بِهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ حَقٌّ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُومَ دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ، أَوْ حِسِّيٌّ عَلَى خِلَافِهِ كَمَا لَا يَقُومُ دَلِيلٌ نَقْلِيٌّ عَلَى خِلَافِهِ.

سَبَقَ أَنْ بَيَّنَّا أَنَّ مَعْنَى هَذَا: أَنَّ النَّقْلَ الصَّحِيحَ الَّذِي جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَلَا الْحِسِّيَّةِ؛ لِأَنَّ الدَّلَائِلَ الْعَقْلِيَّةَ صَرِيحَةٌ، وَلِأَنَّ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْحِسُّ هُوَ مِنَ الْأُمُورِ الضَّرُورِيَّةِ، وَلِأَنَّ النَّقْلَ الصَّحِيحَ أَيْضًا يُفِيدُ ذَلِكَ، وَلِذَا فَلَا يَتَعَارَضُ النَّقْلُ مَعَ الْعَقْلِ وَالْحِسِّ. وَبَيَّنْتُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ مَصَادِرُ الْعِلْمِ.

فَمِثَالُ الْأُمُورِ الْعَقْلِيَّةِ: الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُدْرَكُ بِالْفِكْرِ وَالتَّفَكُّرِ، وَاللهُ جَعَلَ فِي عُقُولِ الْعِبَادِ قَضَايَا فِطْرِيَّةٍ لَا تُتَلَقَّى بِالتَّعْلِيمِ مِثْلُ قَوْلِنَا: إِنَّ الْفِعْلَ يَسْتَلْزِمُ فَاعِلًا. هَكَذَا بِدُونِ تَعْلِيلٍ، وَقَرَّبَ الْعُلَمَاءُ هَذَا بِأَنَّ الطِّفْلَ لَوْ ضُرِبَ مِنْ خَلْفِهِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ خَلْفَهُ لِيَنْظُرَ الضَّارِبَ فَلَابُدَّ مِنْ فَاعِلٍ، لِأَنَّ هَذَا أَمْرٌ فِطْرِيٌّ.

وَمِنَ الْأُمُورِ الْعَقْلِيَّةِ -أَوِ الْفِطْرِيَّةِ- كَذَلِكَ أَنَّ الْكُلَّ أَكْبَرُ مِنَ الْجُزْءِ، هَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَلْقِينٍ أَوْ تَعْلِيمٍ.

وَكَذَلِكَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ الْمُعَيَّنُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فِي مَكَانَيْنِ فِي آنٍ وَاحِدٍ، هَذَا أَمْرٌ فِطْرِيٌّ.

أَمَّا الْأَدِلَّةُ الْحِسِّيَّةُ فَمِثَالُهَا: الشَّمْسُ، نُدْرِكُ طُلُوعَهَا بِالْحِسِّ وَالْمُشَاهَدَةِ بِالْبَصَرِ، وَهَكَذَا الْحَوَّاسُ الَّتِي رَكَّبَهَا اللهُ فِي الْإِنْسَانِ يُدْرِكُ بِهَا مَا حَوْلَهُ.

وَجَحْدُ الْحِسِّ وَالضَّرُورِيَّاتِ هَذَا مِنَ الْمُكَابَرَةِ وَالسَّفْسَطَةِ.

الْمَقْصُودُ: أَنَّهُ لَا تَتَعَارَضُ الدَّلَائِلُ النَّقْلِيَّةُ وَالْحِسِّيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

فَالأُمُورُ العَقْلِيَّةُ أَوِ الحِسِّيَّةُ النَّافِعَةُ.

فَقَيَّدَهَا بِأَنَّهَا نَافِعَةٌ؛ فَالْأُمُورُ الْعَقْلِيَّةُ النَّافِعَةُ هِيَ الْعَقْلِيَّاتُ الصَّحِيحَةُ وَنَتَائِجُ الْعُقُولِ الْمُفِيدَةُ؛ لِأَنَّ الْعُقُولَ وَالْمَحْسُوسَاتِ النَّافِعَةَ جَاءَ الشَّرْعُ بِإِثْبَاتِهَا وَتَوْكِيدِهَا.

وَكَأَنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ تَتَضَمَّنُ تَأْكِيدًا لِلْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

تَجِدُ دَلَالَةَ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مُثْبِتَةً لَهَا، حَاثَّةً عَلَى تَعَلُّمِهَا وَعَمَلِهَا.

أَيْ تَجِدُ أَيُّهَا الطَّالِبُ أَوْ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ أَوْ أَيُّهَا الْبَاحِثُ دَلَالَةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تُثْبِتُهَا؛ فَهِيَ إِمَّا أَنْ تَدُلَّ عَلَيْهَا وَتُرْشِدَ إِلَيْهَا، أَوْ أَنَّهَا لَا تُنَاقِضُهَا وَلَا تَنْفِيهَا.

حَاثَّةٌ عَلَى تَعَلُّمِهَا وَعَمَلِهَا: أَيْ أَنَّ الْأَدِلَّةَ الشَّرْعِيَّةَ حَاثَّةٌ عَلَى الْأُمُورِ النَّافِعَةِ مِنَ الْعُلُومِ النَّافِعَةِ الصَّحِيحَةِ وَمِنَ الْأَعْمَالِ أَيِ الْحِسِّيَّاتِ النَّافِعَةِ.

قَالَ:

وَغَيْرُ النَّافِعِ مِنَ الْمَذْكُورَاتِ لَيْسَ فِيهَا مَا يَنْفِي وُجُودَهَا.

أَيْ غَيْرُ النَّافِعِ مِنَ الْعَقْلِيَّاتِ وَالْحِسِّيَّاتِ لَيْسَ فِي دَلَالَةِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى التَّرْغِيبِ فِيهَا أَوِ الْإِرْشَادِ إِلَيْهَا؛ فَغَيْرُ النَّافِعِ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْعُلُومِ لَا يَنْبَغِي وُجُودُهَا.

وَالْأَصْلَحُ أَنْ نَقُولَ: لَيْسَ فِيهَا مَا يَنْبَغِي وُجُودُهُ. لِأَنَّ الضَّمِيرَ إِلَى الْمَوْصُولِ بِاللَّفْظِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْأُمُورَ الَّتِي لَا تَنْفَعُ لَا يَنْبَغِي وُجُودُهَا بَلْ كُلُّهَا يَنْبَغِي اجْتِنَابُهَا وَتَرْكُهَا.

قَالَ:

وَإِنْ كَانَ الدَّلِيلُ الشَّرْعِيُّ يَنْهَى وَيَذُمُّ الْأُمُورَ الضَّارَّةَ مِنْهَا.

الْآنَ صَارَتِ الْأُمُورُ ثَلَاثَةً:

أُمُورٌ نَافِعَةٌ، تُرَغِّبُ فِيهَا الشَّرِيعَةُ وَتَدْعُو إِلَيْهَا.

وَأُمُورٌ ضَارَّةٌ، تَنْهَى عَنْهَا الشَّرِيعَةُ لِأَنَّ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ جَاءَتْ بِالنَّهْيِ عَنْ كُلِّ مَا يَضُرُّ.

وَأُمُورٌ غَيْرُ نَافِعَةٍ وَغَيْرُ ضَارَّةٍ –وَتُسَمَّى الْفُضُولَ– وَهَذِهِ لَيْسَ فِيهَا مَا يَنْبَغِي وُجُودُهُ، وَالشَّرِيعَةُ لَا تُحَرِّمُهَا، فَتَكُونُ بَيْنَ بَيْنَ.

فَالْعِبَارَةُ تَضَمَّنَتْ حُكْمَ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَدْخُلُ فِي الإِيمَانِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ وَسَائِرُ الرُّسُلِ: الأَصْلُ الثَّالِثُ الإِيمَانُ بِاليَوْمِ الآخِرِ، فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ فَإِنَّهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ، كَأَحْوَالِ البَرْزَخِ، وَأَحْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالشَّفَاعَةِ وَالمِيزَانِ وَالصُّحُفِ المَأْخُوذَةِ بِاليَمِينِ وَالشِّمَالِ،

وَالصِّرَاطِ وَأَحْوَالِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَحْوَالِ أَهْلِهَا وَأَنْوَاعِ مَا أَعَدَّ اللهُ فِيهَا لِأَهْلِهَا إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا فَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ.

الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الْأَصْلُ الْخَامِسُ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ.

وَالْيَوْمُ الْآخِرُ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، هُوَ السَّاعَةُ، وَقَدْ تَعَدَّدَتْ أَسْمَاؤُهُ فِي الْقُرْآنِ وَتَكَرَّرَ ذِكْرُهُ كَثِيرًا فِي مَقَامِ ذِكْرِ أُصُولِ الْإِيمَانِ وَفِي الْكَلَامِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَنِ الْمُنَافِقِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ}**[1]. وَقَالَ: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ}**[2].

فَهُوَ يَوْمُ الْحِسَابِ ، وَيَوْمُ النُّشُورِ، وَيَوْمُ الْبَعْثِ.

أَمَّا تَسْمِيَتُهُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَفِيهِ خُصُوصِيَّةٌ لِلْوَقْتِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْحِسَابُ وَالْوَقْتُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْبَعْثُ.

وَتَسْمِيَتُهُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ أَوْسَعُ فِي مَدْلُولِهِ مِنْ سَائِرِ الْأَسْمَاءِ.

وَلِهَذَا قَالَ الشَّيْخُ: **فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ فَإِنَّهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ.**

وَهَذَا الْمَعْنَى ذَكَرَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ».

وَقَدْ سَرَدَ الشَّيْخُ هُنَا الْأُمُورَ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ: مِنْهَا مَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَهَذَا يَتَضَمَّنُ أَحْوَالَ الْبَرْزَخِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِ الْقَبْرِ، كَمَا قَالَ: **كَأَحْوَالِ البَرْزَخِ.**

وَالْبَرْزَخُ: هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ، فَمَا بَيْنَ الْمَوْتِ إِلَى قِيَامِ الْقِيَامَةِ هَذَا يُسَمَّى الْبَرْزَخَ، أَيِ الْفَتْرَةُ مَا بَعْدَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

قَالَ تَعَالَى: **{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}**[3].

فَالدُّورُ ثَلَاثَةٌ:

---

(١) سورة البقرة: ٨.

(٢) سورة البقرة: ٢٦٤.

(٣) سورة المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.

دَارُ الدُّنْيَا: وَهَذِهِ دَارُ الِابْتِلَاءِ، دَارُ الْعَمَلِ، دَارُ الِامْتِحَانِ.

فَكُلُّ مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ الْإِنْسَانُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا هُوَ مِنَ الِابْتِلَاءِ قَالَ تَعَالَى: **{الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}**(١). وَقَالَ: **{كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}**(٢). وَقَالَ: **{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}**(٣).

ثُمَّ دَارُ الْبَرْزَخِ: وَهِيَ مِنْ دَارِ الْجَزَاءِ، أَيْ مِنَ الدَّارِ الْآخِرَةِ وَمِنَ الْيَوْمِ الْآخِرِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْتَقِلُ مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَى حَالٍ أُخْرَى، وَالنَّاسُ فِي هَذِهِ الدَّارِ بَيْنَهُمْ مِنَ التَّفَاوُتِ فِي أَحْوَالِهِمْ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

وَأَحْوَالُ الْبَرْزَخِ مِنَ الْغَيْبِ لِذَا فَالْإِيمَانُ بِأَحْوَالِ الْبَرْزَخِ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِ الْقَبْرِ دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ.

وَقَدْ يُكْشَفُ لِبَعْضِ النَّاسِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الْقُبُورِ كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ وَالْقِصَصِ الَّتِي تَدُلُّ بِمَجْمُوعِهَا عَلَى أَنَّ هَذَا مَوْجُودٌ.

أَمَّا فِتْنَةُ الْقَبْرِ وَعَذَابُهُ فَلِهَذَا أَدِلَّةٌ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

قَالَ تَعَالَى: **{يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ}**(٤). وَقَالَ: **{وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}**(٥).

وَاسْتَفَاضَتِ الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي فِتْنَةِ الْقَبْرِ فَقَالَ عَنِ الْمُؤْمِنِ: «**فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ دِينِي الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هُوَ رَسُولُ اللهِ . فَيَقُولَانِ لَهُ وَمَا عِلْمُكَ فَيَقُولُ قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيُنَادِي مُنَادٍ**

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) سورة الأنبياء: ٣٥.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٥.

(٤) سورة إبراهيم: ٢٧.

(٥) سورة السجدة: ٢١.

فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ»[1]. وقال عن المنافق أو الكافر: «فَيَقُولاَنِ لَهُ مَنْ رَبُّكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي.

فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا دِينُكَ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي. فَيَقُولاَنِ لَهُ مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ فَيَقُولُ هَاهْ هَاهْ لاَ أَدْرِي. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ وَافْتَحُوا لَهُ بَاباً إِلَى النَّارِ فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلاَعُهُ»[2].

وَهَذَا تَحْقِيقٌ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ}[3].

وَجَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ يُقَالُ لَهُ: «انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ فِي النَّارِ قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ مَقْعَدًا فِي الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»[4]. وَبَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ يَبْقَى الْمَيِّتُ إِمَّا فِي نَعِيمٍ وَإِمَّا فِي عَذَابٍ إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى الَّتِي أَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ -كَمَا يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ- فَجَمِيعُ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَجْمَعَتْ عَلَى عَقِيدَةِ الْبَعْثِ مِنَ الْقُبُورِ بَلْ أَجْمَعَ عَلَيْهَا الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى.

قَالَ تَعَالَى: {أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[5]. وَقَالَ: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[6].

وَجَاءَتْ سُوَرٌ فِي الْقُرْآنِ بِكَامِلِهَا فِي الْحَدِيثِ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة- باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣)، والنسائي في كتاب الجنائز- باب الوقوف للجنائز (٢٠٠١)، وابن ماجه في كتاب ما جاء في الجنائز- باب ما جاء في الجلوس في المقابر (١٥٤٩)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٣١).

(٢) ما قبله.

(٣) سورة إبراهيم: ٢٧.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز- باب ما جاء في عذاب القبر (١٣٧٤) واللفظ له، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه (٢٨٧٠)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) سورة المطففين: ٤-٦.

(٦) سورة المؤمنون: ١٥، ١٦.

وَمِنْ أَحْدَاثِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ:

أَنَّ النَّاسَ يَأْتُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: {كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}(١). فَيَعُودُ النَّاسُ كَمَا كَانُوا عَلَيْهِ، لَكِنَّ النَّاسَ لَنْ يُبْعَثُوا عَلَى هَيْئَاتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا فِي الدُّنْيَا، بَلْ يُبْعَثُونَ فِي نَشْأَةٍ جَدِيدَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تُنَاسِبُ أَمْرَ الْآخِرَةِ وَأَمْرَ الْجَزَاءِ فِي الْجَنَّةِ وَالنَّارِ؛ فَفِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ أَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيَعْظُمُ جِسْمُهُ جِدًّا.

وَلَا يَجِبُ أَنْ نَتَصَوَّرَهَا فِي الْوَاقِعِ لَكِنْ نَعْلَمُ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ.

وَمِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: وَزْنُ الْأَعْمَالِ وَنَشْرُ الصُّحُفِ قَالَ تَعَالَى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}(٢). وَقَالَ سُبْحَانَهُ: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ}(٣). فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ وَآخِذٌ بِشِمَالِهِ وَآخِذٌ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ.

وَكَذَلِكَ وَزْنُ الْأَعْمَالِ قَالَ تَعَالَى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}(٤). وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}(٥).

وَفِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ»(٦).

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٤.

(٢) سورة الانشقاق: ٧، ٨.

(٣) سورة الحاقة: ١٩-٢٤.

(٤) سورة الأنبياء: ٤٧.

(٥) سورة المؤمنون: ١٠١-١٠٤.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٤٢، ٤٤٦)، وأبو داود في كتاب الأدب- باب في حسن الخلق (٤٧٩٩)، والترمذي في كتاب البر والصلة- باب ما جاء في حسن الخلق (٢٠٠٢)، وقال: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٦٤)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣٩٠).

وَقَالَ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**»(١).

وَمِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : الصِّرَاطُ الَّذِي هُوَ جِسْرٌ يُنْصَبُ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ يَسِيرُ عَلَيْهِ النَّاسُ، وَظَاهِرُ الْأَدِلَّةِ أَنَّ الَّذِينَ يَمُرُّونَ عَلَيْهِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُنَافِقُونَ، أَمَّا الْكُفَّارُ فَإِنَّهُمْ يُسَاقُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَيُقَالُ: لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ.

وَيَسِيرُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ وَيُعْطَوْنَ قَبْلَ ذَلِكَ نُورًا يَسِيرُونَ بِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}**(٢).

وَيَسِيرُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ حَسَبَ سَيْرِهِمْ عَلَى الصِّرَاطِ الْمَعْنَوِيِّ فِي الدُّنْيَا وَاسْتِقَامَتِهِمْ عَلَى شَرْعِ اللهِ تَعَالَى؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ عَلَى الصِّرَاطِ كَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي يَعْدُو وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي مَشْيًا وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ وَفِي الْحَدِيثِ: «**يُوضَعُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ عَلَى حَسَكٍ كَحَسَكِ السَّعْدَانِ ثُمَّ يَسْتَجِيزُ النَّاسُ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَمَخْدُوجٌ بِهِ ثُمَّ نَاجٍ وَمُحْتَبَسٌ بِهِ وَمَنْكُوسٌ فِيهَا**»(٣).

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَيُصَدُّونَ عَنِ السَّيْرِ وَيَنْقَطِعُ مَا مَعَهُمْ مِنْ نُورٍ وَيَصِيرُونَ إِلَى مَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

وَمِمَّا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الشَّفَاعَةُ، وَمِنْهَا الشَّفَاعَةُ الْكُبْرَى الَّتِي تَكُونُ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّتِي اسْتَفَاضَتْ بِهَا كُتُبُ السُّنَّةِ، تِلْكَ هِيَ الشَّفَاعَةُ الْكُبْرَى وَتُعْرَفُ بِالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَمِنْهَا شَفَاعَتُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَدْخُلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات- باب فضل التسبيح (٦٤٠٦)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء- باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء (٢٦٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سورة الحديد: ١٢، ١٣.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} (٧٤٣٩)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَلَهُ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَهِيَ شَفَاعَتُهُ فِيمَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ فَيُشَفَّعُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعَ شَفَاعَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللهُ بِشَفَاعَتِهِ مَا شَاءَ مِنْ عُصَاةِ هَذِهِ الْأُمَّةِ.

وَأَيْضًا هُنَاكَ شَفَاعَةُ الْمَلَائِكَةِ، وَشَفَاعَةُ الْمُؤْمِنِينَ، كُلٌّ بِقَدْرِ مَا قَدَّرَ اللهُ لَهُ وَبِقَدْرِ مَنْزِلَتِهِ.

وَيُخْرِجُ اللهُ أَقْوَامًا مِنَ النَّارِ بِغَيْرِ شَفَاعَةِ أَحَدٍ، وَالْفَضْلُ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَهُوَ الَّذِي يَأْذَنُ بِالشَّفَاعَةِ لِمَنْ شَاءَ فَالْأَمْرُ كُلُّهُ لَهُ وَإِلَيْهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَأَعْظَمُ مَا يَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْجَنَّةُ وَالنَّارُ الَّتِي هِيَ الْمَصِيرُ وَالْمَقَرُّ الْأَخِيرُ، لَا كَمَا يَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ: انْتَقَلَ إِلَى مَثْوَاهُ الْأَخِيرِ. إِذَا دَفَنُوا الْمَيِّتَ، هَذَا لَيْسَ صَحِيحًا لَكِنْ دَارُ الْقَرَارِ هِيَ الْجَنَّةُ أَوِ النَّارُ.

وَالشَّيْخُ هُنَا اخْتَصَرَ هَذَا الْأَصْلَ اخْتِصَارًا فَكَانَ كَمَا قَالَ كَالْفِهْرِسْتِ.

يَقُولُ:

فَكُلُّ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ المَوْتِ فَإِنَّهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ كَأَحْوَالِ البَرْزَخِ، وَأَحْوَالِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالشَّفَاعَةِ وَالمِيزَانِ وَالصُّحُفِ المَأْخُوذَةِ بِاليَمِينِ وَالشِّمَالِ، وَالصِّرَاطِ، وَأَحْوَالِ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَحْوَالِ أَهْلِهَا وَأَنْوَاعِ مَا أَعَدَّ اللهُ فِيهَا لِأَهْلِهَا إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا فَكُلُّ ذَلِكَ دَاخِلٌ فِي الإِيمَانِ بِاليَوْمِ الآخِرِ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ -وَلله الْحَمْدُ- يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أُمُورِ الْآخِرَةِ، لَكِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدَعِ مِنْهُمْ مَنْ يُنْكِرُ الْمِيزَانَ أَوْ يُنْكِرُ الْحَوْضَ أَوْ يُنْكِرُ الصِّرَاطَ أَوْ يُنْكِرُ الشَّفَاعَةَ.

فَالْمُعْتَزِلَةُ يُنْكِرُونَ الشَّفَاعَةَ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ؛ لِأَنَّ أَصْلَهُمْ أَنَّ أَهْلَ الْكَبَائِرِ مُخَلَّدُونَ فِي النَّارِ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّ كُلَّ مَنْ دَخَلَ النَّارَ فَلَا يَخْرُجُ مِنْهَا، وَهُمْ بِذَلِكَ قَدْ خَالَفُوا أَدِلَّةَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

الأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: مَا مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «**مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ**»(١)؟

الْجَوَابُ: الْمُنَاقَشَةُ فِيهَا تَوْبِيخٌ وَتَقْرِيعٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:{**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**}(٢). هَذَا تَوْبِيخٌ لَهُمْ. وَهَذَا شَيْءٌ مِنَ التَّصَوُّرِ أَمَّا حَقِيقَةُ تِلْكَ الْمُنَاقَشَةِ فَأَمْرُهَا كَسَائِرِ الْغَيْبِيَّاتِ.

السُّؤَالُ: النَّاسُ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا هِيَ بِالتَّفْصِيلِ؟

الْجَوَابُ:مِنْ أَيْنَ لَكَ أَنَّ النَّاسَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ ؟! الْمُؤْمِنُونَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ عَلَى حَدِّ عِبَارَةِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ(٣) يَرَوْنَهُ وَيَسْجُدُونَ لَهُ وَتَقَرُّ عُيُونُهُمْ بِرُؤْيَتِهِ

وَيَرَاهُ الْمُنَافِقُونَ وَيُحَالُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السُّجُودِ: {**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ**}(٤).

وَأَمَّا الْكُفَّارُ فَفِي رُؤْيَتِهِمْ خِلَافٌ، وَالْأَظْهَرُ أَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ لَكِنْ رُؤْيَةً يَتَحَسَّرُونَ بِسَبَبِهَا {**وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**}(٥). مِثْلُ التَّكْلِيمِ فَإِنَّ اللهَ يُكَلِّمُ الْكُفَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَوْبِيخًا: {**وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ**}(٦).

السُّؤَالُ: كَيْفَ نُوَفِّقُ بَيْنَ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَنِ الْإِيمَانِ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وملائكته وكُتُبِه، ورُسُلِه،**

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب من سمع شيئًا فلم يفهمه فراجع فيه حتى يعرفه (١٠٣)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها- باب إثبات الحساب (٢٨٧٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) سورة الأنعام: ٢٢.

(٣) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد ابن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، شيخ الإسلام (تقي الدين أبو العباس) محدث، حافظ، مفسر، فقيه، مجتهد، مشارك في أنواع من العلوم، ولد في حران سنة ٦٦١هـ، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. من مصنفاته الكثيرة: مجموعة فتاويه، السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. (الأعلام للزركلي: ١/ ١٤٤).

(٤) سورة القلم: ٤٢، ٤٣.

(٥) سورة الأنعام: ٣٠.

(٦) سورة القصص: ٦٢.

واليوم الآخرِ ، وتُؤمِنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّه»[1]. وبَيْنَ قَوْلِهِ: **«الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً»**[2]؟

الْجَوَابُ: الْإِيمَانُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ: مَعْنًى خَاصٌّ وَمَعْنًى عَامٌّ؛ فَإِذَا ذُكِرَ الْإِيمَانُ مَعَ الْإِسْلَامِ فُسِّرَ الْإِيمَانُ بِالِاعْتِقَادِ الْقَلْبِيِّ وَهَذَا هُوَ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَذَكَرَ لَهُ أُصُولَ الْإِسْلَامِ الْخَمْسَةِ. ثُمَّ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. فَفُسِّرَ الْإِسْلَامُ بِأُصُولِ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، وَفُسِّرَ الْإِيمَانُ بِأُصُولِ الِاعْتِقَادِ.

أَمَّا حَدِيثُ: **«الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً»**[3]. فَهَذَا إِخْبَارٌ عَمَّا يَشْمَلُهُ اسْمُ الْإِيمَانِ الْعَامِّ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ. قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ.

السُّؤَالُ: هَلْ يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَمْ أَنَّ هَذَا خَاصٌّ بِالْكُفَّارِ؟

الْجَوَابُ: ظَاهِرُ الْقُرْآنِ أَنَّ هَذَا إِنَّمَا جَاءَ فِي حَالِ الْأَشْقِيَاءِ الْكُفَّارِ.

السُّؤَالُ: إِذَا كَانَ الْقَبْرُ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ لِلْمُؤْمِنِ وَحُفْرَةً مِنْ حُفَرِ النِّيرَانِ لِلْكَافِرِ، فَكَيْفَ حَالُ الْمُؤْمِنِ الْمُقَصِّرِ الَّذِي خَلَطَ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا؟

الْجَوَابُ:هَذَا أَمْرُهُ إِلَى اللهِ، وَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ هُوَ ذِكْرُ حَالِ الْمُؤْمِنِ الْمُوقِنِ الَّذِي يَصِيرُ إِلَى النَّعِيمِ، وَحَالِ الْكَافِرِ، أَمَّا مَا بَيْنَ ذَلِكَ فَلَمْ يَرِدْ لَهُ ذِكْرٌ فِي بَابِ فِتْنَةِ الْقَبْرِ.

السُّؤَالُ: هَلِ الْمَوْتَى يَتَزَاوَرُونَ فِي الْقُبُورِ؟

الْجَوَابُ:ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ أَشْيَاءَ مِنْ ذَلِكَ وَاللهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهَا، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْتِقَاءٌ لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: **{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}**[4]. فَيَلْتَقِي الشُّهَدَاءُ يَلْتَقِي اللَّاحِقُ بِالسَّابِقِ مِنْهُمْ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم (٥٠)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب أمور الإيمان (٩)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سورة آل عمران: ١٦٩-١٧١.

السُّؤَالُ: مَنْ هُمُ الَّذِينَ يَشْفَعُ لَهُمُ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

الْجَوَابُ: يَشْفَعُ لِلْمُوَحِّدِينَ مِنْ أُمَّتِهِ.

السُّؤَالُ: مَتَى تَكُونُ مَرْحَلَةُ الْقَنْطَرَةِ؟

الْجَوَابُ: بَعْدَ الصِّرَاطِ، وَقَدْ صَحَّ فِي الْحَدِيثِ: «**يُخْلَصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**»[1].

السُّؤَالُ: مَنْ هُمْ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ؟

الْجَوَابُ: فِي هَذَا كَلَامٌ كَثِيرٌ، وَلَعَلَّ أَقْرَبَ مَا يُقَالُ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ اسْتَوَتْ سَيِّئَاتُهُمْ وَحَسَنَاتُهُمْ فَهُمْ يَبْقَوْنَ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَى الْجَنَّةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {**وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**}[2].

السُّؤَالُ: هَلْ صَحِيحٌ أَنَّ الْمَيِّتَ تَأْتِيهِ أَخْبَارُ أَهْلِهِ كُلَّ جُمُعَةٍ؟

الْجَوَابُ: لَا أَعْرِفُ أَدِلَّةً يُعَوَّلُ عَلَيْهَا فِي ذَلِكَ، وَالْأَصْلُ أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ عَنْ أَحْوَالِ أَهْلِ الدُّنْيَا شَيْئًا، فَالرَّسُولُ نَفْسُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَحْوَالِ أُمَّتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ، لَكِنَّهُ يُبَلَّغُ مِنْ أُمَّتِهِ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ.

السُّؤَالُ: كَيْفَ أُحَقِّقُ شَفَاعَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِي؟

الْجَوَابُ: فِي تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَالِاجْتِهَادِ فِي أَنْ تَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى شَفَاعَةٍ، فَالشَّفَاعَةُ لَيْسَتْ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لِمَنِ اسْتَوْجَبَ الْعَذَابَ أَوْ دَخَلَ النَّارَ، أَمَّا مَنْ أَكْرَمَهُ اللهُ بِكَمَالِ الْإِيمَانِ فِي الدُّنْيَا فَهَذَا لَا يَحْتَاجُ إِلَى الشَّفَاعَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق- باب القصاص يوم القيامة (٦٥٣٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) سورة الأعراف: ٤٦، ٤٧.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

الأَصْلُ الرَّابِعُ : مَسْأَلَةُ الإِيمَانِ؛ فَأَهْلُ السُّنَّةِ يَعْتَقِدُونَ مَا جَاءَ بِهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مِنْ أَنَّ الإِيمَانَ هُوَ تَصْدِيقُ القَلْبِ المُتَضَمِّنِ لِأَعْمَالِ الجَوَارِحِ فَيَقُولُونَ: الإِيمَانُ اعْتِقَادَاتُ القُلُوبِ وَأَعْمَالُهَا، وَأَعْمَالُ الجَوَارِحِ، وَأَقْوَالُ اللِّسَانِ، وَأَنَّهَا كُلَّهَا مِنَ الإِيمَانِ.

مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي اخْتُلِفَ فِيهَا: مُسَمَّى الْإِيمَانِ، أَيْ مَا الْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ الشَّرْعِيِّ؟

هَذَا مَحَلُّ الْخِلَافِ بَيْنَ الْفِرَقِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالْأَقْوَالُ الْمَشْهُورَةُ فِي ذَلِكَ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ، وَالْقَوْلُ الْحَقُّ هُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ اسْمٌ لِكُلِّ شَرَائِعِ الدِّينِ الْقَوْلِيَّةِ وَالْفِعْلِيَّةِ وَالِاعْتِقَادِيَّةِ تَطْبِيقًا لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ**»[1].

فَالصَّلَاةُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالزَّكَاةُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادُ مِنَ الْإِيمَانِ وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْخَوْفُ مِنَ اللهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ مِنَ الْإِيمَانِ.

الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ:

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَيُفَسَّرُ ذَلِكَ بِقَوْلِ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الِاعْتِقَادِ، فَقَوْلُ الْقَلْبِ الِاعْتِقَادُ، وَقَوْلُ اللِّسَانِ وَهُوَ الْكَلَامُ.

وَالِاعْتِقَادُ يَدْخُلُ فِيهِ التَّصْدِيقُ كُلُّهُ وَالْيَقِينُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا دَاخِلٌ فِي قَوْلِ الْقَلْبِ.

الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ التَّصْدِيقُ بِمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ جِبْرِيلَ تَصْدِيقًا جَازِمًا هَذَا كُلُّهُ فِي قَوْلِ الْقَلْبِ.

وَقَوْلُ اللِّسَانِ الْإِقْرَارُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، وَالْإِقْرَارُ بِمَا آمَنَ بِهِ الْقَلْبُ، وَالْعِبَادَاتُ الْقَوْلِيَّةُ كَذَلِكَ دَاخِلَةٌ فِي قَوْلِ اللِّسَانِ مِثْلُ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَأَنْوَاعِ الذِّكْرِ وَأَنْوَاعِ الْكَلَامِ الْمَشْرُوعِ.

وَمِنَ الْإِيمَانِ عَمَلُ الْقَلْبِ وَعَمَلُ الْجَوَارِحِ: فَمِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ الْإِرَادَةُ وَالْمُرَادُ بِهِ إِرَادَةُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَشَرَعَهُ، فَهَذَا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب أمور الإيمان (٩)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان عدد شُعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

دَاخِلٌ فِي الْإِيمَانِ.

وَالْبَاطِلُ وَالْكُفْرُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الْإِيمَانِ أَيْضًا هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ؛ فَالْأَقْوَالُ الْبَاطِلَةُ وَالِاعْتِقَادَاتُ الْبَاطِلَةُ وَالْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ الْبَاطِلَةُ هَذَا كُلُّهُ فُجُورٌ وَكَذِبٌ وَلَيْسَ مِنَ الْإِيمَانِ.

أَمَّا الْإِيمَانُ فَهُوَ تَصْدِيقٌ بِالْحَقِّ وَقَبُولٌ لِلْحَقِّ وَعَمَلٌ بِالْحَقِّ وَأَعْمَالٌ صَالِحَةٌ.

الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ:

وَمِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْإِيمَانِ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؛ فَيَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

أَمَّا الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ فِي الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ فَهَذَا مُشَاهَدٌ لِلْعِيَانِ، وَأَمَّا الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ فِي الْبَاطِنِ فَهَذَا غَيْبٌ.

فَالتَّصْدِيقُ الَّذِي هُوَ مِنْ عَمَلِ الْقَلْبِ دَرَجَاتٌ، وَالْإِنْسَانُ يَعْرِفُ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ وَمِنَ الْوَاقِعِ، فَالتَّصْدِيقُ مَرَاتِبُ.

وَكَذَلِكَ الْيَقِينُ -كَمَا فِي الْقُرْآنِ- وَهُوَ أَيْضًا مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ ثَلَاثُ مَرَاتِبَ: عِلْمُ الْيَقِينِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ، وَعَيْنُ الْيَقِينِ.

فَقَدْ تَكُونُ عَالِمًا بِالشَّيْءِ مُوقِنًا بِهِ عَنْ طَرِيقِ الْخَبَرِ، لَكِنْ إِذَا شَاهَدْتَهُ ارْتَقَيْتَ مِنْ عِلْمِ الْيَقِينِ إِلَى عَيْنِ الْيَقِينِ، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، وَحَقُّ الْيَقِينِ هُوَ مُبَاشَرَةُ الشَّيْءِ.

فَهَذَا تَفَاضُلٌ فِي الِاعْتِقَادِ.

فَهُنَاكَ إِيمَانُ الْأَنْبِيَاءِ، ثُمَّ مَنْ دُونَهُمْ مِنَ الْكُمَّلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ إِيمَانُ مَنْ دُونَهُمْ وَمَنْ دُونَهُمْ، حَتَّى يَكُونَ الْإِيمَانُ مُقَدَّرًا بِمِثْقَالِ بُرٍّ وَمِثْقَالِ ذَرَّةٍ.

فَالْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَكُلَّمَا قَوِيَ الْيَقِينُ وَالتَّصْدِيقُ كُلَّمَا دَفَعَ الشُّبُهَاتِ؛ لِأَنَّ الشُّبُهَاتِ لَا تَجِدُ مَكَانًا إِلَّا فِي الْقُلُوبِ الضَّعِيفَةِ الَّتِي ضَعُفَتْ بِسَبَبِ ضَعْفِ الْإِيمَانِ فِيهَا.

وَكَذَلِكَ أَعْمَالُ الْقُلُوبِ تَتَفَاوَتُ مِثْلُ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ، وَالتَّوَكُّلُ مَرَاتِبُ، وَالْخَوْفُ مَرَاتِبُ.

مَذَاهِبُ الْفِرَقِ الضَّالَّةِ فِي الْإِيمَانِ:

فَالْإِيمَانُ عِنْدَ الْمُرْجِئَةِ هُوَ مُجَرَّدُ مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ لِرَبِّهِ. فَقِيلَ لَهُمْ يَلْزَمُ عَلَى قَوْلِكُمْ هَذَا أَنَّ إِبْلِيسَ مُؤْمِنٌ لِأَنَّهُ يَعْرِفُ

رَبَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[1].

وَالْقَوْلُ الثَّانِي وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْهُ وَهُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ مُجَرَّدُ التَّصْدِيقِ أَيِ التَّصْدِيقُ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهَذَا مُسَمَّى الْإِيمَانِ عِنْدَهُمْ.

أَمَّا الْإِقْرَارُ بِاللِّسَانِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَجْعَلُهُ جُزْءَ الْمُسَمَّى، أَيْ أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ وَإِقْرَارُ اللِّسَانِ، وَهَذَا مَا عَرَّفَ بِهِ الطَّحَاوِيُّ فِي «الْعَقِيدَةِ الطَّحَاوِيَّةِ».

أَمَّا الْكَرَامِيَّةُ فَيَقُولُونَ: إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مُجَرَّدُ النُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ.

فَالْمُنَافِقُ عِنْدَهُمْ مُؤْمِنٌ لَكِنَّهُ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي «التَّدْمُرِيَّةِ» فَخَالَفُوا الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ دُونَ الْحُكْمِ. خَالَفُوا الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ فَسَمَّوا الْمُنَافِقَ مُؤْمِنًا، لَكِنَّهُمْ وَافَقُوا الْجَمَاعَةَ فِي الْحُكْمِ وَهُوَ الْقَوْلُ بِتَخْلِيدِ الْمُنَافِقِ فِي النَّارِ.

وَكُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ لَا شَكَّ أَنَّهَا فَاسِدَةٌ، وَأَقْرَبُهَا هُوَ قَوْلُ الْمُرْجِئَةِ الْفُقَهَاءِ الَّذِي ذَكَرَهُ الطَّحَاوِيُّ وَهُوَ أَنَّ الْإِيمَانَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ وَإِقْرَارُ اللِّسَانِ.

وَكُلُّ الْمُرْجِئَةِ يُخْرِجُونَ الْأَعْمَالَ عَنْ مُسَمَّى الْإِيمَانِ، وَالْحَقُّ كَمَا تَقَدَّمَ وَأَدِلَّتُهُ مَعْرُوفَةٌ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ.

الْفَرْقُ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ:

يَأْتِي لَفْظُ الْإِيمَانِ فِي النُّصُوصِ مُنْفَرِدًا أَحْيَانًا، وَأَحْيَانًا أُخْرَى يَأْتِي مَقْرُونًا بِالْإِسْلَامِ، فَإِذَا ذُكِرَ أَيٌّ مِنْهُمَا مُنْفَرِدًا فَيَدْخُلُ فِيهِ الْآخَرُ؛ أَيْ إِذَا ذُكِرَ لَفْظُ الْإِيمَانِ أَوِ الْمُؤْمِنِينَ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْإِسْلَامُ، وَإِذَا ذُكِرَ لَفْظُ الْإِسْلَامِ أَوِ الْمُسْلِمِينَ فَيَدْخُلُ فِيهِ الْإِيمَانُ.

أَمَّا إِذَا اقْتَرَنَا فَيُرَادُ بِالْإِسْلَامِ حِينَئِذٍ الْأَعْمَالُ الظَّاهِرَةُ، وَيُرَادُ بِالْإِيمَانِ الْأَعْمَالُ الْبَاطِنَةُ، كَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ}[2].

وَفِي قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[3]. يَشْمَلُ

(١) سورة الحجر: ٣٦.

(٢) سورة الأحزاب: ٣٥.

(٣) سبق تخريجه.

الْأُمُورَ الظَّاهِرَةَ وَهِيَ الْإِسْلَامُ، وَالْبَاطِنَةَ وَهِيَ الْإِيمَانُ.

لَا بُدَّ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ مِنَ الِانْقِيَادِ فِي الظَّاهِرِ مَعَ الْإِيمَانِ فِي الْبَاطِنِ:

لَا بُدَّ مَعَ أَصْلِ الْإِيمَانِ فِي الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ التَّصْدِيقُ وَالْيَقِينُ، مِنَ الِانْقِيَادِ، أَمَّا التَّصْدِيقُ بِدُونِ الِانْقِيَادِ فَلَيْسَ هَذَا بِالْإِيمَانِ الْمُعْتَبَرِ، فَقَدْ يُصَدِّقُ الْكَافِرُ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ لَكِنْ لَا يَنفَعُهُ ذَلِكَ مِثْلُ أَبِي طَالِبٍ وَغَيْرِهِ، فَالْكَثِيرُ مِنَ الْكُفَّارِ كَانُوا يُصَدِّقُونَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ}**[1].

وَمِثْلُ الْيَهُودِ الَّذِينَ قَدْ يُصَرِّحُونَ بِتَصْدِيقِهِمْ بِالرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُمْ يَعْرِفُونَهُ وَيُقِرُّونَ بِذَلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، لَكِنَّ هَذَا التَّصْدِيقَ الْمُجَرَّدَ مِنَ الِانْقِيَادِ لَا يَنْفَعُهُمْ، لِأَنَّ شَرْطَ صِحَّةِ الْإِيمَانِ الِانْقِيَادُ مَعَ التَّصْدِيقِ وَالْإِقْرَارُ، فَلَا يَنْفَعُ التَّصْدِيقُ مَعَ الْعَدَاوَةِ وَالْمُحَارَبَةِ، كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ يَفْعَلُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَهَذَا هِرَقْلُ لَمَّا جَاءَهُ الْكِتَابُ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقُرِئَ عَلَيْهِ وَاسْتَظْهَرَ مَا أُخْبِرَ بِهِ مِنْ أَنَّهُ النَّبِيُّ الَّذِي كَانَ يَعْرِفُ لَكِنْ مَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ اسْتَكْبَرَ وَبَخِلَ بِمُلْكِهِ، فَظَنَّ أَنَّهُ سَيَفُوتُهُ الْمُلْكُ لَوْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَالتَّصْدِيقُ يَسْتَلْزِمُ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ، وَأَعْمَالُ الْقُلُوبِ تَسْتَلْزِمُ أَعْمَالَ الْجَوَارِحِ.

لَكِنَّ قَوْلَ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللهُ: **أَنَّ الْإِيمَانَ هُوَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ الْمُتَضَمِّنِ لِأَعْمَالِ الْجَوَارِحِ.**

أَرَى أَنَّ هَذَا فِيهِ تَسَاهُلٌ فِي التَّعْبِيرِ؛ لِأَنَّ التَّضَمُّنَ يَتَنَاوَلُ دَلَالَةَ اللَّفْظِ عَلَى بَعْضِ مَعْنَاهُ، وَأَعْمَالُ الْجَوَارِحِ لَيْسَتْ مِنْ مُسَمَّى التَّصْدِيقِ الْخَاصِّ، فَقَدْ يُعَبَّرُ عَنِ الْعَمَلِ بِأَنَّهُ تَصْدِيقٌ لِأَنَّهُ تَصْدِيقٌ لِلْقَوْلِ بِالْعَمَلِ، فَتَصْدِيقُ الْقَلْبِ الْجَازِمِ يَسْتَلْزِمُ أَعْمَالَ الْجَوَارِحِ وَإِقْرَارَ اللِّسَانِ.

وَيُقَرِّرُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَنَّ التَّصْدِيقَ وَالْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مَا لَمْ يَظْهَرْ لَهُ أَثَرٌ عَلَى الْجَوَارِحِ -أَيْ مَا لَمْ يَصْحَبْهُ عَمَلٌ- فَلَيْسَ بِشَيْءٍ، وَلِهَذَا يَرَى بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْإِعْرَاضَ الْمُطْلَقَ عَنِ الدِّينِ عِلْمًا وَعَمَلًا أَنَّهُ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ؛ فَيَقُولُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي النَّاقِضِ الْعَاشِرِ: الْإِعْرَاضُ عَنِ الدِّينِ فَلَا يَتَعَلَّمُهُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

---

(١) سورة الأنعام: ٣٣.

وَأَنَّ مَنْ أَكْمَلَهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فَقَدْ أَكْمَلَ الإِيـمَانَ، وَمَنِ انْتَقَصَ شَيْئًا مِنْهَا فَقَدِ انْتَقَصَ مِنْ إِيـمَانِهِ.

مَعْنَاهُ أَنَّ النَّاسَ فِي الْإِيمَانِ عَلَى مَرَاتِبَ؛ فَمَنْ قَامَ بِمَا يَسْتَطِيعُ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا وَعِلْمًا وَعَمَـلًا، فَيَكُونُ مِنَ الْكُمَّلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا مَذْكُورٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}**[1].

فَاعْرِضْ نَفْسَكَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا عَلَى هَذِهِ الآيَةِ، وَمَنْ نَقَصَ لِحَقِّهِ مِنَ النَّقْصِ فِي الْإِيمَانِ عَـلَى حَسَـبِ تَقْصِـيرِهِ، وَذَلِكَ النَّقْصُ يَحْصُلُ بِتَرْكِ الْوَاجِبَاتِ وَالْوُقُوعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَكَذَلِكَ الذُّنُوبُ كُلُّهَا صَـغِيرُهَا وَكَبِيرُهَـا تُنْقِصُ مِنَ الْإِيمَانِ.

لَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَسَّرَ لِلْعِبَادِ أَنْوَاعًا مِنَ الْمُكَفِّرَاتِ الَّتِي يُكَفِّرُ بِهَا الذُّنُوبَ، وَالَّتِي أَعْظَمُهَا التَّوْبَةُ النَّصُوحُ الصَّادِقَةُ.

فَالْعَاصِي نَاقِصُ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَجْتَنِبْ مَا حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ.

الْكَمَالُ الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحَبُّ:

ثُمَّ هُنَاكَ كَمَالُ الْإِيمَانِ الْوَاجِبُ؛ وَهُوَ الَّذِي يَقُومُ عَلَى فِعْلِ الْوَاجِبَاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَهُنَاكَ كَمَالٌ مُسْتَحَبٌّ؛ وَهُوَ الَّذِي يَقُومُ عَلَى فِعْلِ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَتَرْكِ الْمَكْرُوهَاتِ وَتَرْكُ الْفُضُولِ، وَهَذَا النَّوْعُ الْأَخِيرُ لَيْسَ لَهُ حُدُودٌ، وَهَذَا الَّذِي يَتَفَاوَتُ فِيهِ الْكُمَّلُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ تَعَالَى.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ[2]: كُلُّ مَا وَرَدَ فِيهِ نَفْيُ الْإِيمَانِ عَنْ صَاحِبِهِ بِفِعْلٍ أَوْ تَرْكٍ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْوُجُوبِ؛ مِثْلُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الْخَيْرِ**»[3]. فَيَكُونُ هَذَا الْحُبُّ وَاجِبًا أَيْ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ.

---

(١) سورة الأنفال: ٢.

(٢) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد ابن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، شيخ الإسلام (تقي الدين أبو العباس) محدث، حـافظ، مفسـر، فقيه، مجتهد، مشارك في أنواع من العلوم، ولد في حران سنة ٦٦١ هـ، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. من مصنفاته الكثـيرة: مجموعـة فتاويه، السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. (الأعلام للزركلي: ١/ ١٤٤).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب الدليل عـلى أن مـن خصـال الإيمان أن يحب (٤٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَهَذِهِ الأُمُورُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً؛ أَعْلَاهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ.

أَشَارَ بِهَذَا إِلَى الْحَدِيثِ دَلِيلًا عَلَى مَا قَرَّرَهُ مِنْ مُسَمَّى الْإِيمَانِ وَأَنَّهُ شَامِلٌ لِأُمُورِ الدِّينِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ كَمَا قَالَ الْأَئِمَّةُ: إِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيُرَتِّبُونَ عَلَى هَذَا الأَصْلِ أَنَّ النَّاسَ فِي الإِيمَانِ دَرَجَاتٌ: مُقَرَّبُونَ، وَأَصْحَابُ يَمِينٍ، وَظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِحَسَبِ مَقَامَاتِهِمْ مِنَ الدِّينِ وَالإِيمَانِ.

وَأَنَّهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ فَمَنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا، أَوْ تَرَكَ وَاجِبًا؛ نَقَصَ إِيمَانُهُ الوَاجِبُ مَا لَمْ يَتُبْ إِلَى اللهِ.

يَقُولُ إِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يُرَتِّبُونَ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ -وَهُوَ شُمُولُ الْإِيمَانِ لِكُلِّ شَرَائِعِ الدِّينِ- أَنَّ النَّاسَ فِي الْإِيمَانِ عَلَى ثَلَاثِ مَرَاتِبَ: مُقَرَّبُونَ وَمُقْتَصِدُونَ وَظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ.

وَهَذَا مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: **{ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}**[1] .

فَكُلُّ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ مُصْطَفَوْنَ، لَكِنَّهُمْ مُتَفَاضِلُونَ فِي هَذَا الِاصْطِفَاءِ فِي مُوجَدِهِ وَأَثَرِهِ؛ فَمِنْهُمُ الظَّالِمُ لِنَفْسِهِ وَهُوَ الَّذِي يَتْرُكُ بَعْضَ الْوَاجِبَاتِ وَيَفْعَلُ بَعْضَ الْمُحَرَّمَاتِ، فَعُصَاةُ الْمُؤْمِنِينَ -وَلله الْحَمْدُ- دَاخِلُونَ فِي هَذَا الِاصْطِفَاءِ، فَالْفَاسِقُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنَ الْكَافِرِ.

وَفَوْقَهُ الْمُقْتَصِدُ وَهُوَ الَّذِي أَدَّى الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ، وَلَيْسَ لَهُ تَمْيِيزٌ فِي نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ، فَقَدْ يُقَصِّرُ فِي النَّوَافِلِ وَتَرْكِ الْفُضُولِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، فَهُوَ أَخَذَ بِسَبَبِ النَّجَاةِ.

فَالْأَوَّلُ مُتَعَرِّضٌ لِلْعِقَابِ وَلَكِنَّهُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، وَالثَّانِي نَاجٍ لِأَنَّ مَنْ قَامَ بِالْوَاجِبَاتِ وَابْتَعَدَ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ فَالنَّجَاةُ مَضْمُونَةٌ لَهُ.

وَالصِّنْفُ الثَّالِثُ الْمُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ.

---

(١) سورة فاطر: ٣٢.

وَيُعَبَّرُ عَنِ الصِّنْفَيْنِ الثَّانِي وَالثَّالِثِ بِأَلْفَاظٍ فِي الْقُرْآنِ؛ فَالْمُقْتَصِدُونَ هُمْ أَصْحَابُ الْيَمِينِ، وَالسَّابِقُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَالْمُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ هُمُ الْمُقَرَّبُونَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْوَاقِعَةِ: **{وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً (٧) فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (٩) وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ}**[1]. وَقَدْ فَصَلَ بَيْنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَالسَّابِقِينَ وَلَمْ يَذْكُرْهُمْ عَلَى التَّوَالِي لِحِكْمَةٍ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ سَيَطُولُ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي نَفْسِ السُّورَةِ: **{أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ (١٩) وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا}**[2]. ثُمَّ جَاءَ ذِكْرُهُمْ ثُمَّ أُتْبِعُوا بِذِكْرِ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ثُمَّ ذُكِرَتْ عَاقِبَةُ أَصْحَابِ الشِّمَالِ.

فَالسَّابِقُونَ هُمُ الْمُقَرَّبُونَ وَهُمُ الْمُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ، وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ هُمُ الْمُقْتَصِدُونَ.

وَالْمُقَرَّبُونَ هُمُ الَّذِينَ أَدَّوُا الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكُوا الْمُحَرَّمَاتِ وَاجْتَهَدُوا فِي النَّوَافِلِ وَاجْتَنَبُوا الْمَكْرُوهَاتِ وَفُضُولِ الْأَعْمَالِ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ يُقِرُّونَ بِمِثْلِ هَذَا، أَمَّا الْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ هَذَا التَّصْنِيفُ؛ فَعِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ أَنَّ الظَّالِمَ لِنَفْسِهِ الْمُرْتَكِبَ لِلْكَبِيرَةِ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ عِنْدَهُمْ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ. وَعِنْدَ الْخَوَارِجِ أَنَّهُ حَتَّى لَوْ تَابَ وَمَاتَ فَهُوَ مُخَلَّدٌ فِي النَّارِ.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَخَالَفُوا الْخَوَارِجَ وَالْمُعْتَزِلَةَ فِي هَذَا التَّقْسِيمِ، وَاسْتَمَدُّوا عَقِيدَتَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِمَّا صَحَّ مِنْ سُنَّةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيُرَتِّبُونَ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ أَنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ: مِنْهُمْ مَنْ قَامَ بِحُقُوقِ الإِيمَانِ كُلِّهَا فَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقًّا، وَمِنْهُمْ مَنْ تَرَكَهَا كُلَّهَا فَهَذَا كَافِرٌ بِاللهِ تَعَالَى، وَمِنْهُمْ مَنْ فِيهِ إِيمَانٌ وَكُفْرٌ، أَوْ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، أَوْ خَيْرٌ وَشَرٌّ فَفِيهِ مِنْ وِلَايَةِ اللهِ

(١) سورة الواقعة: ٧- ١٠.

(٢) سورة الواقعة: ١١- ٢٦.

وَاسْتِحْقَاقِهِ لِكَرَامَتِهِ بِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الإِيمَانِ، وَفِيهِ مِنْ عَدَاوَةِ اللهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِعُقُوبَةِ اللهِ بِحَسَبِ مَا ضَيَّعَهُ مِنَ الإِيمَانِ.

هَذَا تَقْسِيمٌ آخَرُ غَيْرُ التَّقْسِيمِ الْأَوَّلِ؛ فَالتَّقْسِيمُ الْأَوَّلُ كُلُّهُ فِي دَائِرَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ انْقِسَامَهُمْ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: ظَالِمٍ، وَمُقْتَصِدٍ، وَمُقَرَّبٍ.

أَمَّا هُنَا فَهَذَا تَقْسِيمٌ أَعَمُّ مِنَ الْأَوَّلِ وَهُوَ انْقِسَامُ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ قِيَامِهِمْ بِالْإِيمَانِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ:

مَنْ قَامَ بِحُقُوقِ الْإِيمَانِ كُلِّهَا، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ النَّاجُونَ، وَيَدْخُلُ فِيهِمُ الْمُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ النَّاجُونَ مُطْلَقًا.

وَيُنَاقِضُ ذَلِكَ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ كُلِّهِ فَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ وَلَا يَعْمَلُونَ بِشَيْءٍ

فَأَعْرَضُوا عَنْ هُدَى اللهِ وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، فَهَؤُلَاءِ كُفَّارٌ كَمَا قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: **{إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}**[1]. وَهَؤُلَاءِ هَالِكُونَ مُطْلَقًا كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ}**[2].

وَكَثِيرًا مَا يَأْتِي ذِكْرُ التَّقَابُلِ بَيْنَ هَذَيْنِ الصِّنْفَيْنِ فِي الْقُرْآنِ: **{وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}**[3].

وَبَيْنَ الصِّنْفَيْنِ السَّابِقَيْنِ صِنْفٌ ثَالِثٌ وَهُمُ الَّذِينَ فَرَّطُوا فِي بَعْضِ الْوَاجِبَاتِ، وَأَقْدَمُوا عَلَى بَعْضِ الْمُحَرَّمَاتِ، وَهَؤُلَاءِ يَدْخُلُونَ فِي دَائِرَةِ الظَّالِمِينَ لِأَنْفُسِهِمْ.

وَكُلُّ قِسْمٍ مِنَ الْأَقْسَامِ الثَّلَاثَةِ فِيهِ تَفَاوُتٌ وَدَرَجَاتٌ؛ فَالْكُفَّارُ مُتَفَاوِتُونَ فِي الْكُفْرِ، وَالْمُؤْمِنُونَ حَقًّا مُتَفَاوِتُونَ فِي الْإِيمَانِ، وَكَذَلِكَ الظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَفَاوِتُونَ. لَكِنَّ هَذَا التَّقْسِيمَ عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

---

(١) سورة النساء: ١٥١.

(٢) سورة الشورى: ٧.

(٣) سورة المائدة: ٩، ١٠.

وَيُرَتِّبُونَ عَلَى هَذَا الأَصْلِ العَظِيمِ أَنَّ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ وَصَغَائِرَهَا الَّتِي لَا تَصِلُ بِصَاحِبِهَا إِلَى الكُفْرِ تُنْقِصُ إِيمَانَ العَبْدِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخْرِجَهُ مِنْ دَائِرَةِ الإِسْلَامِ وَلَا يَخْلُدُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

كَذَلِكَ مِنْ تَقْسِيمَاتِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ كَبَائِرَ الذُّنُوبِ لَا تُخْرِجُ الْعَبْدَ عَنِ الْإِيمَانِ وَلَا تُوجِبُ لَهُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ، إِنَّمَا تُنْقِصُ إِيمَانَهُ، فَالْكَبَائِرُ لَا شَكَّ أَنَّهَا أَعْظَمُ تَنْقِيصًا فِي الْإِيمَانِ مِمَّا دُونَهَا مِنَ الذُّنُوبِ، وَالْكَبَائِرُ نَفْسُهَا فِيهَا مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ.

وَالذُّنُوبُ عُمُومًا تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ: كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **{إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا}**[1]. فَالصَّغَائِرُ تُكَفَّرُ بِتَرْكِ الْكَبَائِرِ.

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**»[2]. فَالصَّغَائِرُ تُكَفَّرُ بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ وَبِفِعْلِ الْوَاجِبَاتِ.

حَدُّ الْكَبِيرَةِ:

وَقَدِ اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي حَدِّ الْكَبَائِرِ، وَأَصَحُّ الْأَقْوَالِ هِيَ أَنَّ الْكَبِيرَةَ مَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا أَوْ وَعِيدٌ فِي الْآخِرَةِ بِلَعْنٍ أَوْ غَضَبٍ أَوْ نَارٍ، وَزَادَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: أَوْ نَفْيُ الْإِيمَانِ عَنْ صَاحِبِهِ، أَوْ تَبَرُّؤُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فَاعِلِهَا. وَهَذَا كَأَنَّهُ يُبَيِّنُ أَنَّ كُلَّ نَهْيٍ اقْتَرَنَ مَعَهُ تَغْلِيظٌ فَهُوَ كَبِيرَةٌ.

لَكِنْ مَعَ ذَلِكَ نَفْسُ الْكَبَائِرِ بَعْضُهَا أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ؛ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ**». **قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «الْإِشْرَاكُ بِاللهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ»**. قَالَ وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَّكِئًا قَالَ: «**وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ**». قَالَ فَمَا زَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ[3].

فَالْكَبَائِرُ فِيهَا دَرَجَاتٌ فَأَكْبَرُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ الشِّرْكُ بِاللهِ، وَكَذَلِكَ السَّبْعُ الْمُوبِقَاتُ فَهِيَ أَكْبَرُ مِنْ غَيْرِهَا قَالَ

---

(١) سورة النساء: ٣١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة- باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر (٢٣٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات- باب ما قيل في شهادة الزور (٢٦٥٤)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٧)، من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**». قَالُوا يَا رَسُولَ الله، وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «**الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ**»(١).

وَكُلَّمَا كَانَ الذَّنْبُ أَعْظَمَ كَانَ أَثَرُهُ عَلَى الْإِيمَانِ أَشَدَّ؛ لِأَنَّ حُكْمَ اللهِ الشَّرْعِيَّ وَالْجَزَائِيَّ جَارٍ عَلَى الْعَدْلِ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَلَا يُطْلِقُونَ عَلَيْهِ الكُفْرَ كَمَا تَقُولُ الخَوَارِجُ، أَوْ يَنْفُونَ عَنْهُ الإِيمَانَ كَمَا تَقُولُهُ المُعْتَزِلَةُ، بَلْ يَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَمَعَهُ مُطْلَقُ الإِيمَانِ. وَأَمَّا الإِيمَانُ المُطْلَقُ فَيُنْفَى عَنْهُ.

هَذَا فِيهِ تَحْرِيرُ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي اسْمِ الْفَاسِقِ وَحُكْمِهِ فِي الدُّنْيَا؛ فَالْفَاسِقُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ لَيْسَ بِكَافِرٍ وَلَا خَارِجٍ عَنِ الْإِيمَانِ، خِلَافًا لِلْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ.

فَالْخَوَارِجُ حَكَمُوا بِكُفْرِهِ وَرِدَّتِهِ، وَالْمُعْتَزِلَةُ حَكَمُوا عَلَيْهِ بِالْخُرُوجِ مِنَ الْإِيمَانِ وَاتَّفَقُوا عَلَى حُكْمِهِ فِي الْآخِرَةِ- كَمَا سَبَقَ أَنَّ وَضَّحْنَا.

أَمَّا عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ فَهُوَ فِي الدُّنْيَا لَا يُعْطُونَهُ مُسَمَّى الْإِيمَانِ بِإِطْلَاقٍ، وَلَكِنَّهُ مُسْلِمٌ، فَاسْمُ الْإِسْلَامِ أَعَمُّ وَأَوْسَعُ، وَيُسَمُّونَهُ مُؤْمِنًا نَاقِصَ الْإِيمَانِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ: فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ وَلَا يُسْلَبُ مِنْهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ، فَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ كَمَا فَعَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، وَلَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ كَمَا فَعَلَتِ الْخَوَارِجُ، بَلْ يُقَالُ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ.

وَسَمَّاهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ»: الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ ، أَيِ الْفَاسِقَ مِنْ أَهْلِ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: **{فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ}**(٢). فَتَحْرِيرُ الرَّقَبَةِ الْمُؤْمِنَةِ يَدْخُلُ فِيهَا الْفَاسِقُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَا يُشْتَرَطُ فِي الرَّقَبَةِ الْمُؤْمِنَةِ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْكُمَّلِ الْمُؤْمِنِينَ عِلْمًا وَعَمَلًا، كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلأَمَةِ: «**أَيْنَ اللهُ؟**». فَأَشَارَتْ إِلَى السَّمَاءِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا- باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} (٢٧٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٢) سورة النساء: ٩٢.

بِإِصْبَعِهَا فَقَالَ لَهَا: «**فَمَنْ أَنَا؟**». فَأَشَارَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِلَى السَّمَاءِ تَعْنِي: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»(١). أَيِ الْإِيمَانُ الْمُجْزِئُ فِي تَحْرِيرِ الرَّقَبَةِ.

فَأَهْلُ السُّنَّةِ وَسَطٌ فِي كُلِّ مَسَائِلِ الدِّينِ؛ فِي الْأَحْكَامِ -أَيْ فِي حُكْمِ الْمُكَلَّفِينَ- وَسَطٌ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ.

وَكَذَلِكَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْفَاسِقِ أَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ بِقَدْرِ ذَنْبِهِ، وَأَمَّا حُكْمُهُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا يُسْلَبُ مِنْهُ اسْمُ الْإِيمَانِ وَلَا يُعْطَى اسْمَ الْإِيمَانِ عَلَى إِطْلَاقِهِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْكَمَالِ.

أَمَّا الْمُرْجِئَةُ فَإِنَّهُمْ عَلَى النَّقِيضِ مِنْ مَذْهَبِ الْخَوَارِجِ وَمَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ؛ إِذْ يَقُولُونَ عَنِ الْفَاسِقِ: إِنَّهُ مُؤْمِنٌ. لِأَنَّ فِي مَذْهَبِهِمْ أَنَّ الْإِيمَانَ يُطْلَقُ عَلَى مُجَرَّدِ التَّصْدِيقِ، فَيُعْطُونَهُ الِاسْمَ الْمُطْلَقَ؛ لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوا الْأَعْمَالَ عَنْ مُسَمَّى الْإِيمَانِ، وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يُسْلَبُ اسْمُ الْإِيمَانِ إِلَّا عَمَّنْ كَفَرَ وَالْكُفْرُ يَكُونُ بِعَدَمِ التَّصْدِيقِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَبِهَذِهِ الْأُصُولِ يَحْصُلُ الإِيمَانُ بِجَمِيعِ نُصُوصِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

الشَّيْخُ هُنَا يُنَبِّهُ عَلَى أَنَّهُ بِمُرَاعَاةِ مَا قَرَّرَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ يَحْصُلُ الْإِيمَانُ وَالْعَمَلُ بِجَمِيعِ النُّصُوصِ.

أَمَّا الطَّوَائِفُ الْأُخْرَى فَإِنَّهُمْ ضَرَبُوا النُّصُوصَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ وَتَنَاقَضُوا؛ فَالْخَوَارِجُ خَالَفُوا نُصُوصَ الْوَعْدِ وَخَالَفُوا أَحْكَامَ الْمُكَلَّفِينَ وَأَحْكَامَ الْعُصَاةِ فِي الشَّرِيعَةِ. وَكَذَلِكَ الْمُعْتَزِلَةُ، فَلَمْ تَسْلَمْ لَهُمُ النُّصُوصُ.

أَصْلُ ضَلَالِ الْفِرَقِ:

وَأَسَاسُ ضَلَالِهِمْ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ بَعْضَ النُّصُوصِ وَيَجْعَلُونَهَا الْأَصْلَ وَيُعَارِضُونَ بِهَا النُّصُوصَ الْأُخْرَى.

أَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ أَعْمَلُوا النُّصُوصَ كُلَّهَا فِي كُلِّ مَسَائِلِ الدِّينِ، وَلَمْ يُعَارِضُوا بَيْنَهَا لِأَنَّهَا كُلَّهَا حَقٌّ وَالْحَقُّ لَا يَتَنَاقَضُ وَلَا يَتَعَارَضُ، فَسَلِمَتْ لَهُمُ النُّصُوصُ فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ كُلِّهِ، وَمَنْ خَرَجَ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ فَإِنَّهُ لَابُدَّ أَنْ يُكَذِّبَ بِبَعْضِ النُّصُوصِ أَوْ يُحَرِّفَهَا لِتَتَّفِقَ مَعَ أُصُولِهِ وَبَاطِلِهِ.

الأَسْئِلَةُ

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد مواضع الصلاة- باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

السُّؤَالُ: هَلْ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ خِلَافٌ فِي أَرْكَانِ الْإِيمَانِ؟ وَهَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِقَوْلِ مُرْجِئَةِ الْفُقَهَاءِ؟

الْجَوَابُ: لَا يُوجَدُ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي أَرْكَانِ الْإِيمَانِ، فَأَرْكَانُ الْإِيمَانِ مَعْرُوفَةٌ وَمَضْبُوطَةٌ مِنْ جَوَابِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ مَنْ يَقُولُ بِقَوْلِ الْمُرْجِئَةِ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ مُعْتَصِمُونَ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَهُمُ الْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ.

السُّؤَالُ: مَا هُوَ مُطْلَقُ الْإِيمَانِ وَالْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ؟

الْجَوَابُ: الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ الْمُرَادُ بِهِ الْكَمَالُ. وَمُطْلَقُ الْإِيمَانِ يُرَادُ بِهِ أَصْلُ الْإِيمَانِ، وَهُنَاكَ نِزَاعٌ فِي مَسْأَلَةِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْإِيمَانِ؛ فَإِذَا قِيلَ لِإِنْسَانٍ أَنْتَ مُؤْمِنٌ؟ فَيَقُولُ نَعَمْ أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ. أَوْ يَقُولُ: أَنَا مُؤْمِنٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ.

فَمُطْلَقُ الشَّيْءِ هُوَ أَقَلُّ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ الِاسْمُ، وَالِاسْمُ الْمُطْلَقُ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْمُسَمَّى.

السُّؤَالُ: هَلْ مَنْ قَالَ: الْأَعْمَالُ شَرْطٌ لِكَمَالِ الْإِيمَانِ. يُعْتَبَرُ مُرْجِئًا؟

الْجَوَابُ: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مُطَابِقٌ لِمَذْهَبِ الْمُرْجِئَةِ، لَكِنَّ هَذَا لَا يَسْتَقِيمُ حَتَّى عَلَى مَذْهَبِهِمْ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُمْ شَرْطُ كَمَالٍ. يَقْتَضِي أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْمَذْهَبُ ضِدُّ ذَلِكَ، فَهُوَ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهٍ وَلَا يَنْطَبِقُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ، فَالْعِبَارَةُ تَقْتَضِي أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَعْمَالَ فِي الْجُمْلَةِ هِيَ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ، لَكِنَّ جِنْسَ الْأَعْمَالِ لَا يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إِنَّهَا شَرْطٌ لِكَمَالِ الْإِيمَانِ، مِمَّا يَسْتَلْزِمُ أَنَّ الْإِيمَانَ يَصِحُّ بِدُونِ أَعْمَالٍ، فَيَئُولُ الْأَمْرُ إِلَى قَوْلِ الْمُرْجِئَةِ.

السُّؤَالُ: مَا مَعْنَى الْبَاءِ فِي قَوْلِنَا : فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ؟

الْجَوَابُ: أَيْ بِسَبَبِ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ شِرَاءِ سَيَّارَةٍ أَوْ أَثَاثٍ إِذَا كَانَتْ قِيمَةُ السِّلْعَةِ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ مُدَّةِ الْقِسْطِ فَكُلَّمَا زَادَتْ مُدَّةُ الدَّفْعِ الْخَاصِّ بِالْقِسْطِ زَادَ السِّعْرُ، وَمِثَالُ ذَلِكَ شَخْصٌ اشْتَرَى سَيَّارَةً بِسِتَّةِ آلَافِ دِينَارٍ، وَهَذَا السِّعْرُ إِذَا كَانَ الدَّفْعُ بِالْقِسْطِ خِلَالَ سَنَةٍ، أَمَّا إِذَا كَانَ الدَّفْعُ خِلَالَ سَنَتَيْنِ فَيُصْبِحُ السِّعْرُ أَحَدَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَإِذَا كَانَ الدَّفْعُ خِلَالَ أَرْبَعِ سَنَوَاتٍ يَكُونُ الْمَبْلَغُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ؟

الْجَوَابُ: أَوَّلًا شَرْطُ صِحَّةِ مِثْلِ هَذَا الْعَقْدِ أَنْ يَكُونَ الشِّرَاءُ مِمَّنْ يَمْلِكُ السِّلْعَةَ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ تَذْهَبَ لِلْبَنْكِ لِتَشْتَرِيَ مِنْهُمْ فَيَقُولُونَ سَنَشْتَرِي السَّيَّارَةَ ثُمَّ يَبِيعُونَهَا لَكَ مَثَلًا بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا وَقَدْ اشْتَرَوْهَا بِعَشَرَةِ آلَافٍ.

وَكَوْنُهُمْ إِذَا زَادَ الْأَجَلُ زَادَ الثَّمَنُ فَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ يُشْبِهُ رِبَا الْجَاهِلِيَّةِ.

وَالصَّوَابُ فِي مِثْلِ هَذَا أَنَّكَ تَطْلُبُ مِنْهُمُ السَّيَّارَةَ بِالْقِسْطِ لِمُدَّةٍ مَثَلًا سَنَتَيْنِ فَيَكُونُ الثَّمَنُ كَذَا، أَمَّا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَشْتَرِطُوا أَنَّهُ إِذَا تَأَخَّرَ السَّدَادُ عَنِ الْمَوْعِدِ سَيَزِيدُ الثَّمَنُ فَهَذَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ: إِمَّا أَنْ تَقْضِيَ وَإِمَّا أَنْ تُرْبِيَ.

فَلَابُدَّ أَنْ يَكُونَ الْعَقْدُ عَلَى مُدَّةٍ مُقَرَّرَةٍ سَنَةٍ أَوْ سَنَتَيْنِ أَوْ أَرْبَعَةٍ أَوْ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ عَلَى حَسَبِ الرَّغْبَةِ، وَلَا تُوضَعُ شُرُوطٌ بِزِيَادَةِ الثَّمَنِ عِنْدَ التَّأَخُّرِ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ قَوْلِ: غَفَرَ اللهُ لَكَ إِنْ شَاءَ اللهُ؟

الْجَوَابُ: هَذَا جَارٍ عَلَى اللِّسَانِ، أَمَّا مَنْ أَرَادَ التَّعْلِيقَ فَلَا يَجُوزُ، فَلَا تَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ. لَكِنْ قَدْ يَكُونُ هَذَا عَلَى اللِّسَانِ بِدُونِ قَصْدٍ، وَالْأَوْلَى التَّرْكُ.

السُّؤَالُ: مَا رَأْيُكُمْ فِيمَا ظَهَرَ حَدِيثًا بِمَا يُسَمَّى بِعِلْمِ الْبَرْمَجَةِ اللُّغَوِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ وَهُوَ عِلْمٌ يُعْنَى بِرَبْطِ الْحَيَاةِ بِالْخَيَالِ فَيَقُولُونَ: إِنَّ كُلَّ مَا تَتَخَيَّلُهُ سَوْفَ يَقَعُ. وَمِمَّا يَقُولُونَهُ: أَنَّ أَرْوَاحَ النَّاسِ تَخْرُجُ وَتَتَلَاقَى إِذَا تَلَاقَتْ أَجْسَادُهُمْ؟

الْجَوَابُ: فِي الْحَقِيقَةِ أَنَا لَمْ أَتَصَوَّرْهَا جَيِّدًا وَعِنْدِي عَلَيْهِ تَحَفُّظٌ، وَمَا أُشِيرُ إِلَيْهِ فِي السُّؤَالِ فَهَذَا مِنَ الدَّعَاوَى الْبَاطِلَةِ الَّتِي لَمْ يُقِيمُوا عَلَيْهَا دَلِيلًا.

وَالْأَرْوَاحُ لَا تَتَلَاقَى إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ، أَمَّا كَوْنُهَا تَتَلَاقَى إِذَا تَلَاقَتْ أَجْسَادُهُمْ، فَإِنْ قَصَدُوا أَنَّهَا تَتَوَافَقُ فَهَذَا يَحْدُثُ كَثِيرًا فَقَدْ تَتَوَافَقُ فِي الطِّبَاعِ أَوِ الْأَهْدَافِ أَوِ التَّصَوُّرَاتِ فَهَذَا مُمْكِنٌ.

السُّؤَالُ: هَلْ إِذَا فُقِدَتْ أَعْمَالُ الْجَوَارِحِ كُلِّيًّا هَلْ يَبْقَى الْإِيمَانُ؟

الْجَوَابُ: لَا، فَلَا يَكُونُ مُؤْمِنًا وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنِ الدِّينِ إِعْرَاضًا كُلِّيًّا.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ هَذِهِ الْعِبَارَةِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهٍ سِوَاهُ؟

الْجَوَابُ: هَذِهِ غَيْرُ صَحِيحَةٍ وَلَيْسَ لَهَا أَصْلٌ.

فَمَثَلًا إِذَا أُقِيمَ الْحَدُّ مِنْ وَلِيِّ الْأَمْرِ وَهِيَ مَكْرُوهَةٌ لِلنَّاسِ أَلَيْسَ وَلِيُّ الْأَمْرِ هَذَا يُحْمَدُ عَلَى إِقَامَةِ الْحَدِّ.

وَإِذَا ضَرَبَكَ أَبُوكَ تَرْبِيَةً لَكَ وَالضَّرْبُ مَكْرُوهٌ بِالنِّسْبَةِ لَكَ أَلَيْسَ يُحْمَدُ وَالِدُكَ عَلَى تَرْبِيَتِهِ لَكَ بِذَلِكَ.

فَكَلِمَةُ: لَا يُحْمَدُ عَلَى مَكْرُوهٍ سِوَاهُ. غَلَطٌ شَرْعًا وَعَادَةً.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ التَّبَرُّكِ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ أَوْ بِمَقَامِ إِبْرَاهِيمَ؟

الجَوَابُ: التَّبَرُّكُ بِمَعْنَى التَّمَسُّحِ فِيهَا لِتَحْصِيلِ الْبَرَكَةِ هَذَا لَا أَصْلَ لَهُ وَهُوَ بِدْعَةٌ.

السُّؤَالُ: مَاذَا يَفْعَلُ مَنْ حُرِمَ الْخُشُوعَ فِي الصَّلَاةِ؟

الجَوَابُ: يَدْعُو اللهَ تَعَالَى وَيُجَاهِدُ نَفْسَهُ.

السُّؤَالُ: هَلْ صَحِيحٌ أَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ. فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الْإِرْجَاءِ؟

الجَوَابُ: الْمُرْجِئَةُ يُفَسِّرُونَ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ بِزِيَادَةِ الْمُؤْمِنِ بِهِ، فَلَابُدَّ أَنْ نَفْهَمَ مُرَادَ السَّائِلِ مِنْ قَوْلِهِ: يَزِيدُ وَيَنْقُصُ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ الْقَوْلِ بِأَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ كَافِرٌ كُفْرَ نِعْمَةٍ؟

الجَوَابُ: لَا تَخْتَلِفُ الْمَعَانِي سَوَاءً كَانَ كُفْرَ نِعْمَةٍ أَوْ كُفْرًا عَمَلِيًّا أَوْ كُفْرًا أَصْغَرَ، كُلُّهَا عِبَارَاتٌ قَرِيبَةٌ مِنْ بَعْضِهَا.

السُّؤَالُ: هَلِ الْمُقَرَّبُونَ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ لَا يَعْصُونَ اللهَ أَبَدًا؟

الجَوَابُ: قَدْ يَعْصُونَ لَكِنْ يَتُوبُونَ وَلَا يُصِرُّونَ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا الأَصْلِ أَنَّ الإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، وَأَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا، وَأَنَّ مَنِ ارْتَدَّ وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ إِنَّ هَذَا الْأَصْلَ يَتَضَمَّنُ أَنَّ التَّوْبَةَ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا وَأَنَّ الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ، وَمَعْنَى هَذَا أَنَّ مَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ وَمَحَى ذَنْبَهُ وَهَذَا عَامٌّ فِي جَمِيعِ الذُّنُوبِ فِي الشِّرْكِ وَمَا دُونَهُ، فَمَنْ تَابَ مِنَ الشِّرْكِ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ وَصَارَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوَحِّدِينَ

وَلَا يَضُرُّهُ مَا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَهَذَا حَالُ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ فَقَدْ كَانُوا عَلَى الشِّرْكِ فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَتَابُوا صَارُوا مِنْ خِيَارِ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى.

وَكَذَلِكَ الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ.

وَقَوْلُ الشَّيْخِ: **الْإِسْلَامَ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ**، بَعْدَ قَوْلِهِ: **وَالتَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا** يُشْبِهُ هَذَا مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ، فَعَطْفُ التَّوْبَةِ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

وَقَوْلُهُ: **التَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا** تَشْمَلُ التَّوْبَةَ مِنَ الشِّرْكِ وَغَيْرَهُ مِنْ جَمِيعِ الذُّنُوبِ، أَمَّا قَوْلُهُ: **الْإِسْلَامُ يَجُبُّ مَا قَبْلَهُ**؛ فَالْمَقْصُودُ بِهِ الدُّخُولُ فِي الْإِسْلَامِ فَيَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى أَخَفَّ مِنْ قَوْلِهِ: التَّوْبَةُ تَجُبُّ مَا قَبْلَهَا؛ لِأَنَّ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ مِنَ الشِّرْكِ وَالدُّخُولَ فِي تَوْحِيدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وَقَدْ ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ[1] لَمَّا أَرَادَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ وَمُبَايَعَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَسَطَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ لِمُبَايَعَتِهِ قَبَضَ عَمْرٌو يَدَهُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟**». قَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ. قَالَ: «**تَشْتَرِطُ بِمَاذَا**». قَالَ: أَنْ يُغْفَرَ لِي. قَالَ: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ**

---

(١) هو: الصحابي الجليل عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد -بالتصغير- ابن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي. أمير مصر. يكنى أبا عبد الله، وأبا محمد. أمه النابغة من بني عنزة -بفتح المهملة والنون-. داهية قريش ورجل العالم، ومن يضرب به المثل في الفطنة، والدهاء، والحزم. هاجر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مسلما في أوائل سنة ثمان، مرافقا لخالد بن الوليد، وحاجب الكعبة عثمان بن طلحة، ففرح النبي -صلى الله عليه وسلم- بقدومهم وإسلامهم، وأمَّر عمرا على بعض الجيش، وجهزه للغزو. مات سنة ثلاث وأربعين على الصحيح، وعاش نحو تسعين، وقيل: تسع تسعين سنة. انظر: الاستيعاب (ص: ٤٩٦ ترجمة ١٧٦٧)، والإصابة (٤/ ٦٥٠ ترجمة ٥٨٨٦).

قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ»[1].

وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي أَمْرِ التَّوْبَةِ: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[2].

وَقَالَ: {إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا}[3].

فَالْآيَةُ الْأُولَى دَلَّتْ عَلَى أَنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، وَالْآيَةُ الْأُخْرَى تَضَمَّنَتِ التَّفْصِيلَ وَأَنَّ الشِّرْكَ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ تَعَالَى وَأَنَّ مَا دُونَهُ هُوَ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ لَيْسَ فِيهِ قَطْعٌ، فَكَأَنَّ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ نَوْعٌ مِنَ التَّعَارُضِ؛ فَفِي آيَةِ الزُّمَرِ عَمَّمَ وَأَطْلَقَ، وَفِي آيَةِ النِّسَاءِ خَصَّ وَقَيَّدَ، وَأَفْضَلُ مَا قِيلَ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ أَنَّ فِي آيَةِ النِّسَاءِ تَضَمَّنَتْ أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الشِّرْكِ وَلَمْ يَتُبْ مِنْهُ فَإِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى بَعْضِ الذُّنُوبِ فَإِنَّهُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}.

أَمَّا آيَةُ الزُّمَرِ فَهِيَ فِي التَّائِبِينَ، فَمَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ}[4].

وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى تَوْبَةِ الْكَافِرِ كَثِيرَةٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي النَّصَارَى الْمُثَلِّثَةِ: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[5]. بَلْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ الْأُخْدُودِ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ}[6]. فَقَيَّدَ الْوَعِيدَ بِعَدَمِ التَّوْبَةِ.

قَوْلُهُ: وَأَنَّ مَنِ ارْتَدَّ. هَذَا مُقَابِلٌ لِلْمَعْنَى الَّذِي قَبْلَهُ، فَمَنِ ارْتَدَّ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَالِارْتِدَادُ عَنِ الْإِسْلَامِ ضِدُّ الدُّخُولِ فِيهِ قَالَ تَعَالَى: {وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وكذا الهجرة والحج (١٢١) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه

(٢) سورة الزمر: ٣٥.

(٣) سورة النساء: ٤٨.

(٤) سورة الأنفال: ٣٨.

(٥) سورة المائدة: ٧٣، ٧٤.

(٦) سورة البرج: ١٠.

فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[1]. فَمَنِ ارْتَدَّ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، أَمَّا مَنْ مَاتَ عَلَى رِدَّتِهِ فَإِنَّهُ يَحْبَطُ عَمَلُهُ وَيَخْلُدُ فِي النَّارِ.

وَقَالَ تَعَالَى: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ}**[2]. وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا لِمَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى الْكُفْرِ حَتَّى مَاتَ، وَتَوْبَتُهُمْ هَذِهِ عِنْدَ الْغَرْغَرَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}**[3].

فَالتَّوْبَةُ عِنْدَ الْغَرْغَرَةِ كَتَوْبَةِ الَّذِينَ آمَنُوا حِينَ رَأَوا بَأْسَ اللهِ يَنْزِلُ بِهِمْ: **{فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ}**[4]. وَهَذِهِ سُنَّةٌ مَاضِيَةٌ كَحَالِ فِرْعَوْنَ لَمَّا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ **{حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}**[5].

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ.

أَيْ تَابَ بَعْدَ الرِّدَّةِ، فَالرِّدَّةُ لَا تَمْنَعُ مِنَ التَّوْبَةِ، وَقَدِ ارْتَدَّ بَعْضُ النَّاسِ بَعْدَ وَفَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ فَتَابُوا، وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ الصَّحَابِيَّ هُوَ الَّذِي رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤْمِنًا بِهِ وَمَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَلَوْ تَخَلَّلَ ذَلِكَ رِدَّةٌ. هَذَا عَلَى الْقَوْلِ الصَّحِيحِ فَرِدَّتُهُ الَّتِي لَا تَدُومُ إِلَى الْمَوْتِ لَا تُبْطِلُ صُحْبَتَهُ وَلَا أَعْمَالَهُ.

وَمِنْ تَطْبِيقِ ذَلِكَ أَنَّ مَنْ حَجَّ ثُمَّ ارْتَدَّ ثُمَّ مَاتَ فَإِنَّ حَجَّهُ مَقْبُولٌ وَلَا يَلْزَمُهُ أَنْ يَحُجَّ حَجَّةً أُخْرَى؛ لِأَنَّ الْعَمَلَ لَا يَحْبَطُ بِالْعَوْدَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

---

(١) سورة البقرة: ٢١٧.

(٢) سورة آل عمران: ٩٠.

(٣) سورة النساء: ١٨.

(٤) سورة غافر: ٨٤، ٨٥.

(٥) سورة يونس: ٩٠.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيُرَتِّبُونَ أَيْضاً عَلَى هَذَا الأَصْلِ صِحَّةَ الاسْتِثْنَاءِ فِي الإِيمَانِ، فَيَصِحُّ أَنْ يَقُولَ أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ. لِأَنَّهُ يَرْجُو مِنَ اللهِ تَعَالَى تَكْمِيلَ إِيمَانِهِ فَيُسْتَثْنَي لِذَلِكَ، وَيَرْجُو الثَّبَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى المَمَاتِ فَيَسْتَثْنِي مِنْ غَيْرِ شَكٍّ مِنْهُ بِحُصُولِ أَصْلِ الإِيمَانِ.

كَذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي الْإِيمَانِ صِحَّةُ الِاسْتِثْنَاءِ، وَهَذَا مَحَلُّ افْتِرَاقٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُرجِئَـةِ؛ لِأَنَّ الْمُرْجِئَـةَ يَرَوْنَ أَنَّ الِاسْتِثْنَاءَ فِي الْإِيمَانِ حَرَامٌ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ الشَّكَّ لَكِنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَقُولُونَ الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَـنْقُصُ، وَهُـوَ عَـلَى مَرَاتِبَ فَيَجُوزُ أَنْ يَسْتَثْنِيَ بَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَثْنِيَ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ هَذَا مَنِ الَّذِي يَبْلُغُهُ! وَمَنِ ادَّعَى أَنَّهُ مُـؤْمِنٌ بِإِطْلَاقٍ فَهَذَا يَتَضَمَّنُ تَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ، فَيُنَاسِبُ أَنْ يَقُولَ إِنْ شَاءَ اللهُ، لِيَبْرَأَ مِنْ تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ، وَلِأَنَّ الْعَبْدَ لَا يَدْرِي مَـا يُخْتَمُ لَهُ بِهِ، فَيَسْتَثْنِي وَيَقُولُ أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ. لَكِنْ إِذَا سُئِلَ: هَلْ أَنْتَ مُـؤْمِنٌ؟ فَيَقُـولُ: نَعَـمْ أَنَـا أُومِـنُ بِـاللهِ وَرَسُولِهِ. فَيُعَبِّرُ عَنْ إِيمَانِهِ بِالْخَبَرِ أَنَّهُ يُؤْمِنُ.

وَيَقُولُ الشَّيْخُ إِنَّ قَوْلَ الْمُسْلِمِ إِنْ شَاءَ اللهُ فِي أَمْرِ الْإِيمَانِ لَيْسَ عَنْ شَكٍّ فِي أَصْلِ الْإِيمَانِ، بَلْ لَعَلَّهُ يَعْلَمُ قُصُورَهُ وَتَقْصِيرَهُ، فَإِذَا قَالَ إِنْ شَاءَ اللهُ يَكُونُ هَذَا الِاسْتِثْنَاءُ مُتَضَمِّنًا لِلرَّجَاءِ، فَيَرْجُو مِنْ رَبِّـهِ أَنْ يُوَفِّقَـهُ لِيُكْمِـلَ مَقَامَـاتِ الدِّينِ وَيَبْلُغَ مَرْتَبَةً عُلْيَا فِي الْإِيمَانِ عَلَى سَبِيلِ الرَّجَاءِ، وَفِيهَا بَرَاءَةٌ مِنْ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ، وَفِيهَا الِاحْتِيَاطُ لِحُسْنِ الْخَاتِمَةِ.

فَهَذَا مِنْ ثَمَرَاتِ الْخِلَافِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَمُرْجِئَةِ الْفُقَهَاءِ.

فَمُرْجِئَةُ الْفُقَهَاءِ يُحَرِّمُونَ الِاسْتِثْنَاءَ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ يُعَبِّرُ عَمَّنْ يُجِيـزُ الِاسْـتِثْنَاءَ بِالشَّـكِّ أَيْ كَـافِرٌ وَيُلَقِّبُونَـهُ بِالشَّكَّاكَةِ.

وَكَذَلِكَ مِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الْخِلَافِ مَسْأَلَةُ الزِّيَادَةِ فِي الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِهِ.

وَبِهَذَا نَعْلَمُ أَنَّ الْخِلَافَ الَّذِي بَيْنَهُمْ لَيْسَ لَفْظِيًّا كَمَا وَرَدَ فِي بَعْضِ عِبَارَاتِ الشَّيْخِ، وَهُـوَ لَا يُرِيـدُ أَنَّـهُ خِـلَافٌ لَفْظِيٌّ بِالْمَعْنَى الْمَعْرُوفِ لِلْخِلَافِ اللَّفْظِيِّ؛ لِأَنَّ الْخِلَافَ اللَّفْظِيَّ مُتَعَلِّقٌ بِالْأَلْفَاظِ، وَلَوْ كَانَ الْخِلَافُ لَفْظِيًّا لَمَا كَانَ كُلُّ هَذَا الْحِجَاجِ وَالْإِنْكَارِ، فَإِنَّ أَئِمَّةَ السُّنَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ يُشَدِّدُونَ عَلَى مَنْ يَقُولُ إِنَّ الْإِيمَانَ هُوَ مَحْضُ التَّصْدِيقِ، وَعِنْدَ الْمُرْجِئَةِ أَنَّ كُلَّ مَنْ كَانَ مُصَدِّقًا فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ لَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ إِيمَانَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ سَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ؛ لِأَنَّ الْجَمِيعَ يَشْتَرِكُونَ فِي أَصْلِ التَّصْدِيقِ، حَتَّى

إِنَّ الطَّحَاوِيَّ يَقُولُ: الْإِيمَانُ وَاحِدٌ وَأَهْلُهُ فِي أَصْلِهِ سَوَاءٌ وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي الْخَشْيَةِ وَالتُّقَى وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى وَمُلَازَمَةِ الْأَوْلَى.

إِذَنْ التَّفَاضُلُ بَيْنَهُمْ فِي الْعَمَلِ، وَالْأَعْمَالُ عِنْدَهُمْ لَا تَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيُرَتِّبُونَ أَيْضًا عَلَى هَذَا الأَصْلِ أَنَّ الحُبَّ وَالبُغْضَ أَصْلُهُ وَمِقْدَارُهُ تَابِعٌ لِلإِيمَانِ وُجُودًا وَعَدَمًا، وَتَكْمِيلًا وَنَقْصًا، ثُمَّ يَتْبَعُ ذَلِكَ الوَلَايَةُ وَالعَدَاوَةُ؛ وَلِهَذَا مِنَ الإِيمَانِ الحُبُّ فِي اللهِ وَالبُغْضُ للهِ، وَالوَلَايَةُ للهِ وَالعَدَاوَةُ للهِ.

كَذَلِكَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الْإِيمَانِ الْحُبُّ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْبُغْضُ لِلْكَافِرِينَ وَالْعُصَاةِ الْمُسْرِفِينَ فِي الذُّنُوبِ، فَالْحُبُّ وَالْبُغْضُ يَنْبَنِي عَلَى أَحْوَالِ النَّاسِ فِي الْإِيمَانِ، وَيُنْزِلُونَ كُلًّا مَنْزِلَتَهُ، فَيُبْغِضُونَ الْكُفَّارَ بُغْضًا خَالِصًا وَيَبْرَءُونَ مِنْهُمْ، وَيُحِبُّونَ أَوْلِيَاءَ اللهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ وَالصِّدِّيقِينَ وَسَائِرَ الصَّالِحِينَ وَيُنْزِلُونَهُمْ مَنَازِلَهُمْ، فَهُمْ عَلَى مَرَاتِبَ، فَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى مَرَاتِبِهِمْ فِي الْمَحَبَّةِ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ:

مَنْ تَجِبُ مَحَبَّتُهُمْ مُطْلَقًا، وَمَنْ يَجِبُ بُغْضُهُمْ مُطْلَقًا، وَمَنْ بَيْنَ ذَلِكَ.

فَالْمُؤْمِنُ الْخَالِصُ لَهُ الْمَحَبَّةُ التَّامَّةُ، وَالْكَافِرُ لَهُ الْبُغْضُ الْخَالِصُ، وَمَنْ كَانَ مُخَلِّطًا فَيُحَبُّ عَلَى مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، وَيُبْغَضُ عَلَى قَدْرِ مَا مَعَهُ مِنْ مَعْصِيَةٍ.

وَالْعُصَاةُ -كَمَا تَقَدَّمَ- لَيْسُوا عَلَى مَرْتَبَةٍ وَاحِدَةٍ؛ فَفِيهِمُ الْمُجْتَرِئُ عَلَى الْمُحَرَّمَاتِ الْمُتَمَادِي فِي الْعِصْيَانِ، وَمِنْهُمْ مَنْ دُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَا يُخْرِجُهُ عَنِ الْإِيمَانِ وَلَا يُسْقِطُ حَقَّهُ مِنَ الْحُبِّ وَالْوَلَاءِ، فَبِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ نُحِبُّهُ وَنُوَالِيهِ، وَبِحَسَبِ مَا مَعَهُ مِنَ الْعِصْيَانِ نُبْغِضُهُ، بَلْ قَدْ نَهْجُرُهُ أَحْيَانًا وَلَا نُحِبُّهُ الْمَحَبَّةَ التَّامَّةَ، وَهَذَا لَابُدَّ مِنْهُ، فَمِنْ مُوجِبَاتِ الْإِيمَانِ أَنْ نُوَالِيَ أَوْلِيَاءَ اللهِ: **{وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ}**(١). وَكَذَلِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ.

وَهَذِهِ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ قَالَ تَعَالَى: **{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ}**(٢). وَقَالَ: **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ**

(١) سورة التوبة: ٧١.

(٢) سورة الزخرف: ٢٦.

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ}(١).

وَهَذَا الْمَقَامُ غَالَطَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِسَبَبِ إِعْجَابِهِمْ بِالْكُفَّارِ وَمُدَارَاتِهِمْ وَمُصَانَعَتِهِمْ أَوْ قُلْ وَمُدَاهَنَتِهِمْ، وَلَا يُرِيدُونَ أَنْ يُظْهِرُوا أَنَّهُمْ يُعَادُونَ الْكُفَّارَ وَيُبْغِضُونَهُمْ.

وَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَكْرَهَ الْكُفَّارَ كُلَّهُمْ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ مُحَارِبًا حَارَبْنَاهُ، وَإِنْ كُنَّا لَا نَقْدِرُ عَلَى جِهَادِهِ صَالَحْنَاهُ وَاتَّقَيْنَا شَرَّهُ قَالَ تَعَالَى: **{لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ}**(٢).

وَبَنَوا عَلَى هَذَا التَّوَجُّهِ مَا يُسَمَّى بِالْمُعَايَشَةِ مَعَ الْآخَرِ، وَلَا يَقُولُونَ: مَعَ الْكَافِرِ. إِنَّمَا يَقُولُونَ: الْآخَرِ. فَيُدَارُونَهُمْ حَتَّى فِيمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ.

أَمَّا التَّعَايُشُ بِتَبَادُلِ الْمَنَافِعِ، فَهَذَا جَائِزٌ؛ فَالرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَادَعَ الْكُفَّارَ وَصَالَحَ الْيَهُودَ وَغَيْرَهُمْ وَبَاعَ مِنْهُمْ وَاشْتَرَى وَمَاتَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِالْمَدِينَةِ.

أَمَّا الْمُعَايَشَةُ الَّتِي يَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا هَؤُلَاءِ فَيَقُولُونَ: احْتِرَامُ الْأَدْيَانِ. بِمَعْنَى أَلَّا نَطْعَنَ فِي دِينِهِمْ وَلَا نُبْطِلَ عَقَائِدَهُمْ فَهَذَا لَا يَصِحُّ، بَلْ يَجِبُ أَنْ نُعْلِنَ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ الْحَقُّ وَكُلُّ مَا سِوَاهُ فَهُوَ بَاطِلٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}**(٣). وَقَالَ: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}**(٤). وَقَالَ: **{تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}**(٥).

فَالْبَرَاءَةُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُمْ لَا تَمْنَعُ مِنَ الْمُعَايَشَةِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا الْوُجُودُ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَتَقْتَضِيهَا هَذِهِ

---

(١) سورة الممتحنة: ٤.

(٢) سورة آل عمران: ٢٨.

(٣) سورة آل عمران: ٨٥.

(٤) سورة المائدة: ٥١.

(٥) سورة المائدة: ٨٠، ٨١.

الْحَيَاةِ، لَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ وَرَاءِ تِلْكَ الْمُعَايَشَةِ الْمَوَدَّةُ لَهُمْ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ}**[1]. وَقَالَ: **{لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}**[2].

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذِهِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ الظُّلْمُ وَالتَّعَدِّي وَانْتِهَاكُ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى؛ فَالشَّرِيعَةُ جَاءَتْ بِتَنْظِيمِ الْعَلَاقَةِ بَيْنَ النَّاسِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارِ.

وَالْكُفَّارُ أَصْنَافٌ: فَمِنْهُمْ أَهْلُ ذِمَّةٍ، وَهَؤُلَاءِ يَجِبُ رِعَايَةُ حُقُوقِهِمْ وَعَدَمُ التَّعَدِّي عَلَيْهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَهُمُ الَّذِينَ لَهُمْ عَهْدُ الذِّمَّةِ وَيَعِيشُونَ فِي ظِلِّ الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَيْ تَحْتَ حِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَجِبُ الْوَفَاءُ لَهُمْ بِعُهُودِهِمْ. أَمَّا الْمُحَارِبُونَ فَلَهُمُ السَّيْفُ وَالْجِهَادُ.

وَلَكِنَّهُمْ جَمِيعًا يَشْتَرِكُونَ فِي وُجُوبِ بُغْضِهِمْ وَكَرَاهَتِهِمْ، أَيِ الْبُغْضُ وَالْكَرَاهَةُ الدِّينِيَّةُ، حَتَّى لَوْ كَانَ الْوَالِدَانِ عَلَى الْكُفْرِ فَيَجِبُ بُغْضُهُمْ فِي اللهِ، وَهَذَا وَلَا يَنْفِي الْمَحَبَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ لَهُمْ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَقُومَ بِحَقِّهِمُ الشَّرْعِيِّ مِنْ بِرِّهِمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}**[3]. فَالْمَحَبَّةُ الطَّبِيعِيَّةُ لَا تَمْنَعُ مِنَ الْبُغْضِ الدِّينِيِّ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَتِمُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِهِ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا مَحَبَّةُ اجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْحَثُّ عَلَى التَّآلُفِ وَالتَّحَابُبِ وَعَدَمِ التَّقَاطُعِ.

---

(١) سورة الممتحنة: ١.

(٢) سورة المجادلة: ٢٢.

(٣) سورة لقمان: ١٤، ١٥.

هَذَا كُلُّهُ مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ، أَنْ يُحِبَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمُسْلِمُ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ وَمِنْ ثَمَرَاتِ ذَلِكَ الْوَلَاءُ لِلْمُؤْمِنِينَ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»[1].

وَهَذَا يَدْخُلُ فِيمَا سَمَّاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّصِيحَةُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «**إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَةُ إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَةُ إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». فَقِيلَ: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**للهِ وَلِكِتَابِهِ وَرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[2].

فَمَحَبَّةُ عُمُومِ الْمُسْلِمِينَ تَكُونُ بِمَحَبَّةِ الْخَيْرِ لَهُمْ وَمَحَبَّةِ اجْتِمَاعِهِمْ وَبِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بِشَتَّى أَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ، وَالدُّعَاءِ لَهُمْ بِصَلَاحِ الْحَالِ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِ الْإِسْلَامِ مِنْ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ وَرَدِّ السَّلَامِ وَإِبْرَارِ الْمُقْسِمِ وَاتِّبَاعِ الْجَنَازَةِ، هَذَا مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ، وَكُلُّهَا مِنْ ثَمَرَاتِ الْأُخُوَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ، قَالَ تَعَالَى: **{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}**[3]. وَهَذَا أُسْلُوبُ حَصْرٍ، فَقَدْ حَصَرَ عَلَاقَتَهُمْ بِبَعْضِهِمْ أَنَّهُمْ إِخْوَةٌ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَبْرَأُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ مِنَ التَّعَصُّبَاتِ وَالتَّفَرُّقِ وَالتَّبَاغُضِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ هَذِهِ القَاعِدَةَ مِنْ أَهَمِّ قَوَاعِدِ الإِيمَانِ وَلَا يَرَوْنَ الاخْتِلَافَ فِي المَسَائِلِ الَّتِي لَا تَصِلُ إِلَى كُفْرٍ، أَوْ بِدْعَةٍ مُوجِبَةٍ لِلتَّفَرُّقِ.

أَيْ يُحِبُّ أَهْلُ السُّنَّةِ لِلْأُمَّةِ الِاجْتِمَاعَ وَالتَّآلُفَ وَالتَّعَاوُنَ، وَكَذَلِكَ يَبْغَضُونَ مِمَّا يُخَالُ ذَلِكَ وَيَبْرَؤُونَ وَيُبْغِضُونَ التَّفَرُّقَ وَالتَّعَصُّبَاتِ فَاللهُ يَقُولُ: **{وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}**[4].

فَأَمَرَ بِالِاجْتِمَاعِ وَنَهَى عَنِ التَّفَرُّقِ، لِأَنَّ التَّفَرُّقَ يُورِثُ الْعَدَاوَاتِ وَالِاعْتِدَاءَ عَلَى الْمُخَالِفِ بِالْقَوْلِ أَوْ بِالْفِعْلِ.

فَمِنْ مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الِاجْتِمَاعُ وَالدَّعْوَةُ إِلَى ذَلِكَ وَالْحَذَرُ وَالتَّحْذِيرُ مِنَ التَّفَرُّقِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب حلاوة الإيمان (١٦)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان (٤٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة (٥٥)، من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

(٣) سورة الحجرات: ١٠.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٣.

بِسَبَبِ بِدْعَةٍ تُوجِبُ الْمُفَارَقَةَ كَبِدْعَةِ الْجَهْمِيَّةِ وَبِدْعَةِ الْقَدَرِيَّةِ فَيَجِبُ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِمْ وَمُفَارَقَتُهُمْ وَالتَّغْلِيظُ فِي ذَلِكَ.

وَمِنْ سِرِّ هَذِهِ الطَّوَائِفِ الرَّافِضَةِ، فَلَا وَلَاءَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الرَّافِضَةِ، وَلَا نَجْتَمِعُ مَعَهُمْ، اللَّهُمَّ إِلَّا فِي شُغُلِ الْحَيَاةِ مِنْ بَيْعٍ وَشِرَاءٍ وَنَحْوِهِ وَفِي الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ وِئَامٌ وَوِدَادٌ وَإِخَاءٌ فَلَا.

وَلَا نَقُولُ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ إِخْوَانُنَا؛ إِذْ كَيْفَ نُؤَاخِي مَنْ يَدْعُو غَيْرَ اللهِ وَيَسْتَغِيثُ بِالْبَشَرِ ـ بِعَلِيٍّ وَالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ وَيُنَادُونَهُمْ فِي الشَّدَائِدِ وَيَحُجُّونَ إِلَى أَضْرِحَةٍ مُعْظَمُهُمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَيَعْكُفُونَ عِنْدَ تِلْكَ الْقُبُورِ الَّتِي يُعَبِّرُونَ عَنْهَا بِالْمَرَاقِدِ.

وَقَدْ ظَهَرَتِ الْآنَ دَعْوَةُ التَّقْرِيبِ الَّتِي مَبْنَاهَا وَمَقْصُودُهَا أَلَّا يَكُونَ هُنَاكَ خِلَافٌ ظَاهِرٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، وَالْخِلَافُ أَصْلًا وَاقِعٌ وَلَا يُمْكِنُ تَغْيِيرُهُ.

فَإِنَّ مَطْلَبَ التَّقْرِيبِ أَلَّا نُنْكِرَ عَلَيْهِمْ، وَهَذَا كَمَطْلَبِ الْكُفَّارِ أَيْضًا إِذْ يُرِيدُونَ أَلَّا نَطْعُنَ فِي دِينِهِمْ، وَقَدِيمًا أَرَادُوا ذَلِكَ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: **{وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}**(١). أَيْ لَا تُنْكِرُ عَلَيْهِمْ شِرْكَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ وَلَا يُنْكِرُونَ عَلَيْكَ عِبَادَتَكَ لله، وَهَذَا هُوَ الْجَارِي الْآنَ فَهُمْ لَا يُنْكِرُونَ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ، وَإِنَّمَا يُغْضِبُونَ إِذَا أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ وَأَعْلَنَ الْبَرَاءَةَ مِنْهُمْ وَالطَّعْنَ فِيمَا هُمْ عَلَيْهِ.

وَاحْتِرَامُ الْأَدْيَانِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ فِيهِ بَعْضُ النَّاسِ هَذَا بَاطِلٌ مُنْكَرٌ، فَالْمُحْتَرَمُ هُوَ الَّذِي لَهُ اعْتِبَارٌ، لَكِنْ إِذَا أَرَدْنَا احْتِرَامَ الْمُعَاهَدِينَ بِعَدَمِ ظُلْمِهِمْ فَنَحْتَرِمُهُمْ بِمَعْنَى أَنْ نَفِيَ بِعَهْدِهِمْ وَلَا نَتَعَدَّى عَلَيْهِمْ وَنُؤَدِّي حُقُوقَهُمْ، لَا أَنَّ نُصَانِعُ وَنُدَاهِنَ وَنُغْمِضَ الْعَيْنَ عَمَّنْ خَالَفَ الْحَقَّ، بَلْ نُنْكِرَ الْبَاطِلَ فَإِنْكَارُ الْعَقَائِدِ الْبَاطِلَةِ أَهَمُّ مِنْ إِنْكَارِ مَا قَدْ يَظْهَرُ مِنَ الْمَعَاصِي فِي مُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِينَ، فَيَجِبُ إِنْكَارُ مَا يَظْهَرُ مِنَ الْمَعَاصِي وَإِنْكَارُ الْبِدَعِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ.

الْأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: قَرَأْتُ فِي أَحَدِ الْكُتُبِ أَنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِعِلْمٍ يَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ وَسَمِيعٌ يَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَكِنْ لَا أَقُولُ لَهُ سَمْعٌ لِأَنَّ هَذَا لَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. فَمَا قَوْلُكُمْ فِي هَذَا؟

الْجَوَابُ: هَذَا أُسْلُوبٌ مِنَ الْمُغَالَطَةِ وَالتَّلْبِيسِ، فَاللهُ تَعَالَى خَاطَبَ الْعِبَادَ بِمَا يَعْقِلُونَ وَبِمَا يَفْهَمُونَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وَاللهُ تَعَالَى سَمَّى نَفْسَهُ سَمِيعًا وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَمِعَ وَيَسْمَعُ قَالَ تَعَالَى: **{قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا**

(١) سورة القلم: ٩.

وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ}[1].

ثُمَّ يَقُولُ ذَلِكَ الْجَاهِلُ: إِنَّ هَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ سَمْعٌ! هَذِهِ مُكَابَرَةٌ لِلْعُقُولِ وَخُرُوجٌ عَنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ يَسْمَعُ وَلَهُ سَمْعٌ وَكُلُّ اسْمٍ مُتَضَمِّنٍ لِصِفَةٍ. وَهَذَا الْكَلَامُ إِمَّا أَنْ يَصْدُرَ مِنْ مُبْتَدِعٍ مِنْ أَصْحَابِ الطُّرُقِ الْكَلَامِيَّةِ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَوْ جَاهِلٍ قَدْ تَسَرَّبَتْ إِلَيْهِ بَعْضُ الشُّبَهِ وَالتَّلْبِيسَاتِ الَّتِي يُلَبِّسُ بِهَا أَصْحَابُ هَذِهِ الْبِدْعَةِ، فَاللهُ عَلِيمٌ بِعِلْمٍ يَعْلَمُ، وَحَكِيمٌ وَعَزِيزٌ، وَلَهُ سَمْعٌ، وَجَاءَ فِي الْأَثَرِ عَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: سُبْحَانَ مَنْ وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ.

السُّؤَالُ: ذَكَرْتُمْ فِي تَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَنَّهُ لَابُدَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِالِاسْمِ وَالْمَعْنَى وَالْحُكْمِ، فَمَا مَعْنَى اسْمِ اللهِ الْحَيِّ وَمَا حُكْمُهُ؟

الْجَوَابُ: اسْمُهُ الْحَيُّ أَنَّهُ حَيٌّ لَيْسَ بِمَيِّتٍ: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}**[2].

اللهُ تَعَالَى مَوْصُوفٌ بِكُلِّ الْمَعَانِي الَّتِي بِهَا كَمَالُ الْحَيَاةِ، وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: إِنَّ اسْمَهُ الْحَيَّ يَتَضَمَّنُ كُلَّ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَّةِ مِنْ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَعِزَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَفِعْلِهِ. فَهَذَا مُقْتَضَى الْحَيَاةِ، أَنَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ، وَيَذْكُرُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي «التَّدْمُرِيَّةِ» عَنِ الْأَشَاعِرَةِ أَنَّ الصِّفَاتِ السَّبْعَ دَلَّ عَلَيْهَا الْعَقْلُ وَهِيَ الْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ وَالْعِلْمُ وَهَذِهِ الصِّفَاتُ تَسْتَلْزِمُ الْحَيَاةَ، وَالْحَيُّ لَا يَخْلُو عَنِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ أَوْ يَكُونُ أَصَمَّ أَعْمَى أَبْكَمَ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ، يَقُولُ: لَا يَخْلُو عَنِ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ أَوْ ضِدِّ ذَلِكَ وَاللهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ الْجُلُوسِ مَعَ الْكَافِرِ وَالرَّافِضِيِّ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِمْ فِي الْعَمَلِ؟

الْجَوَابُ: هَذَا مِثْلُ الْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الطَّائِرَةِ وَالسُّوقِ وَالْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَإِجْرَاءِ الْعُقُودِ مَعَهُمْ، فَهَذِهِ أُمُورٌ تَقْتَضِيهَا الْحَيَاةُ.

السُّؤَالُ: لَوْ أَظْهَرْنَا الْبُغْضَ الدِّينِيَّ لِلْكُفَّارِ فَكَيْفَ يَتَأَثَّرُ الْكُفَّارُ بِأَخْلَاقِ الْمُسْلِمِينَ؟

الْجَوَابُ: يَبِينُ عِنْدَ الْمُنَاسَبَاتِ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ بَاطِلٌ وَأَنْ نَبْرَأَ إِلَى اللهِ مِنْهُمْ وَنَتَبَرَّأَ مِنْ

(١) سورة المجادلة: ١.

(٢) سورة الفرقان: ٥٨.

دِينِهِمْ فَلَا نُعَظِّمُ الْكَافِرَ وَلَا نُبَجِّلُهُ وَلَا نُلَاطِفُهُ كَمَا نَتَعَامَلُ مَعَ الْمُسْلِمِ.

لَكِنْ لَا نَظْلِمُهُ، بَلْ نُحْسِنُ إِلَيْهِ عِنْدَ اقْتِضَاءِ ذَلِكَ مَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ عُدْوَانٌ وَلَا تَعَدٍّ، فَنَتَعَامَلُ مَعَهُ بِحُقُوقِ الْجَارِ إِنْ كَانَ جَارًا فَلِلْجَارِ حَقٌّ وَلَوْ كَانَ كَافِرًا وَأَوَّلُ ذَلِكَ كَفُّ الْأَذَى، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ شَيْءٌ مِنَ الْإِحْسَانِ خَاصَّةً إِذَا اسْتُشْمِرَ هَذَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ.

السُّؤَالُ: قَوْلُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ تَحْقِيقًا لَا تَعْلِيقًا. هَلْ يَدْخُلُ فِي مَسْأَلَةِ الْإِيمَانِ؟

الْجَوَابُ: لَا، هَذَا تَعْلِيقٌ، فَقَوْلِي: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ اللهُ. هَذَا تَعْلِيقٌ لَيْسَ عَلَى الْمَعْنَى الَّذِي قَالَهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ؛ لِأَنَّ قَوْلَ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مِنْ جِنْسِ: وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ. وَهَذَا شَيْءٌ مُحَقَّقٌ، وَمِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ تَعَالَى: **{لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ}**[1].

السُّؤَالُ: مُسْلِمٌ أُسِرَتْهُ كَافِرَةٌ هَلْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَهُمْ عَدُوًّا بِدُونِ مُشْكِلَةٍ وَأَلَّا يَتَّخِذَهُمْ أَوْلِيَاءَ؟

الْجَوَابُ: يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُبْغِضَهُمْ فِي اللهِ وَأَنْ يَقُومَ بِحَقِّ الْقَرَابَةِ، وَلَا يُعَادِيهِمْ؛ لِأَنَّ الْمُعَادَاةَ بِمَعْنَى أَنْ يُؤْذِيَهُمْ وَيَعْتَدِيَ عَلَيْهِمْ، بَلْ يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيَصِلُهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا}**[2]. فَيَتَعَامَلُ مَعَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ.

السُّؤَالُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُوَالَاةِ وَالتَّوَلِّي؟

الْجَوَابُ:أَنَا لَا أُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُوَالَاةِ وَالتَّوَلِّي، وَالتَّوَلِّي هُوَ الَّذِي كَثُرَ ذِكْرُهُ فِي الْقُرْآنِ، وَبَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: إِنَّ التَّوَلِّي يُوجِبُ الْكُفْرَ. أَيِ التَّوَلِّي بِالنُّصْرَةِ وَالْمَحَبَّةِ كَتَوَلِّي الْمُنَافِقِينَ لِلْكَافِرِينَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَالْمُوَالَاةُ تَكُونُ دُونَ ذَلِكَ فِي أُمُورٍ أُخْرَى.

السُّؤَالُ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَمُرْجِئَةِ الْفُقَهَاءِ؟

الْجَوَابُ: الْمُرْجِئَةُ اسْمٌ أَعَمُّ، يَشْمَلُ مُرْجِئَةَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْكَرَامِيَّةِ وَغَيْرَهُمْ، وَمُرْجِئَةُ الْفُقَهَاءِ طَائِفَةٌ مِنْ طَوَائِفِ الْمُرْجِئَةِ.

السُّؤَالُ: مَنْ فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ أَوَّلَ الْوَقْتِ هَلْ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يُؤَخِّرَهَا إِلَى آخِرِ وَقْتِهَا؟

---

(١) سورة الفتح: ٢٧.

(٢) سورة لقمان: ١٥.

الجَوَابُ: إِذَا فَاتَتْكَ الجَمَاعَةُ فَلَا تُفَوِّتْ فَضِيلَةَ الْوَقْتِ، فَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللهِ الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا.

السُّؤَالُ: هَلْ يَجُوزُ السَّلَامُ عَلَى عَامَّةِ الْمُجَاهِرِينَ بِالْمَعَاصِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ؟ وَهَلِ الْأَفْضَلُ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ أَوْ تَرْكُهُمْ؟

الجَوَابُ: يُسَلِّمُ عَلَى إِخْوَانِهِ كُلِّهِمْ إِلَّا مَنْ ظَهَرَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي هَجْرِهِ تَأْدِيبًا لَهُ وَإِنْكَارًا عَلَيْهِ لَعَلَّهُ أَنْ يَتُوبَ لِأَنَّ الْهَجْرَ مِنْ أَسَالِيبِ الْإِنْكَارِ عَلَى الْعَاصِي، أَمَّا إِذَا لَمْ يَظْهَرْ لِلْهَجْرِ فَائِدَةٌ فَسَلِّمْ وَرُدَّ السَّلَامَ.

السُّؤَالُ: إِذَا ظَلَمَ مُسْلِمٌ شَخْصًا كَافِرًا وَلَمْ يُعْطِهِ حَقَّهُ فَهَلِ الْكَافِرُ يَسْتَوْفِي حَقَّهُ مِنَ الْمُسْلِمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

الجَوَابُ: نَعَمْ يُمْكِنُ ذَلِكَ، فَقَدْ يَكُونُ سَبَبًا فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَابُدَّ مِنَ الْقِصَاصِ وَرَدِّ الْحُقُوقِ، فَلَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ النَّارَ وَلَهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ شَيْءٌ، وَلَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ شَيْءٌ.

السُّؤَالُ: هَلْ تَنْصَحُونَ طَالِبَ الْعِلْمِ بِالزَّوَاجِ مُبَكِّرًا أَوْ مُتَأَخِّرًا؟ وَهَلْ يَجُوزُ الْحَثُّ عَلَى تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ عَلَى الْمَنَابِرِ؟

الجَوَابُ: أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلزَّوَاجِ فَيُنْظَرُ فِي وَصِيَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلْحَثِّ عَلَى تَعَدُّدِ الزَّوْجَاتِ فَهَذَا بِحَسَبِ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

(وَيَتَرَتَّبُ عَلَى الإِيمَانِ مَحَبَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَسَبِ مَرَاتِبِهِمْ وَعَمَلِهِمْ، وَأَنَّ لَهُمْ مِنَ الفَضْلِ وَالسَّوَابِقِ وَالمَنَاقِبِ مَا فُضِّلُوا بِهِ عَنْ سَائِرِ الأُمَّةِ.)

الْإِيمَانُ بِاللهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِفَضَائِلِ الصَّحَابَةِ:

يَقُولُ الشَّيْخُ: إِنَّ الْإِيمَانَ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِفَضْلِ الصَّحَابَةِ وَاعْتِقَادَ أَنَّهُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَلْ كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ.

وَالْإِيمَانُ بِاللهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْإِيمَانُ بِكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ اللهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ وَأَخْبَرَ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ الْقَرْنُ الْأَوَّلُ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِ» أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»[1].

فَالْإِيمَانُ بِفَضْلِهِمْ هُوَ مِنَ الْإِيمَانِ بِكُتُبِ اللهِ وَرُسُلِهِ.

تَعْرِيفُ الصَّحَابِيِّ:

يَقُولُ ابْنُ حَجَرٍ[2] فِي «نُخْبَةِ الْفِكَرِ» فِي تَعْرِيفِ الصَّحَابِيِّ: هُوَ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُؤْمِنًا بِهِ وَمَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَلَوْ تَخَلَّلَ ذَلِكَ رِدَّةٌ فِي الْأَصَحِّ.

وَصُحْبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضِيلَةٌ اخْتَصَّ اللهُ بِهَا أَصْحَابَهُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ نَلْحَقَهُمْ فِيهَا وَلَا أَنْ نَشْرَكَهُمْ فِيهَا؛ لِأَنَّ الصُّحْبَةَ تَعَذَّرَتْ بِمَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

تَفَاضُلُ الصَّحَابَةِ:

وَمِنَ الْإِيمَانِ أَنْ نُؤْمِنَ بِتَفَاضُلِهِمْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ عَلَى مَرَاتِبَ، فَمِنْهُمُ الْمُتَقَدِّمُ وَمِنْهُمُ الْمُتَأَخِّرُ.

وَقَدْ فَصَّلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فِي «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ»، وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَعْتَقِدُونَ مَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب- باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (٣٦٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) هو: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر، الكناني، العسقلاني، الشافعي، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة القاهري. ولد في شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة للهجرة. أصله من عسقلان. ولع بالأدب والشعر ثم أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وأصبح حافظ الإسلام في عصره. توفي سنة ٨٥٢. (الأعلام للزركلي: ١/ ١٧٨).

أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ. وَهَذَا مِنَ التَّفْضِيلِ الشَّخْصِيِّ- الْمُتَعَلِّقِ بِالْمُعَيَّنِينَ، ثُمَّ عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ ثُمَّ بَقِيَّةُ الْعَشَرَةِ، ثُمَّ مَنْ شَهِدَ لَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْجَنَّةِ؛ كَالْعَشَرَةِ وَالْحَسَنِ[1] وَالْحُسَيْنِ[2] وَغَيْرِهِمْ.

وَهُنَاكَ تَفْضِيلَاتٌ جَمَاعِيَّةٌ؛ كَفَضْلِ أَهْلِ بَدْرٍ وَأَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، فَأَهْلُ السُّنَّةِ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[3]. وَبِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**»[4]. وَأَنَّ أَهْلَ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ قَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}**[5].

وَالْإِيمَانُ بِفَضْلِهِمْ يَقْتَضِي مَحَبَّتَهُمْ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ وَالتَّرَضِّي عَنْهُمْ وَذِكْرَهُمْ بِفَضَائِلِهِمْ وَمَآثِرِهِمْ وَمَوَاقِفِهِمْ وَذِكْرَهُمْ بِالْجَمِيلِ، وَلِهَذَا يَقُولُ الطَّحَاوِيُّ[6]: وَنُحِبُّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا نُبْغِضُ أَحَدًا

---

(١) هو: الصحابي الجليل الحسن بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، الإمام السيد، ريحانة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وسبطه، وسيد شباب أهل الجنة، أبو محمد القرشي الهاشمي المدني الشهيد. مولده في شعبان سنة ثلاث من الهجرة. وقيل: في نصف رمضانها. وعق عنه جده بكبش. وحفظ عن جده أحاديث، وعن أبيه، وأمه. قال عنه جده -عليه السلام-: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ». قال البخاري: مات الحسن سنة إحدى وخمسين. انظر: الاستيعاب (ص: ١٧٩ ترجمة ٥٧٢)، والإصابة (٢/ ٦٨ ترجمة ١٧٢١).

(٢) هو: الصحابي الجليل الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف أمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه و سلم يكنى أبا عبد الله ولد لخمس خلون من شعبان سنة أربع وقيل سنة ثلاث، وقال قتادة: ولد الحسين بعد الحسن بسنة وعشرة أشهر لخمس سنين وستة أشهر من التاريخ، وعق عنه رسول الله صلى الله عليه و سلم كما عق عن أخيه وكان الحسين فاضلًا دينًا كثير الصيام والصلاة والحج. الاستيعاب (ص: ١١٦)، والإصابة (٢/ ٧٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير- باب الجاسوس (٣٠٠٧)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم- باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم، وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب السنة- باب في الخلفاء (٤٦٥٣)، والترمذي في كتاب المناقب- باب في فضل من بايع تحت الشجرة (٣٨٦٠)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٦٨٠).

(٥) سورة الفتح: ١٨.

(٦) هو: الإمام العلامة الحافظ الكبير، محدث الديار المصرية وفقيهها، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك، الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي، صاحب التصانيف، من أهل قرية طحا من أعمال مصر. مولده في سنة تسع وثلاثين ومئتين. بدأ حياته

مِنْهُمْ وَلَا نَتَبَرَّأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ بَلْ نُبْغِضُ مَنْ يُبْغِضُهُمْ وَبِغَيْرِ الْخَيْرِ يَذْكُرُهُمْ، وَلَا نَذْكُرُهُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ وَحُبُّهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ. وَهَذَا مِنْ حَقِّهِمْ عَلَيْنَا.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ أَخْسَرَ النَّاسِ فِي هَذَا الْمَقَامِ هُمُ الرَّافِضَةُ؛ لِأَنَّهُمْ يُكَفِّرُونَ الصَّحَابَةَ أَوْ يُفَسِّقُونَهُمْ، بَلْ كُلُّ مَنْ كَانَ فِي أَفْضَلَ فَهُوَ إِلَيْهِ الرَّافِضَةُ أَبْغَضُ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ عَنِ الرَّافِضَةِ: وَلَا يَسْتَثْنُونَ -أَيْ مِنَ الصَّحَابَةِ- إِلَّا نَفَرًا قَلِيلًا مِنْهُمْ. فَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ اللَّذَانِ هُمَا أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ بَلْ أَفْضَلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِمَا صَحَّ فِي السُّنَّةِ مِنْ فَضْلِهِمْ وَسَبْقِهِمْ وَنُصْرَتِهِمْ لِهَذَا الدِّينِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَدِينُونَ بِمَحَبَّتِهِمْ وَنَشْرِ فَضَائِلِهِمْ، وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ أَوْلَى الْأُمَّةِ بِكُلِّ خَصْلَةٍ حَمِيدَةٍ، وَأَسْبَقُهُمْ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَأَبْعَدُهُمْ عَنْ كُلِّ شَرٍّ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ يَدِينُونَ -وَهَذَا مِنْ فُرُوعِ الْإِيمَانِ- بِفَضْلِهِمْ وَخَيْرِيَّتِهِمْ وَمَحَبَّتِهِمْ، وَهَذَا مِنْ آثَارِ الْعِلْمِ مَحَبَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْإِيمَانُ بِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِكُلِّ فَضِيلَةٍ وَبِكُلِّ خَيْرٍ، وَالْإِيمَانُ بِمَا لَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ.

إِنْزَالُهُمْ مَنَازِلَهُمْ:

وَمِمَّا يَدِينُ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ كَذَلِكَ إِنْزَالُ كُلٍّ مِنْهُمْ مَنْزِلَتَهُ، فَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الْأَنْصَارِ، وَيُقَدِّمُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، وَالْمُرَادُ بِالْفَتْحِ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: **{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}**(١). قَالَ تَعَالَى: **{لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ**

شافعيًا ثم تحول إلى الحنفية وانتهت إليه رئاسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. برز في علم الحديث وفي الفقه، وتفقه بالقاضي أحمد بن أبي عمران الحنفي، وجمع وصنف. قال ابن يونس: كان ثقة ثبتا فقيها عارفا لم يخلق مثله. له مؤلفات جياد؛ منها: «شرح مشكل الآثار»، و«شرح معاني الآثار». مات سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٧ ترجمة ١٥)، والجواهر المضية (١/ ٢٧١ ترجمة ٢٠٤).

(١) سورة التوبة: ١٠٠.

الصَّادِقُونَ}[1].

فَلَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرٌ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا ذُكِرَ الْمُهَاجِرُونَ أَوَّلًا فِي كُلِّ الْآيَاتِ، وَصُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ هَذَا حَدٌّ لِمَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ، وَأَهْلُ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ كُلُّهُمْ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ وَهُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: **{لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ}**[2].

السُّكُوتُ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ:

وَمِنْ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ -عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ- بِفَضْلِهِمْ عَدَمُ الْخَوْضِ فِيمَا جَرَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنْ فِتَنٍ؛ كَالَّذِي جَرَى فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ مِنَ الْقِتَالِ فِي مَوْقِعَةِ الْجَمَلِ وَصِفِّينَ، وَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الْأَحْدَاثِ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ.

يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ[3] **فِي «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ»**: وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ.

ثُمَّ قَالَ: وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَاذِبٌ وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ. وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

قَالَ: وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ.

فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَحْدَاثُ مَوْضِعَ تَدَارُسٍ وَتَسْلِيَةٍ، إِلَّا عِنْدَ اقْتِضَاءِ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا كَيْ يُبَيَّنَ الصَّحِيحَ مِنَ السَّقِيمِ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ، وَيَكُونُ الْكَلَامُ فِي هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْإِجْمَالِ.

---

(١) سورة الحشر: ٨.

(٢) سورة الفتح: ١٨.

(٣) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد ابن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، شيخ الإسلام (تقي الدين أبو العباس) محدث، حافظ، مفسر، فقيه، مجتهد، مشارك في أنواع من العلوم، ولد في حران سنة ٦٦١هـ، ومات معتقلا بقلعة دمشق سنة ٧٢٨هـ. من مصنفاته الكثيرة: مجموعة فتاويه، السياسية الشرعية في إصلاح الراعي والرعية. (الأعلام للزركلي: ١/ ١٤٤).

وَأُنَبِّهُ إِلَى أَمْرٍ مُهِمٍّ وَهُوَ أَنْ بَعْضَ النَّاسِ يُسَجِّلُ تِلْكَ الْأَحْدَاثِ عَلَى أَشْرِطَةٍ لِيَسْمَعَهَا النَّاسُ، وَقَدْ أَنْكَرَ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ وَحَرَّمُوا إِشَاعَتَهُ وَتَرْوِيجَ تِلْكَ الْأَشْرِطَةِ، وَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مُخْطِئًا مُفْسِدًا غَيْرَ مُصْلِحٍ، مُسِيئًا لَا مُحْسِنًا؛ لِأَنَّ فِي هَذَا إِفْسَادٌ لِتَصَوُّرَاتِ النَّاسِ عَنِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ الأُمَّةَ لَا تَسْتَغْنِي عَنْ إِمَامٍ يُقِيمُ لَهَا دِينَهَا وَدُنْيَاهَا، وَيَدْفَعُ عَنْهَا عَادِيَةَ الْمُعْتَدِينَ.

هَذِهِ مَسْأَلَةٌ فِقْهِيَّةٌ عَقَدِيَّةٌ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ نَصْبِ الْإِمَامِ، فَالْوَاجِبُ نَصْبُ إِمَامٍ لِلْأُمَّةِ لِأَنَّهُ لَا يَسْتَقِيمُ أَمْرُ النَّاسِ إِلَّا بِقِيَادَةٍ، فَعِنْدَ الِاخْتِلَافِ يَجِبُ التَّعَاوُنُ عَلَى تَعْيِينِ إِمَامٍ يَقُومُ بِمَصَالِحِ الْأُمَّةِ فِي أَمْرِ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ مَسْئُولٌ عَنْ إِقَامَةِ شُئُونِ الْأُمَّةِ فِي دِينِهَا فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَفِي أَمْرِ الدُّنْيَا بِإِقَامَةِ الْمَصَالِحِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا النَّاسُ.

فَتَرْكُ النَّاسِ بِلَا إِمَامٍ وَحَاكِمٍ يُؤَدِّي بِهِمْ إِلَى الْفَوْضَى فَلَا يُنْصَرُ مَظْلُومٌ وَلَا يُؤْخَذُ حَقٌّ مِنْ ظَالِمٍ وَتَضِيعُ الْحُقُوقُ بِذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ: يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِكُلِّ مَنْ تَمَّتْ لَهُ الْإِمَامَةُ وَالْبَيْعَةُ وَالْوِلَايَةُ.

الْوِلَايَةُ تَثْبُتُ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ:

وَالْوِلَايَةُ تَثْبُتُ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ لَا بِاتِّفَاقِ الدَّهْمَاءِ وَالْعَامَّةِ، كَمَا يَقُومُ عَلَيْهَا نِظَامُ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالِانْتِخَابِ، وَقَلَّدَهُمُ الْمُسْلِمُونَ فِي ذَلِكَ تَقْلِيدًا صُورِيًّا لَا حَقِيقَةَ لَهُ، فَانْتِخَابُ الرَّئِيسِ بِالنِّظَامِ الْأُمَمِيِّ لَيْسَ شَرْعِيًّا وَلَا عَقْلِيًّا، لِأَنَّ الدَّهْمَاءَ وَعَامَّةَ النَّاسِ لَا شَأْنَ لَهُمْ فِي هَذَا الْأَمْرِ لِأَنَّ جُمْهُورَ النَّاسِ إِنَّمَا يَخْتَارُونَ مَنْ يُوَافِقُ أَهْوَاءَهُمْ، وَلِذَا تَقُومُ تِلْكَ الِانْتِخَابَاتُ عَلَى الْوُعُودِ بِتَحْقِيقِ الرَّغَبَاتِ.

إِنَّمَا يُعَوَّلُ فِي اخْتِيَارِ الْوَالِي عَلَى أَهْلِ الْعَقْلِ وَأَهْلِ النَّظَرِ وَأَهْلِ الشَّوْكَةِ.

وَالنِّسَاءُ لَا شَأْنَ لَهُنَّ فِي الِانْتِخَابَاتِ، وَلَا يَحِقُّ لَهُنَّ التَّصْوِيتَ فَالتَّصْوِيتُ لِلرِّجَالِ الْعُقَلَاءِ الْأَعْيَانِ ذَوِي الْخِبْرَاتِ وَالْقُدْرَاتِ.

أَمَّا عَنْ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ فَيَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: إِنَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ ثَبَتَتْ حُكْمًا بِالنَّصِّ، وَثَبَتَتْ فِعْلًا بِالِاخْتِيَارِ، فَتَمَّتْ لَهُ الْوِلَايَةُ بِالِاتِّفَاقِ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ.

وَتَثْبُتُ الْوِلَايَةُ بِعَهْدِ الْإِمَامِ الْأَوَّلِ؛ كَمَا ثَبَتَتْ لِعُمَرَ بِعَهْدٍ مِنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَاتَّفَقَ عَلَيْهَا الصَّحَابَةُ

وَرَضُوا بِالْخَلِيفَةِ الرَّاشِدِ، وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اخْتِيَارٌ وَلَا تَشَاوُرٌ فِي الْأَمْرِ، فَانْتَقَلَتِ الْوِلَايَةُ إِلَى عُمَرَ تِلْقَائِيًّا.

ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ ثَبَتَتْ خِلَافَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالتَّشَاوُرِ؛ لِأَنَّ عُمَرَ لَمْ يَعْهَدْ لِمُعَيَّنٍ بَلْ جَعَلَ الْأَمْرَ شُورَى فِي سِتَّةٍ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ مِمَّنْ مَاتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاضٍ عَنْهُمْ وَهُمْ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ[1] وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ[2] وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ[3].

وَقَامَ بِدَوْرِ الْمُشَاوَرَةِ وَاسْتِفْتَاءِ الْأَعْيَانِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَكَانَ الْأَمْرُ دَائِرًا بَيْنَ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ثُمَّ تَمَّتِ الْبَيْعَةُ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ بِاتِّفَاقِ الصَّحَابَةِ.

ثُمَّ بُويِعَ لِعَلِيٍّ مَعَ اخْتِلَافٍ بَيْنَ الْأُمَّةِ فَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ اتِّفَاقٌ عَلَى الْمُبَايَعَةِ لَكِنْ بَايَعَ عَلِيًّا خِيَارُ الصَّحَابَةِ وَكِبَارُهُمْ وَلَمْ يُنَازِعْ فِي أَوْلَوِيَّتِهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْخِلَافَةِ أَحَدٌ، وَإِنَّمَا امْتَنَعَ أَهْلُ الشَّامِ عَنْ مُبَايَعَتِهِ لِشُبُهَاتٍ وَأَهَمُّهَا الْمُطَالَبَةُ بِقَتَلَةِ عُثْمَانَ، وَجرَى مَا جَرَى، وَكُلُّ ذَلِكَ بِقَدَرِ اللهِ وَلِلهِ فِي ذَلِكَ الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ.

وَتَأْكِيدًا لِحَاجَةِ النَّاسِ إِلَى إِمَامٍ نَصَّ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ الْوِلَايَةَ تَثْبُتُ بِالْغَلَبَةِ، فَمَنْ قَهَرَ النَّاسَ بِسَيْفِهِ وَخَضَعَ النَّاسُ لَهُ وَجَبَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لَهُ بِالْمَعْرُوفِ.

الْمَقْصُودُ أَنَّ مِنْ عَقِيدَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمِنْ مَنْهَجِهِمْ أَنَّهُ يَجِبُ نَصْبُ إِمَامٍ لِلْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ جَاءَتِ

---

(١) هو: عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف، أبو محمد، الزهري القرشي: صحابي، من أكابرهم. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام، وكان من الأجواد الشجعان العقلاء. ولد بعد الفيل بعشر سنين. وأسلم، وشهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها. وفاته في المدينة سنة ٣٢هـ. (أسد الغابة: ١/ ٧٠٨).

(٢) هو: الصحابي الجليل عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشي الأسدي. أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق. ولد عام الهجرة، وحفظ عن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو صغير، وحدث عنه بجملة من الحديث. بويع بالخلافة سنه أربع وستين عقب موت يزيد بن معاوية ولم يتخلف عنه إلا بعض أهل الشام وهو أول مولود ولد للمهاجرين بعد الهجرة وحنكه النبي -صلى الله عليه وسلم- وسماه باسم جده وكناه بكنيته. قُتل في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة. انظر: الاستيعاب (ص: ٣٩٩ ترجمة ١٣٧٥)، الإصابة (٤/ ٨٩ ترجمة ٤٦٨٥).

(٣) هو: الصحابي الجليل طلحة بن عبيد الله بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي التيمي، أبو محمد. أحد العشرة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبي بكر، وأحد الستة أصحاب الشورى. شهد المشاهد كلها. قُتل -رضي الله عنه- في وقعة الجمل لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين. انظر: الاستيعاب (ص: ٣٥٩ ترجمة ١٢٥٥)، والإصابة (٣/ ٥٢٩ ترجمة ٤٢٧٠).

النُّصُوصُ تُؤَكِّدُ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ وَلُزُومَ الْجَمَاعَةِ فَقَدْ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ إلا أَنْ يَرْجِعَ**»(١).

وَكُلُّ ذَلِكَ لِاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ؛ لِأَنَّ الْمُنَازَعَةَ تُؤَدِّي إِلَى شَرٍّ مُسْتَطِيرٍ كَمَا ثَبَتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ(٢) قَالَ: بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَالْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ وَعَلَى أَثَرَةٍ عَلَيْنَا وَعَلَى أَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بِالْحَقِّ أَيْنَمَا كُنَّا لاَ نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ(٣).

حَتَّى وَلَوْ حَصَلَ ذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ الْمُنَازَعَةُ وَالْخُرُوجُ عَلَى الْإِمَامِ إِلَّا مَعَ الْقُدْرَةِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَلَا تَتِمُّ إِمَامَتُهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى.

هَذَا أَمْرٌ بَدَهِيٌّ، فَلَا تَتِمُّ إِمَامَةُ الْوَالِي إِلَّا بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَهُ.

لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ الطَّاعَةُ لِلْإِمَامِ الشَّرْعِيِّ عَنْ رِضًا وَإِيمَانٍ وَامْتِثَالِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، وَتَكُونَ الطَّاعَةُ لَهُ دِيَانَةً لَا خَوْفًا.

فَعَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ.

وَمِنْ مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي مُعَامَلَةِ أَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ أَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ الْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ بَلْ يُحَرِّمُونَهُ وَإِنْ جَارُوا.

فَلَا يَرَوْنَ الْخُرُوجَ عَلَيْهِمْ، وَلَا يَنْزِعُونَ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَيُوجِبُونَ طَاعَتَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْصَحُونَ لَهُمْ، وَيَدْعُونَ اللهَ لَهُمْ بِالصَّلَاحِ وَالْمُعَافَاةِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ غَرَضُ أَهْلِ الْعِلْمِ الِاسْتِفَادَةَ مِنْ هَذَا الْوَالِي مِنْ مَالٍ أَوْ مَنْصِبٍ أَوْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣) كتاب الأمثال- باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، من حديث الحارث الأشعري رضي الله عنه، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٢٤).

(٢) هو: الصحابي الجليل عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن الخزرج، أبو الوليد، الأنصاري، الخزرجي، شهد بدرًا، وكان أحد النقباء بالعقبة، وآخى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بينه وبين أبي مرثد الغنوي. شهد المشاهد كلها بعد بدر. قال ابن يونس: شهد فتح مصر، وكان أمير ربع المدد. مات سنة أربع وثلاثين، وقيل: إنه عاش إلى سنة خمس وأربعين. انظر: الاستيعاب (ص٤٦٩ ترجمة ١٦٧٤)، والإصابة (٣/ ٦٢٤ ترجمة ٤٥٠٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام- باب كيف يبايع الإمام الناس (٧١٩٩)، ومسلم في كتاب الإمارة- باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية(١٧٠٩).

وَظِيفَةٍ، بَلْ يَدِينُونَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ طَاعَةً للهِ وَرَسُولِهِ بِالْمَعْرُوفِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يَتِمُّ الإِيمَانُ إِلَّا بِالأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ بِاليَدِ وَإِلَّا بِاللِّسَانِ وَإِلَّا فَبِالقَلْبِ، عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَطُرُقِهِ المَرْعِيَّةِ.

مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الطَّاعَةِ للهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَقَدْ عَدَّهُ الْمُعْتَزِلَةُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ.

لَكِنْ يُعْلَمُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ يَكُونُ بِحَسَبِ الِاسْتِطَاعَةِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[1].

وَالتَّغْيِيرُ بِالْيَدِ لَهُ اعْتِبَارَاتٌ وَشُرُوطٌ، فَهُنَاكَ أُمُورٌ لَيْسَتْ مِنْ صَلَاحِيَّةِ الْفَرْدِ، وَهُنَاكَ مَا يَدْخُلُ فِي صَلَاحِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَوِلَايَتِهِ.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعِ التَّغْيِيرَ بِالْيَدِ فَيُنْكِرُ بِالْبَيَانِ وَالزَّجْرِ.

فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ فَبِقَلْبِهِ، وَهَذَا أَضْعَفُ الْإِيمَانِ أَيْ مِنْ جِهَةِ الْأَثَرِ وَالتَّأْثِيرِ، وَإِلَّا فَمَنْ كَانَتْ لَهُ رَغْبَةٌ صَادِقَةٌ فِي التَّغْيِيرِ وَلَكِنَّهُ عَاجِزٌ وَفِي قَلْبِهِ الْحُرْقَةُ وَالْبَغْضَاءُ لِهَذَا الْمُنْكَرِ فَهُوَ بِدَرَجَةِ مَنْ غَيَّرَ بِيَدِهِ، فَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَضْعَفُ الإيمانِ». هَذَا مِنْ حَيْثُ الْفِعْلِ أَيْ هَذَا أَقَلُّ مَا يُسْتَطَاعُ.

وَالتَّغْيِيرُ وَالْإِنْكَارُ بِالْقَلْبِ يَكُونُ بِبُغْضِ الْمُنْكَرِ وَالرَّغْبَةِ فِي إِزَالَتِهِ وَمَحَبَّةِ أَنْ يَقُومَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْقُدْرَةِ بِتَغْيِيرِهِ وَإِزَالَتِهِ.

وَالْمَطْلُوبُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِزَالَةُ الْمُنْكَرِ أَوْ تَخْفِيفُهُ، أَمَّا إِذَا كَانَ التَّغْيِيرُ يُؤَدِّي إِلَى زِيَادَةِ الْمُنْكَرِ فَلَا يَجُوزُ تَغْيِيرُهُ حِينَئِذٍ.

وَهَذِهِ قَاعِدَةٌ جَلِيلَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ: **أَلَّا يُفْضِيَ إِلَى مُنْكَرٍ أَعْظَمَ مِنْهُ.**

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ الْخُرُوجُ عَلَى الْحُكَّامِ، فَإِنَّ هَذَا مِنْ أُصُولِ الْمُعْتَزِلَةِ كَمَا تَقَدَّمَ، وَيُدْخِلُونَ فِيهِ الْخُرُوجَ عَلَى الْوُلَاةِ بِاسْمِ رَفْعِ الظُّلْمِ وَإِقَامَةِ الْعَدْلِ –زَعَمُوا– وَلَكِنَّ هَذَا يُؤَدِّي إِلَى فَسَادٍ عَرِيضٍ وَإِلَى وُقُوعِ مُنْكَرَاتٍ كَثِيرَةٍ أَعْظَمَ مِنَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الْمُنْكَرِ الْقَائِمِ، فَيَبْقَى الْمُنْكَرُ الْأَوَّلُ، وَتَحْدُثُ مُنْكَرَاتٌ بِسَبَبِ هَذَا الْخُرُوجِ.

وَيُنَبِّهُ الشَّيْخُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْوَاجِبِ سُلُوكُهَا فيقول: **عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَطُرُقِهِ الْمَرْعِيَّةِ.**

أَيْ لَا يَكُونُ الْإِنْكَارُ كَمَا يَحْلُو لِلْمُحْتَسِبِ أَوْ يَحْلُو لِلْغَيُورِ، بَلْ لَابُدَّ مِنَ التَّقَيُّدِ بِالشَّرْعِ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُغَيِّرَ وَيُنْكِرَ بِهَوَاهُ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ كَسَائِرِ الْأَعْمَالِ يُشْتَرَطُ فِيهِ الشُّرُوطُ الْمَعْرُوفَةُ فِي سَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي أَوَّلُهَا الْإِخْلَاصُ؛ فَلَا يَكُونُ لِمَحْمَدَةٍ وَلَا لِأَجْلِ أَغْرَاضٍ أُخْرَى.

وَثَانِيًا أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ عَلَى وَفْقِ هَدْيِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَالْأَعْرَابِيُّ لَمَّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ ثَارَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ غَضَبًا لله وَلِحُرْمَةِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعُوهُ وَلَا تُزْرِمُوهُ**» فَتَرَكُوهُ حَتَّى بَالَ. ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لَا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلَا الْقَذَرِ إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»(١). فَكَانَ نَتِيجَةَ ذَلِكَ أَنْ أَحَبَّ الْأَعْرَابِيُّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرِفْقِهِ بِهِ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِ، وَلَوْ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الصَّحَابَةَ لِغَضَبِهِمْ لَرُبَّمَا ضُرِبَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ الْجَاهِلُ وَنَفَرَ مِنَ الْإِسْلَامِ، فَلَابُدَّ مِنَ الِانْضِبَاطِ وَالتَّقَيُّدِ بِالشَّرْعِ وَلَابُدَّ مِنَ النَّظَرِ إِلَى النَّتَائِجِ وَالْعَوَاقِبِ.

يَقُولُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ»: وَمِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ. وَذَلِكَ هُوَ مَا عَنَاهُ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: **عَلَى حَسَبِ مَرَاتِبِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَطُرُقِهِ الْمَرْعِيَّةِ.**

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَبِالْجُمْلَةِ فَيَرَوْنَ الْقِيَامَ بِكُلِّ الْأُصُولِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ مِنْ تَمَامِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ.

أَيْ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ يَرَوْنَ الْقِيَامَ بِدِينِ اللهِ وَبِأُصُولِهِ عَلَى مُوجِبِ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهَذَا إِجْمَالٌ لِمَا سَبَقَ.

الْأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: هَلْ تَنْصَحُونَ طَالِبَ الْعِلْمِ بِمَعْرِفَةِ الصَّحِيحِ مِمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ كَيْ يَرُدَّ كُلَّ كَذِبٍ عَنْهُمْ؟

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوضوء- باب صب الماء على البول في المسجد (٢٢١)، ومسلم في كتاب الطهارة- باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات (٢٨٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الْجَوَابُ: يُمْكِنُ ذَلِكَ بِأَنْ يُرَكِّزَ عَلَى الْكَذِبِ، وَأَمَّا الصَّحِيحُ فَلَا يُبْرِزُهُ وَيَنْشُرُهُ، بَلْ يُرَكِّزُ عَلَى الْكَذِبِ وَمَا لَمْ يَثْبُتْ.

السُّؤَالُ: هَلْ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ طَاعَةُ الرَّئِيسِ الْكَافِرِ فِي بَلَدٍ كَافِرٍ؟

الْجَوَابُ: رَغْمًا عَنْ أَنْفِهِ.

السُّؤَالُ: إِذَا كَانَ فِي بَعْضِ الدُّوَلِ الْكَافِرَةِ رَئِيسٌ مُسْلِمٌ هَلْ تَجِبُ طَاعَتُهُ تَدَيُّنًا؟

الْجَوَابُ: إِذَا كَانَ هَذَا الرَّئِيسُ الْمُسْلِمُ لَهُ الْكَلِمَةُ الْمَسْمُوعَةُ فَتَجِبُ طَاعَتُهُ.

السُّؤَالُ: مَنْ هُمُ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ تَسْتَثْنِيهِمُ الرَّافِضَةُ؟

الْجَوَابُ: مِنْهُمْ أَبُو ذَرٍّ(١) وَعَمَّارٍ(٢) وَسَلْمَانَ(٣).

السُّؤَالُ: قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ**»(٤). كَيْفَ وَقَدْ رَآهَا آدَمُ؟

الْجَوَابُ: أَوَّلًا الْجَنَّةُ الَّتِي كَانَ فِيهَا آدَمُ مُخْتَلَفٌ فِيهَا هَلْ هِيَ جَنَّةُ عَدْنٍ الَّتِي أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُتَّقِينَ أَمْ هِيَ جَنَّةٌ

---

(١) هو: جندب بن جنادة بن سفيان ، من بني غفار، من كنانة بن خزيمة، أبو ذر: صحابي، من كبارهم. قديم الإسلام، يقال أسلم بعد أربعة وكان خامسا. يضرب به المثل في الصدق. وهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الإسلام. أمره عثمان بالرحلة إلى الربذة (من قرى المدينة) فسكنها إلى أن مات سنة ٣٢هـ. (الإصابة في تمييز الصحابة: ٧/ ١٢٥).

(٢) هو: عمار بن ياسر بن عامر الكناني المذحجي العنسي القحطاني، أبو اليقظان: صحابي، من الولاة الشجعان ذوي الرأي. وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به. هاجر إلى المدينة، وشهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقبه: «الطيب المطيب» وقتل في موقعة صفين سنة ٣٧هـ. (تهذيب الكمال: ٢١/ ٢١٧).

(٣) هو: الصحابي الجليل سلمان أبو عبد الله الفارسي ويقال له سلمان بن الإسلام وسلمان الخير وقال ابن حبان: من زعم أن سلمان الخير آخر فقد وهم أصله من رامهرمز وقيل من أصبهان وكان قد سمع بأن النبي صلى الله عليه و سلم سيبعث فخرج في طلب ذلك فأسر وبيع بالمدينة فأشتغل بالرق حتى كان أول مشاهده الخندق وشهد بقية المشاهد وفتوح العراق وولي المدائن وقال ابن عبد البر: يقال إنه شهد بدرا وكان عالمًا زاهدا. توفي سنة ثلاث وثلاثين بالمدائن. انظر: الإصابة (٣/ ١٤١/ ٣٣٥٩)، وأسد الغابة (٢/ ٤٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب قوله تعالى: {فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} (٤٧٧٩)، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أُخْرَى، وَإِنْ كَانَ ابْنُ الْقَيِّمِ[1] يُرَجِّحُ أَنَّهَا جَنَّةُ عَدْنٍ، ثُمَّ إِنَّ الْجَنَّةَ لَيْسَتْ عَلَى حَالِهَا الْأَوَّلِ، فَالْجَنَّةُ تَنْمُو كَمَا فِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا لَقِيَ إِبْرَاهِيمَ فِي الْإِسْرَاءِ قَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ وَأَنَّهَا قِيعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ وَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ»[2]. فَاللهُ تَعَالَى وَكَّلَ بِهَا مَلَائِكَةً يُنَمُّونَهَا غَرْسًا وَبِنَاءً، فَحَدَثَ فِي الْجَنَّةِ وَيَحْدُثُ فِيهَا مِمَّا لَمْ يَرَهُ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

السُّؤَالُ: إِذَا كَانَ عِنْدِي زَكَاةٌ قَلِيلَةٌ وَلِي أَقَارِبُ وَجِيرَانٌ فُقَرَاءُ وَلَا أَسْتَطِيعُ الْقِسْمَةَ بَيْنَهُمْ فَمَنْ أُقَدِّمُ؟

الْجَوَابُ: يُقَدَّمُ الْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبُ.

السُّؤَالُ: هَلِ الصَّلَاةُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ؟

الْجَوَابُ: هَذَا يَنْبَنِي عَلَى الْخِلَافِ فِي حُكْمِ تَارِكِ الصَّلَاةِ.

السُّؤَالُ: حَدِيثُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْإِيمَانِ وَأَنَّهُ: «**بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً**»[3]. وَفِي رِوَايَةٍ: «**بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً**»[4]. كَيْفَ نَتَعَامَلُ مَعَ الِاخْتِلَافِ فِي الْعَدَدَيْنِ؟ وَهَلِ الْعَدَدُ مَقْصُودٌ؟

الْجَوَابُ: مَا عَلِمْتَهُ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ فَاعْمَلْ بِهِ وَآمِنْ بِهِ، أَمَّا الْعَدَدُ فَلَا بُدَّ أَنَّهُ مَقْصُودٌ، وَلَكِنْ يَقُولُ الْأُصُولِيُّونَ: لَا مَفْهُومَ لِلْعَدَدِ. فَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لِلشُّعْبَةِ الْوَاحِدَةِ عِدَّةُ شُعَبٍ نَاتِجَةٌ عَنْهَا فَتَتَعَدَّدُ الشُّعَبُ فَيَزِيدُ الْعَدَدُ.

السُّؤَالُ: وَجَدْتُ وَسَائِلَ حَدِيثَةً لِإِنْزَالِ الْمَطَرِ مِنَ السَّمَاءِ بِصَبِّ كَمِّيَّةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْمِلْحِ عَلَى السَّحَابِ كَيْفَ نُوَجِّهُ هَذِهِ الْوَسِيلَةَ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ إِنْزَالَ الْغَيْثِ مِمَّا اخْتُصَّ اللهُ بِهِ وَكَيْفَ نُبَيِّنُ اخْتِصَاصَ اللهِ بِهِ لِلنَّاسِ؟

---

(١) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين ابن القيم الجوزي: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده سنة ٦٩١هـ في دمشق، ووفاته سنة ٧٥١هـ في دمشق أيضا. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. (الأعلام للزركلي: ٦/ ٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات- باب ما جاء في فضل التسبيح والتكبير والتهليل والتحميد (٣٤٦٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ١٧٣/ ١٠٣٦٣)، وفي «المعجم الأوسط» (٤١٧٠)، وفي «المعجم الصغير» (٥٣٩)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٣١٥)، وقال: «ضعيف».

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان- باب أمور الإيمان (٩)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجَوَابُ: هَذَا الْفِعْلُ هُوَ مِنْ قَدَرِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ وَلَيْسَ خَارِجًا عَنْ ذَلِكَ، وَاللهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَهُمْ هَذِهِ الْمَادَّةَ وَهُوَ الَّذِي قَدَّرَ لَهُمْ أَنْ يَطِيرُوا فَوْقَ السَّحَابِ فَذَلِكَ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَى قُدْرَةِ اللهِ، وَهَذِهِ مِنْ مُحَاوَلَاتِ الْبَشَرِ لِيَدَّعُوا لِأَنْفُسِهِمُ الْقُدْرَةَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَإِنَّ قُدْرَتَهُمْ لَا تُسَاوِي شَيْئًا، فَلَا يُسَاوِي ذَلِكَ ذَرَّةً مِنْ عِلْمِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ.

السُّؤَالُ: ذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ فِي بَعْضِ الصَّحَابَةِ تَشَيُّعٌ فَمَا مَعْنَى ذَلِكَ التَّشَيُّعِ؟

الْجَوَابُ: رُبَّمَا يَقْصِدُونَ مَنْ نَاصَرَ عَلِيًّا بِالْمُبَايَعَةِ وَالْقِتَالِ مَعَهُ فَهَذَا صَحِيحٌ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ.

السُّؤَالُ: مَنْ هُمْ أَهْلُ الْفَتْرَةِ وَمَا الْحُكْمُ فِيهِمْ؟

الجَوَابُ: أَهْلُ الْفَتْرَةِ هُمُ الَّذِينَ نَشَئُوا فِي وَقْتِ انْقِطَاعِ آثَارِ النُّبُوَّةِ، وَحُكْمُهُمْ عِنْدَ اللهِ مُخْتَلَفٌ فِيهِ؛ لَكِنْ مِنْ أَحْسَنِ مَا قِيلَ أَنَّهُمْ مِثْلُ الصُّمِّ الْبُكْمِ وَالْمَجَانِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَإِنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُحْكُمُ اللهُ فِيهِمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُهُ وَعِلْمُهُ وَعَدْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ الْعَادَةِ السِّرِّيَّةِ؟

الجَوَابُ: حَرَامٌ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ مَنْ يَقُولُ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ: يَا يَهُودِيُّ؟

الجَوَابُ: هَذَا مِنْ كَبَائِرِ الذُّنُوبِ لِأَنَّهُ كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «**أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ**»(١). إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ. وَمَعْنَى يَا يَهُودِيُّ أَنَّهُ كَافِرٌ خَارِجٌ عَنِ الْإِسْلَامِ وَهَذَا سَبٌّ عَظِيمٌ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ سَمَاعِ الْأَنَاشِيدِ؟

الجَوَابُ: إِذَا كَانَ الشِّعْرُ طَيِّبًا وَمُفِيدًا وَكَانَ بِالتَّلْحِينِ الْعَادِي لَيْسَ فِيهِ غَنْجٌ وَلَا مُؤَثِّرَاتٌ صَوْتِيَّةٌ فَلَا بَأْسَ بِهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَذَلِكَ اقْتِرَابٌ مِنْ أَصْحَابِ الْغِنَاءِ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب من كفَّر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٦١٠٤)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر (٦٠)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

الأَصْلُ الخَامِسُ: طَرِيقُهُمْ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ يَعْتَقِدُونَ وَيَلْتَزِمُونَ أَنْ لَا طَرِيقَ إِلَى اللهِ وَإِلَى كَرَامَتِهِ إِلَّا بِالعِلْمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ.

هَذَا الْأَصْلُ شَامِلٌ لِكُلِّ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأُصُولِ: فَيَشْمَلُ التَّوْحِيدَ بِالتَّفْصِيلِ الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّيْخُ وَالْأَصْلَ الثَّانِيَ النُّبُوَّاتِ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَكَذَلِكَ أَصْلَ مُسَمَّى الْإِيمَانِ وَمَا يَدْخُلُ فِيهِ وَمَا يَقْتَضِيهِ، وَهُوَ طَرِيقَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي الْعِلْمِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي وَغَيْرِهَا، وَالْعَمَلَ بِذَلِكَ الْعِلْمِ.

فَهُوَ إِجْمَالٌ لِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَذَا هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: **{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}**[1]. فَفَسَّرَ الْهُدَى بِالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَدِينَ الْحَقِّ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَهَذَا الْأَصْلُ بِهَذَا الْمَعْنَى وَبِهَذَا الشُّمُولِ هُوَ طَرِيقُ السَّعَادَةِ، وَهُوَ دِينُ اللهِ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي شَرَعَ اللهُ لَنَا أَنْ نَسْأَلَهُ الْهِدَايَةَ إِلَيْهِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}**[2].

اهْدِنَا: أَيْ عَلِّمْنَا وَأَعِنَّا وَوَفِّقْنَا وَسَدِّدْنَا.

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ: هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي هُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، وَهَذَا هُوَ صِرَاطُ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِمْ -النِّعْمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ التَّامَّةَ- وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ، هَؤُلَاءِ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْعِلْمِ بِدِينِ اللهِ وَالْعَمَلِ بِهِ.

وَفِي مُقَابِلِ ذَلِكَ طَرِيقَانِ: طَرِيقُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ؛ فَالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَانَدُوا وَرَفَضُوهُ وَتَرَكُوهُ وَلَمْ يَقُومُوا بِهِ وَأَخَصُّ النَّاسِ بِذَلِكَ الْيَهُودُ. وَالطَّرِيقُ الثَّانِي طَرِيقُ الضَّالِّينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِلَا هُدًى وَلَا بَصِيرَةٍ، فَيَتَعَبَّدُونَ لَكِنْ عَلَى غَيْرِ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَخَصُّ النَّاسِ بِهَذَا الضَّلَالِ هُمُ النَّصَارَى، وَاللهُ تَعَالَى فَصَّلَ ذَلِكَ فِي آيَاتٍ فَقَالَ: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}**[3]. وَقَالَ فِي النَّصَارَى: **{قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ**

(١) سورة التوبة: ٣٣.

(٢) سورة الفاتحة: ٦.

(٣) المجادلة: ١٤.

ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}[1].

وَبَعْدَ أَنْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي «الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ» مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ فَقَالَ: فَلَا عُدُولَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ هُوَ دِينُ اللهِ، هُوَ طَرِيقُ اللهِ، هُوَ طَرِيقُ النَّجَاةِ، هُوَ طَرِيقُ السَّعَادَةِ، وَطَرِيقُ الْفَلَاحِ، فَمَنْ سَارَ عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ كَانَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ قَالَ تَعَالَى: **{ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}**[2].

وَالْهُدَى إِذَا أُفْرِدَ فَإِنَّهُ يَشْمَلُ الْهُدَى فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَإِذَا اقْتَرَنَ مَعَ الدِّينِ الْحَقِّ يُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا، فَاللَّفْظَانِ يَتَّحِدُ مَعْنَاهُمَا إِذَا اجْتَمَعَا كَمَا ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَغَيْرُهُ فِي مُسَمَّى الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ.

وَيَدْخُلُ فِي الْهُدَى كُلُّ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ الْأَخْبَارِ الَّتِي تُوجِبُ اعْتِقَادًا، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَا فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ التَّشْرِيعَاتِ وَالْأَحْكَامِ، مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ وَالْمُبَاحَاتِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ كُلُّهَا مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ.

وَبَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ارْتِبَاطٌ؛ فَالْعِلْمُ يَقْتَضِي الْعَمَلَ، وَالْعَمَلُ يَقُومُ عَلَى الْعِلْمِ، فَالْإِيمَانُ بِوَحْدَانِيَّةِ اللهِ وَتَفَرُّدِهِ يَقْتَضِي عِبَادَتَهُ وَتَعْظِيمَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَخَوْفَهُ.

وَتَقَدَّمَ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ يَسْتَلْزِمُ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ فَالْإِيمَانُ بِأَنَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ يَقْتَضِي عَمَلًا وَهُوَ تَخْصِيصُهُ بِالْعِبَادَةِ وَالْكُفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَيَشْمَلُ كُلَّ مَسَائِلِ الِاعْتِقَادِ لِأَنَّ مَسَائِلَ الدِّينِ مَسَائِلُ اعْتِقَادِيَّةٌ عَمَلِيَّةٌ، وَعَلَمِيَّةٌ، وَالْمَسَائِلُ الْعَمَلِيَّةُ تَشْمَلُ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ وَأَعْمَالَ الْجَوَارِحِ، وَالْعَمَلُ يَنْبَنِي عَلَى اعْتِقَادٍ؛ فَالصَّلَاةُ أَعْظَمُ الْوَاجِبَاتِ بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ تَقُومُ عَلَى اعْتِقَادٍ وَإِيمَانٍ بِوُجُوبِهَا وَفَضْلِهَا، فَمَنْ جَحَدَ وُجُوبَهَا لَا يُصَلِّي إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُنَافِقًا.

فَالِاعْتِقَادُ الْحَقُّ وَالْإِيمَانُ بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَسْتَلْزِمُ الِانْقِيَادَ لِأَوَامِرِ اللهِ وَنَوَاهِيهِ فِعْلًا

---

(١) سورة المائدة: ٧٧.

(٢) سورة البقرة: ٢ – ٥.

وَتَرْكًا.

وَلِهَذَا يُفَرَّقُ بَيْنَ حُكْمِ تَارِكِ الِاعْتِقَادِ وَتَارِكِ الْعَمَلِ: فَإِذَا آمَنَ بِتَحْرِيمِ الزِّنَا فَهَذَا وَاجِبٌ وَهَذَا مُحْسِنٌ وَهَذَا مِنْ صَمِيمِ الْإِيمَانِ فَبِاعْتِقَادِهِ يُؤْمِنُ بِتَحْرِيمِهِ وَيُؤْمِنُ بِسُوءِ عَاقِبَتِهِ، لَكِنْ قَدْ يَزْنِي، فَفَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ مَنْ يَجْحَدُ حُرْمَتَهُ، فَمَنِ اسْتَبَاحَ الزِّنَا يَكُونُ كَافِرًا لِأَنَّهُ جَحَدَ مَعْلُومًا مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ لَكِنْ مَنْ أَقَرَّ بِتَحْرِيمِهِ لَكِنَّهُ وَقَعَ فِيهِ فَهَذَا لَيْسَ بِكَافِرٍ.

فَالِانْحِرَافُ قَدْ يَكُونُ فِي الْعَمَلِ وَقَدْ يَكُونُ فِي الِاعْتِقَادِ وَيُفَرَّقُ بَيْنَهُمَا فِي الْحُكْمِ.

وَالْإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ يُوجِبُ عَمَلًا وَهُوَ الْخَوْفُ، وَإِيمَانُهُ بِأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَأَنَّهُ يَسْمَعُ وَأَنَّهُ يَرَى هَذَا يُوجِبُ لَهُ الطَّاعَةَ وَالطَّمَعَ فِي رَحْمَتِهِ وَالطَّمَعَ فِي مَغْفِرَتِهِ مِمَّا يُقَوِّي عَزِيمَتَهُ عَلَى الْقِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}**[1]. وَاللهُ يُصَبِّرُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَقُولُ لَهُ: **{وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ}**[2]. وَالْمُجَاهِدُ إِذَا اسْتَشْعَرَ مَا يُؤْمِنُ بِهِ أَوْجَبَ لَهُ ثَبَاتًا وَصَبْرًا وَتَوَكُّلًا وَإِقْدَامًا.

وَقَدْ يَكُونُ الْعَبْدُ مُؤْمِنًا لَكِنَّهُ يَكُونُ غَافِلًا فَيَضْعُفُ أَثَرُ هَذَا الْإِيمَانِ عَلَى عَمَلِهِ فَيَتَعَلَّقُ بِالْأَسْبَابِ، كَأَنْ يُؤْمِنَ بِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لله وَأَنَّ الْعَطَاءَ وَالْمَنْعَ لله وَأَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا يُرِيدُ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَحْضِرُ وَلَا يَتَحَقَّقُ عِنْدَهُ هَذَا الِاعْتِقَادُ فِي شُعُورِهِ وَفِكْرِهِ فَيَتَعَلَّقُ بِالْأَسْبَابِ وَيَضْعُفُ تَوَكُّلُهُ عَلَى اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي كُلِّ الْجَوَانِبِ.

فَالْإِيمَانُ بِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ لَهُ آثَارٌ عَمَلِيَّةٌ مِنْ تَعْظِيمِ اللهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَهَذَا مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَمِنَ الْقِيَامِ بِطَاعَتِهِ.

وَالْوَلَاءُ وَالْبَرَاءُ مِنْ آثَارِ الْإِيمَانِ بِأَنَّ اللهَ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ؛ ذَلِكَ لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ تُوجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يُحِبَّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيُبْغِضَ مَنْ يُبْغِضُهُ اللهُ، وَيَكُونُ مُوَافِقًا لله فِيمَا يُحِبُّ وَفِيمَنْ يُحِبُّ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَالْمُتَطَهِّرِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَيُحِبُّ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي شَرَعَهَا.

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٧ – ٢٢٠.

(٢) سورة الطور: ٤٨.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

فَالعِلْمُ النَّافِعُ هُوَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَجْتَهِدُونَ فِي مَعْرِفَةِ مَعَانِيهَا، وَالتَّفَقُّهِ فِيهَا أُصُولًا وَفُرُوعًا. وَيَسْلُكُونَ جَمِيعَ طُرُقِ الدَّلَالَاتِ فِيهَا: دَلَالَةُ المُطَابَقَةِ، وَدَلَالَةُ التَّضَمُّنِ، وَدَلَالَةُ الالْتِزَامِ، وَيَبْذُلُونَ قُوَاهُمْ فِي إِدْرَاكِ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ.

يَقُولُ الشَّيْخُ: إِنَّ مَفْهُومَ الْعِلْمِ شَامِلٌ لِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ وَالطَّلَبِيَّةِ فَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ مُشْتَمِلَانِ عَلَى عُلُومٍ وَاعْتِقَادَاتٍ وَعَلَى نُصُوصٍ تَتَضَمَّنُ الْأُمُورَ الْعَمَلِيَّةَ مِنْ أَمْرٍ وَنَهْيٍ.

فَطَالِبُ السَّعَادَةِ عَلَيْهِ أَنْ يَطْلُبَ هَذَا الْعِلْمَ وَذَلِكَ بِأَنْ يَتَعَلَّمَ كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَقَّهَ فِيهِمَا وَيَتَدَبَّرَ لَهُمَا بِحَسَبِ مَا آتَاهُ اللهُ مِنَ الْقُدْرَةِ الْعَقْلِيَّةِ لِأَنَّ الْعِبَادَ مُتَفَاوِتَةٌ تَفَاوُتًا عَظِيمًا، وَلِهَذَا كَانَ فِيهِمُ الْعَالِمُ وَالْأَعْلَمُ وَالْمُتَعَلِّمُ وَفِيهِمُ الْعَامَّةُ الَّذِينَ لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ إِدْرَاكِ الْكَثِيرِ وَحَسْبُهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بِمَا أَرْشَدَهُمْ إِلَيْهِ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ فَهُمْ تَابِعُونَ لِغَيْرِهِمْ.

لَكِنْ مَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِالْعَقْلِ وَالْفَهْمِ أَنْ يَجِدَّ وَيَجْتَهِدَ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ وَالتَّفَكُّرِ فِي مَعَانِيهِ وَالْوَسَائِلِ الْمُعِينَةِ عَلَى هَذَا كَعِلْمِ اللُّغَةِ مَثَلًا فَإِنَّهُ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْقُرْآنِ لِأَنَّ فَهْمَ الْكَلَامِ يَنْبَنِي عَلَى فَهْمِ ذَلِكَ اللِّسَانِ وَخَصَائِصِ ذَلِكَ اللِّسَانِ وَدَلَالَةِ الْأَلْفَاظِ.

وَلِهَذَا يَقُولُ الشَّيْخُ هُنَا فِي تَطْبِيقِ التَّدَبُّرِ لِنُصُوصِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ الدَّلَالَاتِ فَاللَّفْظُ لَهُ ثَلَاثُ دَلَالَاتٍ: دَلَالَةُ مُطَابَقَةٍ، وَدَلَالَةُ تَضَمُّنٍ، وَدَلَالَةُ الْتِزَامٍ أَوِ اسْتِلْزَامٍ.

فَدَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى كُلِّ مَعْنَاهُ هَذِهِ دَلَالَةُ مُطَابَقَةٍ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى بَعْضِ مَعْنَاهُ دَلَالَةُ تَضَمُّنٍ، وَدَلَالَتُهُ عَلَى أَمْرٍ آخَرَ يَسْتَلْزِمُهُ الْمَعْنَى دَلَالَةُ الْتِزَامٍ.

فَمِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى السَّمِيعُ، وَهَذَا اللَّفْظُ يَدُلُّ عَلَى ذَاتِ الرَّبِّ، وَيَدُلُّ عَلَى صِفَةِ السَّمْعِ، وَهَذِهِ دَلَالَةُ مُطَابَقَةٍ.

أَمَّا دَلَالَةُ هَذَا الِاسْمِ -السَّمِيعِ- عَلَى السَّمْعِ فَقَطْ فَهُوَ دَلَالَةُ تَضَمُّنٍ.

وَدَلَالَتُهُ -أَيِ اسْمِ اللهِ السَّمِيعِ- عَلَى حَيَاةِ الرَّبِّ تَعَالَى فَهَذِهِ دَلَالَةُ الْتِزَامٍ؛ فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ مِنْ مَفْهُومِ السَّمِيعِ، لَكِنَّ السَّمْعَ يَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ لَفْظُ الصَّلَاةِ: دَلَالَةُ لَفْظِ الصَّلَاةِ الشَّرْعِيَّةُ يَتَضَمَّنُ مَا فِي الصَّلَاةِ مِنْ أَرْكَانٍ وَوَاجِبَاتٍ وَهَذِهِ دَلَالَةُ

مُطَابَقَةٍ.

وَدَلَالَتُهَا عَلَى بَعْضِ ذَلِكَ هِيَ دَلَالَةُ تَضَمُّنٍ.

وَدَلَالَتُهَا عَلَى وُجُوبِ الطَّهَارَةِ هُوَ دَلَالَةُ الْتِزَامٍ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ الصَّحِيحَةَ تَسْتَلْزِمُ الطَّهَارَةَ، لَكِنَّ الطَّهَارَةَ لَيْسَتْ مِنْ جُزْئِيَّاتِ الصَّلَاةِ.

وَلِهَذَا فَرَّقَ الْعُلَمَاءُ بَيْنَ الْوَاجِبَاتِ وَالْأَرْكَانِ وَالسُّنَنِ مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْفِعْلِ.

لَكِنَّ الطَّهَارَةَ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ الصَّلَاةِ ، وَكَذَلِكَ النِّيَّةُ شَرْطٌ لِأَنَّهَا لَابُدَّ أَنْ تَسْبِقَ الصَّلَاةَ.

فَالتَّدَبُّرُ لِلنُّصُوصِ مِنْ تَمَامِ مُرَاعَاةِ تِلْكَ الدَّلَالَاتِ وَلِهَذَا يَسْتَنْبِطُ أَهْلُ الْعِلْمِ الْأَحْكَامَ مِنْ خِلَالِ تِلْكَ الدَّلَالَاتِ؛ فَإِذَا كَانَ الْمَأْمُورُ بِهِ وَاجِبًا فَإِنَّهُ يَجِبُ هَذَا الْفِعْلُ وَيَجِبُ مَا يَسْتَلْزِمُهُ هَذَا الْفِعْلُ، فَالْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ يَتَضَمَّنُ كُلَّ مَا يَدْخُلُ فِي مَفْهُومِ الصَّلَاةِ، وَيَسْتَلْزِمُ مَا يَلْزَمُ لِلصَّلَاةِ؛ فَالصَّلَاةُ تَسْتَلْزِمُ الطَّهَارَةَ فَالْأَمْرُ بِالصَّلَاةِ أَمْرٌ بِالطَّهَارَةِ وَأَمْرٌ بِشُرُوطِ الطَّهَارَةِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْعُلُومُ النَّافِعَةُ، وَكَذَلِكَ مَا تَفَرَّعَ عَنْهَا مِنْ أَقْيِسَةٍ صَحِيحَةٍ وَمُنَاسَبَاتٍ حَكِيمَةٍ، وَكُلُّ عِلْمٍ أَعَانَ عَلَى ذَلِكَ، أَوْ آزَرَهُ، أَوْ تَرَتَّبَ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ عِلْمٌ شَرْعِيٌّ كَمَا أَنَّ مَا ضَادَّهُ وَنَاقَضَهُ فَهُوَ عِلْمٌ بَاطِلٌ فَهَذَا طَرِيقُهُمْ فِي الْعِلْمِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ هَذَا هُوَ عِلْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِتَنَوُّعِهِ، وَهِيَ الْعُلُومُ النَّافِعَةُ، وَكُلُّ مَا يُعِينُ عَلَيْهَا وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا وَمَا يَتَفَرَّعُ عَنْهَا فَهُوَ تَابِعٌ لِلْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ.

لَكِنَّ أُصُولَ هَذَا الْعِلْمِ الْأَسَاسِيَّةُ ثَلَاثَةٌ وَهِيَ:

الْأَوَّلُ: الْعِلْمُ بِاللهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَهَذَا يَتَضَمَّنُ الْعِلْمَ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ.

الثَّانِي: مَعْرِفَةُ شَرْعِهِ الَّذِي هُوَ مَنْهَجٌ لِلْحَيَاةِ مِنْ أَفْعَالٍ وَأَوَامِرَ وَنَوَاهٍ.

الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْمُكَلَّفُونَ وَمَا يَنْتَهِي أَمْرُهُمْ إِلَيْهِ وَمَا يَصِيرُ إِلَيْهِ الْعَالَمُ وَالنَّاسُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ.

أَمَّا الْعُلُومُ الْأُخْرَى فَهِيَ مُعِينَةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ هَذِهِ الْعُلُومِ وَإِدْرَاكِهَا إِدْرَاكًا صَحِيحًا وَالْقِيَامِ بِذَلِكَ.

وَمِنْ هُنَا تَنَوَّعَتِ الْعُلُومُ مِثْلُ عُلُومِ التَّفْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَعُلُومِ اللُّغَةِ فَهَذِهِ كُلُّهَا عُلُومٌ شَرْعِيَّةٌ.

وَعُلُومُ اللُّغَةِ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ لِأَنَّهُ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَعِلْمُ التَّفْسِيرِ يُقْصَدُ بِهِ بَيَانُ مَعَانِي كَلَامِ اللهِ فِي لِسَانِ أَهْلِ الْعِلْمِ، أَمَّا الشَّرْحُ فَهُوَ أَوْسَعُ فَشَرْحُ الْحَدِيثِ تَفْسِيرٌ لِحَدِيثِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكِنْ جَرَى الِاصْطِلَاحِ عَلَى لَفْظِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا، وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهْلِهِ، وَتَفْسِيرٌ يَعْرِفُهُ الْعُلَمَاءُ، وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ وَمَنِ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ.

يَقُولُ الشَّيْخُ: فَكُلُّ مَا يَتَفَرَّعُ مِنْ عُلُومِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَهِيَ عُلُومٌ شَرْعِيَّةٌ وَكُلُّ مَا يُعِينُ عَلَيْهَا مِثْلُ الْعُلُومِ اللُّغُوِيَّةِ وَعُلُومِ الْحَدِيثِ الَّتِي يُعْرَفُ بِهَا الصَّحِيحُ مِنْ غَيْرِهِ لِتَمْحِيصِ السُّنَّةِ وَمَعْرِفَتِهَا.

وَكُلُّ عِلْمٍ مِنْ عُلُومِ الْعَقْلِيَّاتِ وَالْعَمَلِيَّاتِ يُضَادُّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ بَاطِلٌ.

أَمَّا الْعُلُومُ الْمَادِّيَّةُ فَهِيَ مِنَ الْعَادَاتِ وَمِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَشْتَرِكُ فِيهَا النَّاسُ، فَالْعُلُومُ الدُّنْيَوِيَّةُ مِنْهَا عُلُومٌ نَافِعَةٌ فِي الْحَيَاةِ وَمِنْهَا عُلُومٌ ضَارَّةٌ وَعُلُومٌ هَزِيلَةٌ رَدِيئَةٌ لَا خَيْرَ فِيهَا لَا فِي دُنْيَا وَلَا دِينٍ فَهَذَا مِنَ اللَّغْوِ وَالْبَاطِلِ.

أَمَّا الْعُلُومُ النَّافِعَةُ فِي الدُّنْيَا فَهِيَ مُعْتَبَرَةٌ شَرْعًا -وَلَيْسَتْ مِنَ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ- وَفَضْلُهَا بِحَسَبِ مَا يَتَحَقَّقُ فِيهَا مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى عِبَادَةِ اللهِ.

فَالْعَادَةُ أَمْرٌ مُبَاحٌ لَكِنْ تَنْقَلِبُ الْعَادَةُ إِلَى عِبَادَةٍ بِالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ، كَمَا تَنْقَلِبُ سَيِّئَةً وَمَعْصِيَةً بِالنِّيَّةِ السَّيِّئَةِ، فَيَنْبَنِي حُكْمُهَا عَلَى الْمَقْصُودِ وَالْغَايَةِ مِنْهَا، لَكِنَّ الْأَصْلَ أَنَّهَا عُلُومٌ يَشْتَرِكُ فِيهَا النَّاسُ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، بَلِ الْكُفَّارُ فِيهَا أَمْكَنُ، وَهُمْ لَا يُرِيدُونَ فِيهَا إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَإِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْهَا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَسْتَعِينُ بِهِ وَتَكُونُ لَهُ فِيهَا نِيَّةٌ.

لَكِنْ تَبْقَى فَضِيلَةُ الْعِلْمِ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ أَنَّهَا عَرَضِيَّةٌ لَيْسَ ذَاتًا لِهَذَا الْعِلْمِ.

فَهُنَاكَ عِلْمٌ شَرْعِيٌّ وَهُوَ الْأَصْلُ وَهُنَاكَ عِلْمٌ شَرْعِيٌّ مِنْ بَابِ حُكْمِ الْوَسَائِلِ لِأَنَّ الْوَسَائِلَ لَهَا حُكْمُ الْغَايَاتِ، وَهُنَاكَ مَا يَكُونُ الْمُقْتَضِي لِلْفَضْلِ وَالْفَضِيلَةِ مَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنْ نِيَّةٍ وَمَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ مِنَ الْآثَارِ الشَّرْعِيَّةِ.

ثُمَّ إِنَّ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ لَابُدَّ فِيهَا مِنَ النِّيَّةِ الصَّحِيحَةِ لله بِأَنْ يُطْلَبَ الْعِلْمُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ تَعَالَى، لَكِنَّ الْعُلُومَ الْمَادِّيَّةَ لَا بَأْسَ أَنْ تُطْلَبَ لِلدُّنْيَا؛ فَمَنْ تَعَلَّمَ الْهَنْدَسَةَ لِأَجْلِ الْوَظِيفَةِ فَهَذَا لَا إِثْمَ عَلَيْهِ، وَمَنْ تَعَلَّمَ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ وَنِيَّتُهُ الْوَظِيفَةُ وَالْكَسْبُ الْمَادِّيُّ فَقَطْ فَهَذَا لَا أَجْرَ لَهُ، بَلْ هُوَ مُسْتَوْجِبٌ لِلْعِقَابِ.

فَمِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْإِنْسَانُ عِلْمَ الْعَرَبِيَّةِ لِأَجْلِ الْوَظِيفَةِ لِأَنَّ عِلْمَ النَّحْوِ مِنَ التَّوَابِعِ وَلَيْسَ مِنْ عُلُومِ الشَّرْعِ

لَكِنَّهُ وَسِيلَةٌ إِلَى عِلْمِ الشَّرْعِ.

يَقُولُ الشَّيْخُ:

وَأَمَّا طَرِيقُهُمْ فِي العَمَلِ فَإِنَّهُمْ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالتَّصْدِيقِ وَالاعْتِرَافِ التَّامِّ بِعَقَائِدِ الإِيمَانِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ العِبَادَاتِ وَأَسَاسُهَا، ثُمَّ يَتَقَرَّبُونَ لَهُ بِأَدَاءِ فَرَائِضِ اللهِ المُتَعَلِّقَةِ بِحَقِّهِ، وَحُقُوقِ عِبَادِهِ، مَعَ الإِكْثَارِ مِنَ النَّوَافِلِ، وَبِتَرْكِ المُحَرَّمَاتِ وَالمَنْهِيَّاتِ تَعَبُّدًا للهِ تَعَالَى.

يَذْكُرُ الشَّيْخُ هُنَا طَرِيقَةَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي الْعَمَلِ، فَيَقُولُ إِنَّ طَرِيقَتَهُمْ فِي الْعَمَلِ التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ بِالْإِيمَانِ بِمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؛ بِالْإِيمَانِ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَكُتُبِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللهِ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ مَا نَهَى عَنْهُ، يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَالْمُسْتَحَبَّاتِ وَتَرْكِ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ، يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللهِ بِكُلِّ مَا يُحِبُّ مِنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ، هَذِهِ طَرِيقَتُهُمْ فِي الْعَمَلِ.

وَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي هَذَا الْمَقَامِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ: مُسَارِعٌ فِي الْخَيْرَاتِ، وَمُقْتَصِدٌ، وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **{اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ}**[1] يَتَضَمَّنُ طَلَبَ الْهِدَايَةِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَالنَّاسُ مُتَفَاوِتُونَ فِي الْهِدَايَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ فَقَدْ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَالِمًا بِالْحَقِّ لَكِنَّهُ مُقَصِّرٌ وَمُفَرِّطٌ فِي أَشْيَاءَ.

أَمَّا أَوْلِيَاءُ اللهِ بِإِطْلَاقٍ فَهُمْ طَبَقَتَانِ: مُقَرَّبُونَ، وَمُقْتَصِدُونَ، سَابِقُونَ وَأَصْحَابُ يَمِينٍ،

وَهُنَاكَ التَّصْنِيفُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ وَهُوَ يَشْمَلُ أَوْلِيَاءَ اللهِ كُلَّهُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُنْعَمُ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ التَّامَّةَ وَهُمْ فِيهَا عَلَى مَرَاتِبَ وَدَرَجَاتٍ، حَتَّى الْأَنْبِيَاءُ بَيْنَهُمْ تَفَاضُلٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: **{وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ}**[2]. وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ: **{وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}**[3].

يَقُولُ الشَّيْخُ:

---

(١) سورة الفاتحة: ٦.

(٢) سورة الإسراء: ٥٥.

(٣) سورة الإسراء: ١٩ - ٢١.

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَقْبَلُ إِلَّا كُلَّ عَمَلٍ خَالِصٍ لِوَجْهِهِ الكَرِيمِ مَسْلُوكًا فِيهِ طَرِيقَ النَّبِيِّ الكَرِيمِ، وَيَسْتَعِينُونَ بِاللهِ تَعَالَى فِي سُلُوكِ هَذِهِ الطُّرُقِ النَّافِعَةِ الَّتِي هِيَ العِلْمُ النَّافِعُ، وَالعَمَلُ الصَّالِحُ المُوصِلُ إِلَى كُلِّ خَيْرٍ وَفَلَاحٍ وَسَعَادَةٍ عَاجِلَةٍ وَآجِلَةٍ. وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

يَخْتِمُ الشَّيْخُ هَذَا الْبَيَانَ بِأَنَّ أَهْلَ السُّنَّةِ فِي تَقَرُّبِهِمْ إِلَى اللهِ يُرَاعُونَ الْإِخْلَاصَ وَالْمُتَابَعَةَ، يُرَاعُونَ أَنْ يَكُونَ عَمَلُهُمْ مِنْ أَحْسَنِ الْعَمَلِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: **{لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}**[1]. فَأَحْسَنُ الْعَمَلِ هُوَ مَا كَانَ خَالِصًا لِوَجْهِ اللهِ مُوَافِقًا لِأَمْرِ اللهِ وَأَمْرِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَمِنْ أَبْلَغِ الشَّرْحِ لِأَحْسَنِ الْعَمَلِ الْأَثَرُ الْمَشْهُورُ عَنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ[2] حَيْثُ قَالَ: أَحْسَنُ الْعَمَلِ أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ. قِيلَ: يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَا يُقْبَلُ وَإِنْ كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَا يُقْبَلُ وَالْخَالِصُ أَنْ يَكُونَ للهِ وَالصَّوَابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ.

فَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ حَسَنًا وَلَا مَقْبُولًا إِلَّا أَنْ يَتَوَفَّرَ فِيهِ هَذَانِ الشَّرْطَانِ.

وَنَقِيضُ الْإِخْلَاصِ الشِّرْكُ، وَنَقِيضُ السُّنَّةِ الْبِدْعَةُ، فَالْبِدْعَةُ وَإِنْ أَخْلَصَ فِيهَا صَاحِبُهَا فَقَدِ انْتَقَضَ فِيهَا مُوجَبُ الْأَمْرِ، وَالْمُرَائِي فِي عَمَلِهِ وَالْمُشْرِكُ فِي عَمَلِهِ وَإِنْ كَانَ مُوَافِقًا لِلْأَمْرِ انْتَقَضَ فِيهِ شَرْطُ الْإِخْلَاصِ.

وَالْآيَاتُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِتَوْحِيدِ اللهِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لَهُ كَثِيرَةٌ يَقُولُ تَعَالَى: **{تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}**[3]. وَيَقُولُ: **{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ}**[4]. وَأَمَرَ اللهُ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَاتِّبَاعِهِ فَقَالَ: **{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}**[5]. وقال: **{وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ**

---

(١) سورة الملك: ٢.

(٢) الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر، الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام، أبو علي التميمي اليربوعي الخراساني، المجاور بحرم الله. ولد بسمرقند ١٠٥ هـ ، ونشأ بأبيورد، وارتحل في طلب العلم، من أكابر العباد الصلحاء. كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشافعي.ثم سكن مكة وتوفي بها ١٨٧ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤٣٩-٤٦٢)، الأعلام للزركلي (٥/ ١٥٣).

(٣) سورة الزمر: ١ - ٣.

(٤) سورة الزمر: ١١، ١٢.

(٥) سورة آل عمران: ٣١.

تَهْتَدُونَ}[1].

فَلَابُدَّ مِنْ تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ فِي عِبَادَةِ الله تَعَالَى، وَلِتَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ يَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالله عَلَى ذَلِكَ فَيَسْأَلَ رَبَّهُ أَنْ يُصْلِحَ قَلْبَهُ وَيُصْلِحَ نِيَّتَهُ وَأَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِ بِالْإِخْلَاصِ وَأَنْ يَهْدِيَهُ لِسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ كُلَّ مَا يَحْصُلُ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ بِتَوْفِيقٍ وَهِدَايَةٍ وَمَعُونَةٍ مِنَ الله تَعَالَى.

وَالتَّقَرُّبُ إِلَى الله يَكُونُ بِالْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، وَقَدْ قَرَنَ اللهُ بَيْنَهُمَا فِي أَعْظَمِ سُورَةٍ فَقَالَ: **{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}**[2]. وَهَذِهِ دَاخِلٌ فِيهَا كُلُّ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ وَالْعَمَلَ لَا يَكُونَانِ إِلَّا بِالْعِلْمِ، فَفِيهَا إِجْمَالُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ.

وَيُقْسِمُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ فِي آخِرِ «التَّدْمُرِيَّةِ» النَّاسُ فِي بَابِ الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ أَرْبَعَةُ أَقْسَامٍ:

فَأَكْمَلُهُمْ مَنْ يَعْبُدُهُ وَيَسْتَعِينُ بِهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ فِي تَفَاوُتٍ كَبِيرٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُ بِهِ فَهُوَ غَافِلٌ عَنْ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ وَلَا يَشْعُرُ بِافْتِقَارِهِ إِلَيْهِ وَلَا يَشْعُرُ بِأَنَّ مَا قَامَ بِهِ مِنَ الْعِبَادَةِ إِنَّمَا كَانَ بِتَوْفِيقِ الله، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِينُ بِهِ فِي مَطَالِبِهِ وَلَا يَعْبُدُهُ، وَمِنْهُمْ –وَهُمْ شَرُّ الْأَقْسَامِ – مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُ بِهِ فَهُوَ مُعْرِضٌ عَنِ الله كُلِّيَّةً.

فَنَسْأَلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَمُدَّنَا وَإِيَّاكُمْ بِتَوْفِيقِهِ وَأَنْ يُعَلِّمَنَا مَا يَنْفَعُنَا وَأَنْ يَنْفَعَنَا بِمَا عَلَّمَنَا وَأَنْ يَشْرَحَ صُدُورَنَا لِطَاعَتِهِ وَأَنْ يُعِيذَنَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ وَمِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا وَأَنْ يَعْصِمَنَا مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ إِنَّهُ تَعَالَى سَمِيعُ الدُّعَاءِ.

وَرَحِمَ اللهُ الشَّيْخَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ السَّعْدِيَّ عَلَى مَا بَيَّنَهُ فِي هَذَا الْمُخْتَصَرِ الْوَجِيزِ الَّذِي شَمِلَ أُصُولَ الدِّينِ الِاعْتِقَادِيَّةَ وَالْعَمَلِيَّةَ لَكِنَّهُ أَجْمَلَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَمَلِ فِي الْأَصْلِ الْخَامِسِ، وَاللهُ أَعْلَمُ وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ.

الْأَسْئِلَةُ

السُّؤَالُ: كَيْفَ يُقَوِّي الْمَرْءُ إِخْلَاصَهُ لله تَعَالَى؟

الْجَوَابُ: عَلَيْهِ أَنْ يُلَاحِظَ أَهَمِّيَّةَ الْإِخْلَاصِ وَإِحْسَانَ الْعَمَلِ وَيَسْأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَمُدَّهُ وَأَنْ يَسْتَعِيذَ بِالله مِنَ الشَّيْطَانِ

---

(١) سورة العراف: ١٥٨.

(٢) سورة الفاتحة: ٥.

الرَّجِيم إِذَا أَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ الْتِفَاتًا إِلَى الْخَلْقِ بِعَمَلِهِ. فَهُوَ سُبْحَانَهُ الَّذِي يَصْرِفُ الْقُلُوبَ: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}**[1]. فَيَسْأَلُ رَبَّهُ: يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ.

السُّؤَالُ: هَلْ يَجُوزُ تَعَلُّمُ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ مِنَ الْكُتُبِ بِدُونِ قِرَاءَتِهَا عَلَى الْعُلَمَاءِ؟

الْجَوَابُ: يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَقْرَأُ التَّفَاسِيرَ الْمَأْمُونَةَ كَتَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ وَتَفْسِيرِ السَّعْدِيِّ.

السُّؤَالُ: حَدِيثُ: «**لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ**»[2]. هَلْ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى يَشَمُّ؟

الْجَوَابُ: اللهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

السُّؤَالُ: مَتَى يُقَالُ إِنَّ الْعَمَلَ الْفُلَانِيَّ بِدْعَةٌ؟

الْجَوَابُ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**»[3]. أَنْ يَتَعَبَّدَ بِمَا لَمْ يَأْمُرِ اللهُ بِهِ وَلَا رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْبِدْعَةُ إِمَّا أَنْ تَكُونَ بِدْعَةً أَصْلِيَّةً أَوْ بِدْعَةً إِضَافِيَّةً

كَمَا ذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي بِدَعِ رَجَبٍ وَمِنْهَا صَلَاةُ الرَّغَائِبِ فِي أَوَّلِ جُمُعَةٍ مِنْهُ فَالصَّلَاةُ مَشْرُوعَةٌ لَكِنَّ تَخْصِيصَ يَوْمًا أَوْ مَكَانًا بِعِبَادَةٍ مِنْ غَيْرِ دَلِيلٍ مِنَ الشَّرْعِ فَهَذَا بِدْعَةٌ.

السُّؤَالُ: ذَكَرْتُمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ دُعَاءُ الصِّفَةِ كَقَوْلِ: يَا رَحْمَةَ الله. فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله؟

الْجَوَابُ: ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ بَلْ قَالُوا إِنَّ هَذَا كُفْرٌ لِأَنَّ قَوْلَ: يَا رَحْمَةَ الله ارْزُقِينِي أَوْ اشْفِينِي ...إلخ فَهَذَا كَأَنَّهُ جَعَلَ رَحْمَةَ الله شَيْئًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَلَهَا سَمْعٌ وَتُجِيبُ الدُّعَاءَ وَأَنَّ لَهَا الْمَشِيئَةُ وَهَذَا غَلَطٌ.

أَمَّا قَوْلُنَا أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله. فَهَذَا نَوْعُ تَوَسُّلٍ مِثْلُ: أَسْأَلُكَ يا اللهُ بِرَحْمَتِكَ.

السُّؤَالُ: هَلْ نُثْبِتُ لله أَصَابِعَ خَمْسَةً؟

الْجَوَابُ: نَعَمْ.

---

(١) سورة الأنفال: ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الصوم- باب هل يقول إني صائم إذا شتم (١٩٠٤)، ومسلم في كتاب الصيام- باب فضل الصيام (١١٥١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلح- باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود (٢٦٩٧)، ومسلم في كتاب الأقضية- باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور (١٧١٨)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

السُّؤَالُ: كَيْفَ يَجْمَعُ الْمُسْلِمُ بَيْنَ إِرَادَةِ الْإِخْلَاصِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ وَإِرَادَةِ الْوَظِيفَةِ؟

الْجَوَابُ: بِالنِّيَّةِ، فَإِنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ وَكَانَتْ نِيَّتُهُ أَنْ يَطْلُبَ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ وَكَانَ ذَلِكَ هُوَ الْمُقَدَّمُ عِنْدَهُ، ثُمَّ الْوَظِيفَةُ فَهَذَا خَيْرٌ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُحَرِّكُ وَالْمُؤَثِّرُ هُوَ طَلَبُ الْوَظِيفَةِ فَلَا.

السُّؤَالُ: هَلْ سَبَقَ الشَّيْخَ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ فِي جَعْلِ هَذِهِ الْأُصُولِ أُصُولًا لِلْعَقِيدَةِ أَمْ هِيَ أُصُولٌ مُحْدَثَةٌ؟

الْجَوَابُ: سَبَقَ بِذَلِكَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

السُّؤَالُ: إِذَا هَاجَرَ الْإِنْسَانُ مِنْ بَلَدِ الْكُفْرِ إِلَى الْبَلَدِ الْإِسْلَامِيِّ ثُمَّ تَحَقَّقَتِ الضَّرُورَةُ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى بَلَدِ الْكُفْرِ لِمَصْلَحَةٍ مُهِمَّةٍ ثُمَّ بَعْدَ سَنَوَاتٍ يَرْجِعُ إِلَى بَلَدِ الْإِسْلَامِ، فَهَلْ هِجْرَتُهُ الْأُولَى بَطُلَتْ وَهَلْ يَبْقَى مُهَاجِرًا وَلَا يَنْقَطِعُ الثَّوَابُ؟

الْجَوَابُ: لَا يَنْقَطِعُ الثَّوَابُ إِذَا صَحَّتِ النِّيَّةُ الْأُولَى وَرَجَعَ لَا رُجُوعًا عَنِ الْهِجْرَةِ إِنَّمَا رَجَعَ لِأَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ عَاجِلٍ أَوْ لِأَمْرٍ دِينِيٍّ.

السُّؤَالُ: مَا حُكْمُ التَّسْبِيحِ بِالْمِسْبَحَةِ؟

الْجَوَابُ: جَائِزٌ مَا لَمْ يَعْتَقِدْ لَهَا فَضِيلَةٌ وَمَا لَمْ يُعَظِّمْهَا وَيَتَّخِذْهَا شِعَارًا أَوْ يُعَلِّقْهَا فِي رَقَبَتِهِ كَمَا يَفْعَلُ جُهَّالُ الصُّوفِيَّةِ.

السُّؤَالُ: كَيْفَ يُرَدُّ عَلَى مَنْ يَسْتَدِلُّ بِقَوْلِ اللهِ: **{إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}**[1]. عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ الدُّنْيَوِيِّ؟

الْجَوَابُ: هَذَا مِنْ جَهْلِ مَنْ يَسْتَدِلُّ بِالْآيَةِ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ الدُّنْيَوِيِّ، فَإِنَّ الْعُلُومَ الْمَادِّيَّةَ لَا تُورِثُ خَشْيَةَ اللهِ أَبَدًا وَإِنَّمَا الَّذِي يُورِثُ الْخَشْيَةَ هُوَ الْعِلْمُ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

السُّؤَالُ: رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي الْحَدِيثِ الْمُعَلَّقِ عَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ تَفْسِيرَهُ الْكُرْسِيَّ بِالْعِلْمِ وَهَذَا رِوَايَةٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَهَلْ كَانَ السَّلَفُ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ عَلَى غَيْرِ ظَاهِرِهِ؟

الْجَوَابُ: لَا، بَلْ كَانُوا يُفَسِّرُونَهُ بِمَا دَلَّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ وَمَا يَقْتَضِيهِ السِّيَاقُ وَمَا جَاءَتْ بِهِ الْآثَارُ، وَجَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -وَهُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ- أَنَّ الْكُرْسِيَّ مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ.

---

(١) سورة فاطر: ٢٨.